الدكتور
محمد حسين هيكل

الشرق الجديد



دار المعارف



الشّرق الجديد

الدكتور محمد حسين هيكل

الشرق الجديد

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقـــدّمة

بقلم

أحمد محمد حسين هيكل المحامى

« الشرق الجديد » مجموعة من فصول الدكتور هيكل ومقالاته تضمها دفتيّ هذا الكتاب لأول مرة .

وهو يبدأ ببيان ما كان بين الشرق والغـرب من صـلات تنوعت وتعددت خلال القرون ، وازدهرت حيناً ثم لم يمنع تضاؤلها من بعد أن تعود لتبرز فى صورة جديدة ، قد تكون بالغة أقصى درجات العنف ، أو تكون علاقة سلم لا يبلغ درجة التفاهم ، حيناً آخر . وهذا التطور فى صوره المختلفة ، قديمها وحديثها ، هو موضوع الفصل الأول من هذا الكتاب .

ولئن كان مقرراً اليوم أن على الشرق أن يسرع الخطى إلى إقامة حضارة جديدة فى ربوعه ، يمزج فى أصولها بين مثله الروحية التى قامت عليها حضارته الأولى وبين مقتضيات حياته المادية فى هذا العصر ، مزاجاً يكفل التوازن بين جانبى الحياة الروحى والمادى ، فإن السبيل الصحيح ، الذى لا سبيل غيره ، للكشف عن مقومات هذه الحضارة المتوازنة وتوضيح معالمها ومميزاتها هو الإدراك السليم لحرية الفكر بأوسع ما يتسع له هذا اللفظ من المعانى ، لأن تلك الحرية هى الوسيلة المباشرة لنشر الأفكار

بين الجماعات ، فتتولد عنها الحركات الفكرية التى تعتبر الأساس الذى لا تقوم حضارة بدونه .

على أنه إذا كان لا قيام للحضارات إلا على أساس حركات فكرية عميقة الجذور فى الجماعات المختلفة ، فإن الثورات والحروب نتيجة كذلك لنوع آخر من الحركات الفكرية لا تلبث أن تدفع بالناس إلى الثورة على المفاهيم والقيم الموروثة التى تسربت إليها عوامل الاضمحلال فضعفت ثم حطمتها الحرب أو الثورة فيما حطمت ففقدت بذلك نهائياً قدرتها على صيانة السلام بين الأمم أو حماية نظمها الاجتماعية ، فوجب أن تقوم على أنقاضها أفكار وقيم جديدة تتفق مع ما تتجه إليه الجماعة فى طورها الجديد .

والحركات الفكرية التى تقوم على أساسها الحضارات ، وتلك التى تؤدى إلى قيام الثورات والحروب ، وأثرها جميعاً فى بناء الأمم بعامة ، وأمم الشرق بصفة خاصة ، كلها موضوع الفصل الثانى من هذا الكتاب .

وكيف لحديث الشرق أن يكتمل دون أن يذكر فيه « المهاتما غاندى » « روح الهند العظيم فى العصر الحاضر » . و « غاندى » ، كما يصفه الدكتور هيكل ، من بناة هذا القرن العشرين ، لا لمجهوداته السياسية فحسب ، تلك المجهودات التى انتهت إلى حصول الهند على استقلالها وحريتها لتصبح من بعد قوة ذات وزن فى أمور السياسة الدولية ، بل لمنهجه الاجتماعى الذى استهدف به تحرير المنبوذين ومساواتهم بسائر أبناء الهند ، ولاتجاهه الإنسانى الرفيع الذى سما فيه بالكرامة الإنسانية للناس جميعاً ، دون تفرقة مهما كان سببها ، فوق جميع الاعتبارات .

واهتمام الدكتور هيكل بثقافة الشرق الأقصى وتطوره متصل على

صفحات « السياسة » وغيرها من الصحف والمجلات بما كان ينشره فيها من المقالات بين الحين والحين ، إلى أن دعته حكومة الهند فى عام ١٩٥٣ للاشتراك فى ندوة دُعى إليها عشرة من كبار مفكرى العالم لدراسة أساليب « غاندى » ومدى نجاحها فى المحافظة على السلام ، فأتاح له ذلك أن يدرس فى استفاضة حضارة هذه البلاد وتطورها ونهضتها الأخيرة دراسة دوَّن خلاصتها فى عدد من المحاضرات والمقالات التى نشرت من قبل فى « السياسة » . وهذه المحاضرات هى قوام الفصل الثالث من هذا الكتاب .

* * *

ولقد اتخذت كلمة الشرق فى هذا العصر معانى متعددة تختلف باختلاف المجال الذى تستعمل فيه . فهى فى الفنون والآداب تختلف عنها فى السياسة والاجتماع ، وهذه جميعاً قد تختلف كثيراً أو قليلا عن معناها الجغرافى البحت . فنحن حين نتحدث عن الأديان السماوية نقصد بالشرق مصر وفلسطين وجزيرة العرب ، وحين حديثنا عن غير ذلك من الأديان نقصد الصين والهند وما اصطلح اليوم على تسميته بالشرق الأقصى . وحين يكون الحديث فى السياسة نقصد بالشرق عادة روسيا السوفييتية وما يدور فى فلكها من البلاد الشيوعية ، وحين تكون الفنون هى موضوع كلامنا ينصرف معنى الشرق إلى الفن الفرعونى أو الفن الهندى القديم أو إلى الفنون الفارسية والإسلامية وما إليها . وليس حتماً أن تتطابق معانى الشرق المتعددة على هذا النحو على معنى الشرق الجغرافى ، بل قد يشمل بعضها مناطق هى من صميم الغرب سرت فيها روح الشرق ، وقد يعزل من الشرق مناطق أخرى أقرب فى تفكيرها وحياتها إلى ناحية الغرب .

وموضوعات هذا الكتاب تتصل بأكثر من معنى من هذه المعانى ، وهى ترتبط كلها فى النهاية بهذه النهضة السارية فى أنحاء الشرق جميعاً والتى تستهدف بعث الحضارة الأصيلة لبلاده التى يتمتع منها الشرق العربى بنصيب وافر . وإذا قلنا إن الهدف بعث الحضارة الأصيلة لبلاد الشرق فليس معنى ذلك أن نقيم الفرعونية فى مصر والفينيقية فى الشام ، والآشورية فى العراق مثلما كانت قائمة فى كل منها منذ بضعة آلاف من السنين . . . وكما اعتقد البعض فى وقت من الأوقات ، معترضين بأن إبراز هذه الحضارات والدعوة إلى بعثها غير مستطاع فى عالم اليوم ؛ لأن فيه تجاهلا لعوامل الوحدة بين بلاد الشرق العربى والتى صاغها التاريخ فى قوالبه التى يرتبط بعضها ببعض بأوثق رباط . والمقصود ببعث الحضارة الأصيلة للشرق إبراز ما كان فى هذه الحضارات من وجوه الشبه وعوامل الاتصال بين الشعوب المختلفة حينئذ ، فنعمل على تقويتها ووصلها بما جد من بعد على بلادنا من تطورات ، لأن تاريخ العالم وحدة لا سبيل إلى انفصامها ، وإن الحضارات تقوم فيه بعضها على أثر بعض دون أن يفنى بعضها بعضاً أو يقضى عليه لأنها جميعاً حلقات فى سلسلة متصلة تندمج معالم بعضها فى البعض ما دامت متفقة مع تطور الإنسانية وتجددها .

وقد كتب الدكتور هيكل فى ذلك يقول . . . « إن دراسة هذه الحضارات [1] الغابرة التى قامت فى مصر والشام والعراق وصور الشبه وصور الاختلاف بينها من شأنه أن يلقى كثيراً من الضياء على ما تطورت إليه الحضارة الإسلامية خلال هذه الخمسة عشر قرناً وجهت فى أثناء عصور طويلة منها مصير العالم ، وهى تزداد كل يوم انتشاراً

---

(١) الفرعونية والعربية : مقال نشر فى ملحق السياسة رقم ٣٢٣٢ فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٣ ص ٤ .

وإن عدت عليها من حين لحين عاديات الزمن فركدت أوجمدت . فهذه الحضارة الإسلامية لم تنشأ ولم يكتمل نظامها فى حياة النبى عليه السلام ، بل تكونت من بعده شيئاً فشيئاً باختلاطها بالحضارات المختلفة التى غزا المسلمون بلادها والتى تمثلوها بعد أن تأثروا بها وأثروا فيها . وكلما ، ازددنا فى إدراك هذه الحضارة دقة كنا أكثر على بعثها قوة واقتداراً ، ويومئـذ تبرز الفكرة الإسلامية ، أو الفكرة العربية كما يريد البعض تسميتها ، قوية ممتلئة جدة وحياة ونشاطاً ، وثَّابة إلى ميادين هذه الحياة التى تحيط بنا ، قديرة على أن توجهها إلى نواح جديدة ليست الفرعونية ، وليست العربية ، وليست إسلامية العصور الوسطى ، ولا هى إسلامية عصور الانحطاط التى تجاورنا وما تزال تغمرنا ، بل إلى نواح تسبغ على الحياة الجديدة التى استمدت من العلم قوتها المادية روح الحضارة الإسلامية العريقة فى سموها المعنوى . فدراسة هذه العصور القديمة هى إذن وسيلة لمزيد من الدقة فى دراسة العصور التى خلفتها والتى تأثرت من غير ريب بها .

« وإن من فادح الخطأ الظن بأن الإسلام والحضارة الإسلامية قد عفت على ما قبلها وطمسته طمساً ، وإن العرب قد استأصلوا كل من سواهم ممن أقام بالبلاد التى غزاها الإسلام . ولبيان ذلك يجب أن نفرق بين الإسلام كدين ، والإسلام كحضارة ، الإسلام كدين يقرر عنه الكتاب الكريم أنه يعيد الأديان التى سبقته فى صورتها الصحيحة ويزيل ما دخل عليها من تحريف الكلم عن مواضعه ويجلو الحقيقة الأزلية الخالدة إلى الناس كافة . وهو قد عمَّ كعقيدة منذ اليوم الأول فلم يكن لأساسه — أساس الإيمان بالله وحده والإسلام له جل شأنه لا شريك

له – أن ترد عليه أية صورة من صور التطور أو التغير . أما الإسلام كحضارة فقد كان يتطور على مر القرون ، وظل يتمثل الحضارات التى جاورته حتى كان « ابن رشد » و « الفارابى » وغيرهما ممن نقلوا الفلسفة اليونانية إلى العربية ، وممن عاونوا أكبر عون على بعثها عندما بعثها الغرب مستعيناً بهؤلاء العلماء والفلاسفة المسلمين .

« وأقول إنى لا أرتاب فى أن العصور الإسلامية تأثرت بالعصور التى سبقتها لهذا الذى قدمت من دراسة الفلسفة اليونانية ولما انتقل إلى العرب من أدب الفرس . وليس معقولا أن يكون اليونان والفرس هم وحدهم الذين أثروا فى الحضارة الإسلامية وأن تكون مصر والشام والعراق غير ذات أثر عميق أو سطحى فيها . هذا ثم إنى أؤمن بالوراثة إيماناً صادقاً قوياً . أؤمن بها فى الجماعات كما أؤمن بها فى الأفراد . ولعلها فى الجماعات أدق وأبقى ، فلن يسيغ عقلى لذلك أن أتصور إمكان الانفصال بين زمن وزمن فى بقعة واحدة من الأرض انفصالا يمحو كل صلة بين الزمنين ، ولن يسيغ عقلى ألا يتأثر الحاضر بالماضى ولو أصبح هذا الحاضر فى يد قوة طارئة لها من السلطان كل ما يمكن أن يكون لها . وها نحن أولاء تغزونا الحضارة الغربية منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى اليوم ، أى منذ قرن ونصف قرن ، غزواً ذريعاً ، فهل محت هذه الحضارة مقوماتنا أو مقومات أية أمة شريفة أخرى . وهبها وصلت إلى تغريب الشرق – على حد تعبير بعض علماء الغرب – فهل تنقطع صلة حاضر الشرق بماضيه ؟ إن قليلا من التفكير ليدلنا على أن ذلك لن يكون ، ويدلنا على أن من يريد أن يفهم حضارة مصر بعد ألف سنة ، ومن يريد أن يفهم حضارة الشرق بعد ألف سنة ، لا غنى له عن أن يرجع إلى كل العهود التى سبقت هذه

الحضارة حتى يصل إلى مصر الفرعونية وإلى ما قبل مصر الفرعونية إن كشف التاريخ عن شيء كان قبلها » .

« . . . فإذا وضحت هذه الحقائق بعد طول التنقيب والدرس ، وألقت على الوجود ساطع ضيائها ، أمكن أن تلتقى وأن تكون منها وحدة هى أقوى من كل وحدة تدور بخاطر إنسان ؛ وحدة روحية قوية تنتظم الحاضر والمستقبل وتدفع الناس إلى حضارة تتضاءل أمامها الحضارات التى عرفت حتى اليوم ، لأنها تكون حضارة أوسع أفقاً ، وأغزر مادة وأغنى بماضيها الأصيل العريق .

لو أن هذه الفكرة لم يقتصر تطبيقها على الشرق الأدنى ، بل امتدت إلى ما وراءه من بلاد الشرق الأقصى ، فماذا تكون النتائج فى شأن حضارة الإنسانية ! وماذا يكون الأثر فى إقامة وحدة الوجود حقيقة ملموسة » ! !

ولئن كان لا محيد بعد ما قدمنا عن أن نرى الحضارة الجديدة لقاء بين الشرق الروحى ، والغرب المادى ، وتفاعلا بين الحضارات على تباعد الشقة المكانية والزمانية بين كل منهما، فما السبيل إلى هذا اللقاء ؟ وما وسائله ؛ وما موقف العالم الإسلامى من ذلك كله ؟ هذا ما يعرض له الكتاب فى فصله الأخير « الإسلام والحضارة الإسلامية » .

وقد حرصت على إضافة بعض الهوامش إلى الفصول ، وأن أثبت فى النهاية بياناً بمصادر الكتاب ، يتضح منهما للقارئ أن فصوله كتبت فى أوقات متباعدة ، وأن الدكتور هيكل لم يقصد يوم كتبها أن تكون فصولا منتظمة من كتاب . والواقع أننى قد رأيتها ترتبط جميعاً فى اتجاهها نحو إزالة بعض الغموض الذى يكتنف طريق بعث الشرق ، وأنها ، وإن لم تتسلسل على النحو المألوف للمناهج العلمية ، فهى تتضمن بعض آراء

الدكتور هيكل فى طائفة من المسائل هى موضع بحث الباحثين فى تاريخ الشرق وفى حضارته . وغاية ما أرجو أن يحقق هذا الكتاب وما سيليه من آثار الدكتور هيكل ، بعض تلك الغاية . .

أحمد هيكل

المحامى

القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٦٢

الفصل الأول

الشرق والغرب

١ – فى العصور الوسطى

« الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » . هذه الكلمة للشاعر الإنجليزى « كبلنج » ترد على كل لسان ، ويجرى بها كل قلم كلما تناول الحديث أمور الشرق والغرب . ومن الكتّاب والمحدثين من يؤيدها ، ومنهم من ينقضها . . ومنهم من يسلم بأنها تنطوى على جانب غير قليل من الحق ، ثم يحاول أن يجد الوسيلة لالتقاء الشرق والغرب والميدان الذى يلتقيان فيه . ولقد أتيح لى أن أقف من قبل عند هذه الكلمة ، وأن أحاول إيجاد الصلة بين الشرق والغرب ، كأنما كانت هذه الصلة غير موجودة من قبل .

وإننى اليوم لأبتسم إذ أذكر هذه المحاولة من جانبى ، وأبتسم حين أقرأ كلمة « كبلنج » . . فالشرق شرق والغرب غرب هذا صحيح . لكن الشرق والغرب التقيا منذ أبعد حقب التاريخ ، وهما يلتقيان دائماً وسيلتقيان ما بقى فى العالم شرق وغرب . والنضال مستمر بينهما لم تهدأ قط يوماً ثائرته . وما عسى يكون التلاقى إذا لم يكن فى نضال . وهل الحياة فى رأى العلماء من معاصرى «كبلنج» وأصدقائه غير النضال .

كذلك يقول « داروين » فى نظريته عن النضال للحياة Struggle) For Iife (، وكذلك يقول : « شوبنهور » عند حديثه عن فلسفة الحب ، وأنه ليس هذا المعنى الخيالى الجميل الذى يتغنى بـه الكتاب والشعراء ، وإنما هو الجهاد العنيف لتخليد النوع وتحسينه فمن عجب أن يحاول الكتاب أو المفكرون خلق صلة بين الغرب والشرق وهذه الصلة موجودة منذ القدم ، وهذا الالتقاء بينهما هو الذى أثار فى العالم حضارات العالم ، وهو الذى رفع فوق مجازر الحروب وأهوال التعصب الدينى قبساً بعد قبس من ضياء النور والهدى والعلم . وفى هدى هذا الضياء سار العالم نحو الكمال خطواته البطيئة القليلة خلال بضعة آلاف السنين التى نعرف .

وهذا الالتقاء بين الشرق والغرب لقاء نضال ينتهى مرة إلى غلب ، وأخرى إلى هدنة ، وثالثة إلى صلح ، ورابعة إلى تعاهد وتحالف تجارى أو حربى هو بعينه الالتقاء بين دول الغرب نفسها ، لقاء ينتهى لواحدة أو لأخرى من هذه الغايات .

وكما أن دول الغرب قد تحالفت فى حقب مختلفة كذلك لتناوئ دول الشرق . كما تحالفت كذلك دول الشرق فى حقب مختلفة لتناوئ دول الغرب ، فقد حدث فى غير هذه وتلك من الحقب أن تحالفت دول من الشرق وأخرى من الغرب لتناوئ غيرها من دول الشرق أو الغرب ، أو من دول منهما متحالفة هى الأخرى .

على أن التقاء الشرق والغرب لقاء نضال وتطاحن كان أكثر اتصالا على التاريخ من تفاهم الشرق والغرب ، أو من تفاهم بعض الدول من الشرق ومن الغرب . ولسنا نر يد أن نفصل ذلك هنا فتفصيله ليس مقصد

هذا الكتاب . ولكنا جميعاً نذكر كيف كان الغزو متصلا بين مصر الفراعنة واليونان ، وكيف كان الغزو متصلاً بعد ذلك حين استولى « إسكندر الأكبر » على مصر حوالى سنة ثلثمائة قبل الميلاد ، وكيف غزت مصر اليونان من بعد ذلك فى عهد البطالمة أنفسهم ، ثم كيف غزا اليونان مصر تحت حكم « يوليوس قيصر » ، وكيف انتهت دولة البطالمة المصرية بانتحار « كليوباطرة » . هذا المد والجزر بين مصر واليونان وروما قد حدث مثله بين فينيقيا ومصر ، وبين فينيقيا واليونان وروما . وفى هذه العصور كانت الوثنية منشورة اللواء فى هذه النواحي المعروفة من عالم يومئذ فى صور إيمانها وطقوس عباداتها المتباينة المختلفة . ولم يغير ظهور « موسى » وبنى إسرائيل من هذا الوضع فى مد العالم يومئذ وجزره تغييراً يذكر . فقد خضع اليهود فى ذلك العصر لحكم روما خضوع إذعان وسكينة قانعين بأرض المعاد والمقام حول قدس « سليمان » وما جاوره من الأماكن المقدسة ، فلما ظهرت المسيحية فى جوار قدس سليمان ، وفى أرض المعاد ، كان طبيعياً أن يدس اليهود لها عند الحكام الرومانيين وأن يحاولوا إظهارها فى مظهر الثورة على سلطان الدولة . لكن المسيحية لقيت من نفوس الطوائف التى كانت مضطهدة حين ظهورها — وما أكثر ما كانت — إقبالا عليها أن كانت تعدها النعمة فى السماء جزاء ما لقيت على الأرض من شر وعنت وبقيت المسيحية حظًّا موقوفاً على هذه الطوائف المضطهدة أجيالا حتى أتاحت الأقدار لها أن تنفذ إلى قلب حاكم رقيق العاطفة محب للضعفاء ، وانتقلت المسيحية من روما إلى البلاد التى كانت خاضعة لحكمها . انتقلت إلى مصر والشام واليونان . ثم امتدت من مصر إلى الحبشة وإلى اليمن . ثم جعلت تغزو فى بطء وسكينة بعض

نواحي العراق فى الشرق . وبعض نواحى أوربا البربرية إذ ذاك فى الغرب .

وفى أواخر القرن السادس المسيحى ظهرت الدعوة الإسلامية . ظهرت أول أمرها ضعيفة متواضعة برسولها اليتيم الأمي وبالعدد القليل الذى اتبعه ، قوية بالدعوة إلى التوحيد وإلى الحرية وإلى الرحمة وإلى الإخاء ، دعوة تناولت القويّ والضعيف ، والغنى والفقير ، والمترف والمحروم . ظهرت هذه الدعوة أول أمرها ضعيفة متواضعة لم يشعر بها أحد ولم يدع صاحبها إلى اتباعه غير عشيرته الأقربين . لكنها كانت دعوة إلى المثل الأسمى فى الإيمان وفى الخلق وفى التضحية وفى تمنى الموت فى سبيل الحق والحرية والخير والفضل والعدل ، لذلك استجاب إليها كثيرون من أهل مكة طيِّبة نفوسهم بما تلقى فى سبيل إيمانها من اضطهاد وتعذيب . وتعاقبت السنون والمؤمنون بالدعوة يزدادون عدداً ويزدادون فى إيمانهم قوة ، وللعذاب فى سبيل هذا الإيمان حباً . ثم عرض « محمد » نفسه على القبائل أثناء حجها الكعبة فاستهانت فى البداية بأمره . لكن كلماته انطبعت فى نفوس الكثيرين من أبنائها . وعرفت بلاد العرب أمر « محمد » وأصحابه ، ثم اشتد ساعده ببيعة العقبة الكبرى ، وبالهجرة إلى المدينة ، وبانتصاره على قريش وبفتح مكة وبدخول العرب فى دين الله أفواجاً . وأرسل « محمد » رسله إلى الملوك والأمراء من حوله يدعوهم إلى الإسلام ويعدهم سعادة الدارين .

ولقد أحاطت بمحمد حين دعوته بيئة معادية أشد العداوة . أحاط به العرب الوثنيون الذين كانوا أشد الناس له عداوة ، واليهود المنبثون فى أنحاء شبه الجزيرة وفى جنوب الشام ، والمجوس فى فارس والنصارى فى اليمن من الجنوب ، وفى الإمبراطورية الرومانية والبلاد الخاضعة لحكمها من

الشمال والغرب . لكن هذه الدعوة الجديدة لم تلبث أن ظفرت بهذه القوى جميعاً ؛ ففى أقل من مائة سنة عقب وفاة النبى امتد سلطان الإسلام إلى الشام وإلى مصر وإلى شمال أفريقيا حتى المحيط الأطلنطي ، وانتقل من مراكش إلى إسبانيا كما امتد فى قلب آسيا حتى أواسطها . وفى فترات متعاقبة متقاربة بعد ذلك امتد إلى الهند وإلى جزر الهند الشرقية وتغلغل فى أفريقيا وفى آسيا . وبذلك قامت فى العالم إمبراطورية إسلامية مترامية الأطراف تنقلت عاصمتها من مكة إلى دمشق إلى بغداد إلى القاهرة وأحيت فى العالم حضارة جديدة انكمشت أمامها الحضارة الرومانية والحضارة اليونانية ووقفت إزاءها المسيحية خائفة تترقب . وعن خوف المسيحية وعن ترقبها نشأت الحروب الصليبية متطلعة أنظار أهلها جميعاً إلى بيت المقدس ، إلى جواره ولد « المسيح » وفيه قام المسجد الأقصى وعلقت صخرة « سليمان » . وظلت هذه الحروب قائمة تثور حيناً وتهدأ حيناً ولا تصل المسيحية منها إلى شيء مما تبغى حتى ظنت فى ختام الحرب الأخيرة الكبرى سنة ١٩١٨ أنها بلغت غايتها بوضع إنجلترا وحلفائها أيديهم على بيت المقدس وهتاف « الفلد مارشال اللنبى » قائد قوات الحلفاء فى الشرق الأدنى يومئذ قائلا : (اليوم انتهت الحرب الصليبية) .

برغم هذه الخصومة الأصيلة فى النفوس والتى بدت من جانب أوربا منذ الحروب الصليبية الأولى فقد أبدى الشرق فى هذه القرون جميعاً من التسامح الدينى ما يجدر بالمؤرخ المنصف تسجيله وتقديره . والأمر كذلك بنوع خاص حين مجد الشرق وازدهار الحضارة الإسلامية فى ربوعه . أى منذ فجر الإسلام إلى ما بعد فتح الأتراك القسطنطينية وتوغلهم فى أوربا إلى أسوار فينا . ففى تسعة قرون متوالية كانت النعرة الصليبية

تجمع الجيوش فى ممالك أوربا المختلفة وتتجه بها تحت إمرة ملك إنجلترا أو ملك فرنسا أو غيرهما من ملوك النصرانية قاصدة غزو المسلمين واستخلاص بيت المقدس من أيديهم . ولم يكن ذلك لأن الدول الإسلامية كانت تصد المسيحيين عن أداء الطقوس الدينية فى بيت المقدس . فقد كانت هذه الطقوس تؤدى . وكان المسيحيون ، سواء منهم من استظل بلواء الدولة الإسلامية ومن قدم من بلاد أجنبية ، يقومون بها فى أمن وسكينة لا يكدرهما مكدر . وإنما كان ذلك تعصباً للمسيحية حرصاً من أهلها على الأخذ بالثأر . وكان المسلمون فى مختلف العصور يكتفون بصد الغزوات الصليبية دون أن يهبوا لغزو أوربا المسيحية انتقاماً منها عن اعتدائها على ديارهم ، بل كان هؤلاء المسلمون يحسنون معاملة الغزاة المسيحيين الذين يقعون فى أسرهم حتى سجل المؤرخون الأوربيون ذلك لهم بمداد الإعجاب والفخر . ولم يغير تكرار الغارات من نفس المسلمين ولا هو أغراهم بالانتقام من « لويس التاسع » حين أخذوه أسيراً بالمنصورة ، ولا هو أغراهم « برتشارد قلب الأسد » حين كان فى سلطان « صلاح الدين الأيوبى » ويده . وليس لمؤرخ منصف إلا أن يسجل للمسلمين بالإعجاب والفخر دفاعهم عن ديارهم التى أصبحت إسلامية ودخلت فى حوزة الإسلام منذ عصوره الأولى ، وأن يشهد بأنهم كانوا على حق فيه ، بينا كان الصليبيون هم الثائرين المثيرين . وبينا كان التعصب الدينى هو الحافز لهم على العدوان عدواناً لم يكتب لهم التوفيق فيه خلال خمسة عشر قرناً كاملة .

ما سبب هذا الاندفاع من جانب أوربا المسيحية ؟ وكيف بقى المسلمون أيام مجدهم يكتفون من هذا الاندفاع بصده دون مواجهته بغزو مثله ؟ أما

اندفاع أوربا المسيحية فمصدره عاملان : أولهما أن الإسلام أغار فى أول أمره على بلاد مسيحية كانت روما وكانت القسطنطينية من بعد ترجو أن تتخذها قواعد لازدياد انتشار المسيحية ، وكانت الشام ومصر أهم هذه البلاد ، وثانيهما أن الإسلام أقام من البلاد التى فتحها ونشر علمه فيها سداً يفصل بين أوربا المسيحية وبقية العالم يومئذ ، والذى لم يكن يزيد على أفريقية وآسيا وأوربا ، فأمريكا لما تكن قد اكتشفت . وقد بدأ الإسلام يصد تيار المسيحية فى اللحظة التى توسمتها فاتحة النصر وبداية الوثبة إلى قلب آسيا وأفريقية ، فقد كانت الحرب السجال قائمة بين فارس المجوسية وبيزنطة المسيحية ، وكان لفارس فيها الغلب أكثر الأمر ، فلما بدأ الحظ يتغير فى هذه الحرب ليبتسم « لهرقل » عاهل المسيحية فينتصر على المجوسية ويمكنه من استرداد الصليب الأعظم من فارس وإعادته إلى بيت المقدس فى حفل عظيم ، أوفى فيه بنذره أن يسير من عاصمة ملكه إلى المسجد الأقصى على قدميه يحيط به أتباعه وجنده ويتقدمهم هذا الصليب الأعظم رمزاً مقدساً للإيمان والنصر . وإنه فى هذه اللحظة وفى هذا الحفل يفى بنذره إذ جاءه رسول النبى العربى بكتاب « محمد بن عبد الله » يدعو فيه هرقل ملك الروم إلى الإسلام. ولم تمض سنوات بعد ذلك حتى كان بيت المقدس وكانت الشام كلها فى قبضة المسلمين ، وحتى وقف هذا الدين الجديد ووقف سلطانه ووقفت جيوشه الظافرة حائلا بين أوربا المسيحية والوثبة إلى آسيا . وفى سنوات أخرى من بعد ذلك اندفع تيار الإسلام إلى مصر وإلى شرق أفريقيا حتى مراكش وحتى غزا المسيحية فى إسبانيا ، فوقف الدين الجديد وسلطانه وجيوشه حائلا بين أوربا المسيحية والوثبة إلى أفريقية . فإذا ظلت أوربا المسيحية مكتظة النفس غلاً

وحفيظة على هذا الدين الجديد وأهله ، وإذا هى حاولت فى فترات كثيرة مختلفة أن تسير جيوشها الصليبية لغزوه وغزو أهله ، فلها من هذين العاملين عذر وشفيع ، ولها فيما يملآن به النفس حرصاً على الأخذ بالثأر أكبر الرجاء فى أن يكون لها على خصومها الفوز والغلب .

لكن جهود أوربا ذهبت مع ذلك هباء وتحطمت على صخرة هذا الإسلام الناشئ المطمئن إلى عزه وإلى قوته . فلماذا ؟ وكيف تندحر أوربا ولديها من الأسباب النفسية للظفر ما يهيئ أمره ويجعله ميسوراً ؟ علة ذلك ترجع فى رأيى إلى جمود النصرانية يومئذ وإلى اجتهاد الإسلام . ففى هذه العصور الوسطى المسيحية كانت الكنيسة قد استأثرت بكل أمر ووضعت يدها على كل شىء . كان الملك فى حاجة إلى رضا الكنيسة عنه وإلى مباركتها إياه ليطمئن إلى ملكه وإلى طاعة شعبه إياه ، وكان رجال الدولة يذعنون للكنيسة ويلتمسون بركتها . . وكانت كلمة الكنيسة معتبرة كلمة الله وكلمة « المسيح » وكلمة الروح القدس نفسه ، لا يستطيع أحد أن يرفع إليها باصرته إلا بنظرة تقديس وإجلال لا تشوبها خلجة تساؤل أو ريب . وبذلك استشرى سلطان الكنيسة إلى كل نظام ، وإلى كل مجتمع ، وبلغ حتى دخل مع الأسرة دارها ، ومع كل رجل قلبه فاحتل فؤاده وأخذ عليه عقله وعاطفته وكل حياته . بذلك حملت الكنيسة وحدها عن الناس تبعاتهم ، وجعلت نفسها نائبة عن الله فى المغفرة لهم . وبذلك استأثرت الكنيسة بحريتهم ، وبعقولهم ، وبضمائرهم ، فأصبحوا لها عبيداً سعداء بعبوديتهم ، سعداء بالطابع الذى طبعتهم وتطبعهم به . ولم لا يكونون سعداء وقد نفت عنهم الكنيسة كل تكاليف الحياة الإنسانية . فليس لأحدهم أن يفكر مخافة أن يدفع به التفكير إلى الخطيئة . وليس لأحدهم أن

يحب مخافة أن يدفع به الحب إلى الخطيئة ، وليس لأحدهم أن يتصرف فى أمر من الأمور برأيه مخافة أن يدفع به رأيه إلى الخطيئة . والكنيسة وحدها هى التى تفكر للناس جميعاً ، وهى التى تدلهم على ما يحبون وعلى ما لا يحبون ، وهى التى ترشدهم إلى ما يتصرفون به فى جليل أمورهم وتافهها . رسمت لهم حدود كل شىء وجعلت تخطى هذه الحدود خطيئة ، حتى حدود عواطفهم وأهوائهم . حتى حبهم لأزواجهم وأبنائهم . بل رسمت لهم كذلك طريق السعى والعمل وطريق الاستحمام والنوم . قيدت وجودهم الإنسانى بأغلال من حديد ، وجعلت منهم آلات لا تريد إلا بإرادتها ولا تتحرك إلا بأمرها ولا تتنفس إلا هواءها . وآمنت هذه الآلات بأن هذا الجمود هو سبيل السلام ووسيلة النجاة والسلّم إلى السماء يرتقيه الإنسان ليصل إلى مقعده بين البررة الأطهار . إذا وصلت الإرادة الإنسانية إلى هذا الفناء وكبلت حرية العقل وحرية الضمير بهذه الأصفاد فقد ضمرت فيها قوة الحياة فلم يبق لها على الحياة قوة ، ولا على أحد من أهل الحياة سلطان ، ولم يبق لها إلى النصر والغلب سبيل .

بينما كانت الكنيسة المسيحية فى العصور الوسطى تصل بالشخصية الإنسانية إلى هذا الجمود الذى يقعد بها عن أن تريد أو أن تعمل ، كان الإسلام فى نشأته وفى فتوة شبابه يحطم القيود ويرفع عن الذاتية الإنسانية كل عبودية لغير الله وحده إياه نعبد وإياه نستعين . لم يعرف هذا الإسلام الناشئ كنيسة ، ولم يجعل لأحد من الناس على أحد سلطاناً ، ولم يجعل لعربى فضلا على أعجمى إلا بالتقوى . لذلك ما لبث الأعاجم من أهل فارس وأمثالهم من البلاد الخاضعة لملك الروم أن اعتنقوا الإسلام حتى رأوا فيه الحرية للعقل والعاطفة والشعور ، الحرية التى تنكر الفوضى

والإباحية إنكارها للاستبداد والعبودية ، الحرية التى تعترف للعقل والقلب وللمنطق والإلهام بحقها جميعاً فى تنظيم حياة الفرد وحياة الجماعة بما يكفل للفرد السيادة وللجماعة الطمأنينة فى حدود تقوى الله ورضاه على ما نزل بها القرآن ، لا على ما تريدها أهواء ذوى الحكم والسلطان . لذلك نهل المسلمون من ورد هذه الحرية فغزوا بعقولهم وبقلوبهم علوم اليونان وفلسفتها وحكمتها وحكمة فارس وخيالها وشعرها . ولم يكن لأحد ولا لصاحب السلطان أن يصد عن ذلك إن لم يشجع عليه . وكيف يصد الحاكم عنه ، وإنما هو وكيل المسلمين فى حدود ما أمر الله به وما نهى عنه فى القرآن الكريم .
إن نظام الحكم الإسلامى لم يكن نظاماً أوتقراطيًّا للحاكم فيه الكلمة العليا . بل كان نظاماً محدوداً خير من عبر عن حدوده « أبو بكر » حين ولى الخلافة ، إذ خطب الناس فقال : « أيها الناس ، إنى قد وليت أمركم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوِّمونى ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .
وبالرغم من أن هذا النظام الذى رسم للحاكم حدوده الضيقة لم يلبث طويلاً فى هذه الحدود ، ومن أن الخلافة أصبحت ملكاً عضوضاً منذ خلافة « معاوية بن أبى سفيان » . فإن الحرية التى أباحها الإسلام للمسلمين بقيت مكفولة لهم عصوراً طويلة يتمتع بها العرب وأهل الشام والفرس وأهل مصر وكل من استظل بسلطان الدين القيم مسلماً كان أو من أهل الكتاب ، وبهذه الحرية أمعن المسلمون فى نهلهم من فلسفة اليونان وأدبهم ومن حكمة الفرس وخيالها ، ومن كل ما يتصلون به أو يتصل بهم فى البلاد التى تدين لهم أو تتعاهد وإياهم . والحرية الإنسانية لا غالب لها ما تحطمت من حولها القيود وما استمتع بها الإنسان

متاعاً صحيحاً . وقد ظلت هذه الحرية للمسلمين مكفولة إلى أن جاء العباسيون فزادوا فى سلطان الحكم المطلق خطوة جديدة بعد خطوة الأمويين ، خطوة نقلت الحكم من الشورى الإسلامية الصحيحة إلى الإطلاق الفارسى إطلاقاً مهد للانحلال الذى أصاب سلطة الإسلام فى بغداد فنقل الحضارة الإسلامية التى ازدهرت فى آسيا طوال عصر الأمويين والعباسيين لتزدهر فى أفريقيا على ضفاف النيل ولتتخذ القاهرة مقرًّا لها . ولئن كانت القاهرة قد تأثرت إلى حد غير قليل بما أصاب دمشق وما أصاب بغداد فإنها احتفظت بالتراث الإسلامى الذى انتقل إليها كخير ما يكون الاحتفاظ به ، لأن حظًّا غير قليل من الحرية كان لا يزال مسموحاً به للعلماء والمفكرين والشعراء وذوى الرأى والمكانة من المسلمين المصريين ، ومن المسلمين الذين نزحوا إلى القاهرة حين استقر ملك الإسلام فيها .

طبيعى ألا يوفق الصليبيون فى غزواتهم بعد الذى رأيت من هذه المقارنة السريعة بين حالهم وحال المسلمين فى هذه الفترة من فترات عصور المسيحية الوسطى . وطبيعى أن يزيدهم توالى الانحدار حقداً على المسلمين . لكن حقدهم لم يكن قادراً على شىء . فالجمود والتعصب حقودان بطبعهما ، عاجزان كذلك بطبعهما . والحرية والاجتهاد فى صورتهما الصحيحة لا يعرفان الحقد ولكنهما لا يغلبان ، ولذلك لم يقابل المسلمون غزوات الصليبيين بغزوات مثلها . ولذلك كان الصليبيون كلما دارت عليهم دائرة الهزيمة ارتدوا إلى ديارهم فاستجموا زمناً يجترون خلاله هزيمتهم ثم تضطرم من جديد نار الحقد فى نفوسهم بعد سنين أو عشرات السنين فيتجهزون لحرب صليبية أخرى يكون نصيبهم فيها الهزيمة التى كانت تصيبهم فى سابقتها . وفيما بين الهزيمتين ، وخلال عشرات السنين هذه ، يطمئن

الأوربيون ويطمئن أهل الشرق إلى حياة سكينة وجد وسعى فى مناكب الأرض ابتغاء الرزق . وظلت الحال كذلك إلى أن جاء الأتراك من آسيا غـزاة يفتحون الممالك ويدوخون الملوك ويظفرون بدول الإسلام أكثر مما يظفرون بدول المسيحية ، ثم يتوغلون فى أوربا حتى تصدهم أسوار فيينا .

كان هذا نصيب الحروب الصليبية ، وكانت تلك أسباب فشل الصليبيين فيها . على أن واحدة من هذه الحروب الصليبية قد نجحت وقد بلغت من النجاح أكثر مما كانت تطمع أول أمرها فيه . تلك هى الحرب التى أجلت أوربا فيها الإسلام من الأندلس ، فقد دخل الإسلام حين سؤدد سلطانه إلى شبه جزيرة إيبيريا آملاً أن يمتد منها إلى فرنسا وإلى سائر أوربا ليتصل بالإسلام الزاحف من الشرق عن طريق الشام والأناضول إلى المملكة الرومانية . لكن هذا الزحف من ناحية الشرق وقف بعد أن بدأ انقلاب نظام الحكم من الشورى الإسلامية إلى الأتوقراطية الفارسية ، وبعد أن أتى هذا الانقلاب ثمرته المحتومة ، انحلال القوى المعنوية وتضعضع الإيمان الصادق فى النفوس . لذلك لم يتح للذين فتحوا الأندلس أن يتوغلوا فى أوربا بعد أن صدتهم عن التقدم إلى فرنسا فاكتفوا بإقامة الدولة الإسلامية فى إسبانيا وظلت هذه الدولة قوية مزدهرة زمناً ، لكنها أصيبت هى الأخرى فى نظام حكمها بما أصيبت به بغداد وسائر الأقطار الإسلامية . ثم إنها اطمأنت إلى النعمة المادية فى الأندلس طمأنينة آتت ثمراتها ، وثمرات الطمأنينة فى النعمة المادية التنافس عليها والتحاسد فى سبيلها والتناحر والتطاحن للاستزادة منها . وذلك ما حدث . وكان من أثره أن كثرت الإمارات وأن ضعف السلطان المركزى وأن طمع المسيحيون فى استرداد ما يؤمنون بأنه حقهم ، وشغلت سائر دول الإسلام يومئذ

بمثل ما شغلت به الأندلس من الجرى وراء مطامع الحياة الدنيا والتفانى في سبيلها تفانياً أنسى المسلمين أنهم إخوة يجب أن يسرع كل منهم إلى نجدة أخيه . وأجلت المسيحية الإسلام عن الأندلس واستعادت إسبانيا كلها وإن قعد بها ما وصفنا من جمودها عن أن تتأثر المسلمين فى تراجعهم وأن تتبعهم فى أفريقيا . وبذلك بقيت القوتان الإسلامية والمسيحية وجهاً لوجه يفصل بينهما البحر المتوسط ، وقد دب إلى دول الإسلام انحلال كالذى أدى إلى هزيمة المسيحية . انحلال سببه هذا الجمود الذى أصاب المسلمين فجعل علماءهم ومفكريهم ينزلون لصاحب السلطان عن حريتهم ويضعون تحت تصرفه علمهم لقاء ما يغدقه عليهم من نعم مادية كانوا أشد فرحاً بها منهم بحريتهم وبعلمهم . وبذلك لم يقووا على صد غزوة الترك الذين ظفروا بهم ثم ظفروا من بعدهم بالقسطنطينية وبما تلاها من بلاد المسيحية حتى ڤيينا .

لم يكن الأتراك فى هذا الغزو دعاة إلى حضارة ، ولا دعاة إلى دين . بل كانوا غزاة طامعين فى أسلاب الغزو وفى استغلال الأمم التى يغزون على مثال أكثر الغزاة فى ذلك العصر وعلى مثال أوربا فى هذا العصر الحاضر ، ولقد كان لهم من العذر فى ذلك أن ظروفهم الخاصة لم تكن لتهيئ لهم الاضطلاع بعبء حضارة معينة ، لقد كانوا مسلمين ، وكان الطبيعى أن يرتعد أعداء الحضارة الإسلامية المهددة يومئذ بالانحلال تحت أنقاض الجمود . لكن مقومات الحضارة الإسلامية كانت تعوز هؤلاء الزاحفين من قلب آسيا حيث كانت تحيط بهم أثناء مقامهم فى وطنهم صور من العقيدة والحضارة لا تتفق فى شىء مع صور الحضارة الإسلامية والعقيدة الإسلامية . ثم إنهم أبدوا حرصاً على لغتهم ونفوراً من

اللغة العربية. واللغة العربية كانت فى البلاد الإسلامية جميعاً لغة الدين ، ولغة العلم ، ولغة الأدب ولغة المقومات الأساسية جميعاً لأية حضارة من الحضارات. لذلك كانوا أشد حرصاً على مغانم الغزو منهم على تأييد الحضارة الإسلامية. ولذلك لم يفكر أحد منهم فى رفع نير الجمود الذى أصاب المسلمين فى عقائدهم وفى فقههم وفى لغتهم وإن حرصوا على أن يأخذوا من مصر ومن سائر البلاد التى غزوا مهرة الصناع ورجال الفن ممن وثقوا بمقدرتهم على تشييد المظاهر المادية وعلى توطيد أسباب الثروة والنعمة المادية. كانت النتيجة المحتومة لهذا الغزو التركى المعتمد على الملكات الحربية، والنفور من مقومات الحضارة الإسلامية الصحيحة ، أن ازدادت الأمم الإسلامية جموداً فى العقيدة وفى التفكير ، وإن نشأت فيها طائفة من رجال الدين على مثال الطائفة التى قيدت المسيحية فى عصورها الوسطى بأثقل الأغلال : طائفة أنكر الإسلام منذ ظهوره حقها فى الوجود ، ووضعت طائفة رجال الدين المفتعلة نفوذها وحريتها وما تدعى من علم فى خدمة الغزاة الغالبين مما أدى إلى استمرار الانحطاط والتدهور فى العالم الإسلامى الذى خضع للنير التركى. ولكن هذا الغزو التركى كان له فى أوربا المسيحية نتيجة هى النقيض من هذه. نتيجة محسنة آذنت بانتقال مد الحضارة إلى الغرب بمقدار ما كان من طردها فى الشرق الإسلامى ، وكانت مقدمة البعث الأوربى والحضارة الغربية الحاضرة.

ظهرت هذه النتيجة التى أثمرت الحضارة الغربية فى بطء وأناة وبعد جهود شاقة ونضال عنيف عشرات السنين بل مئاتها. كان الجيل يعقب الجيل ، وفى كل جيل يبدو من هذه الثمرة أثر جديد ، وفى هذه الأثناء كانت الإمبراطورية التركية ينفسح مدى سلطانها الحربى ليزيد الأمم

الإسلامية جموداً وركوداً . فلما آن للغرب أن يسترد – باسترداده الحرية الإنسانية – مكانته ، اتجه إلى هذه الإمبراطورية التركية يريد أن ينتقم منها لنفسه ، كما وجه الغزوات الصليبية من قبل إلى أمم الإسلام لينتقم منها . وحاولت أوربا بعد الحرب الكبرى أن تقضى القضاء الأخير على الرجل المريض ، وألقى اللورد اللنبى تصريحه بأن الحروب الصليبية انتهت . يريد بذلك أن المسيحية انتقمت لنفسها انتقاماً حاسماً من الإسلام . وتلك لعمرى سخرية من القدر مُرَّة . فلو أن شيئاً أسمه الأعتراف بالجميل كانت تعرفه العلاقات الدولية لذكرت أوربا للترك فضلها الأول فى القضاء على الدول الإسلامية بالجمود ، وفى تمهيد الطريق للبعث الأوربى وللحضارة الغربية الحاضرة . لكن الحياة الدولية لا تعرف هذه المعانى إلا بمقدار ما تعاون هذه الحياة . فإن هى وقفت فى سبيلها حطمتها وداستها وتخطتها إلى ما هو خليق بمزيد فى الحياة .

كيف أدى الغزو التركى إلى بعث أوربا وإلى الحضارة الغربية الحاكمة اليوم فى الشرق والغرب ؟ ! وكيف اضمحلت دول الشرق حتى خضعت كلها لنير أوربا ؟ ! وهل اضطلعت الحضارة الغربية برسالة خاصة تتجه بالإنسانية نحو كمالها وسعادتها ؟ ! وماذا كان موقف الشرق من الغرب فى هذه الظروف المختلفة ؟ وما موقفه اليوم ؟ ! . . .

٢ – إبان البعث الأوربى

تقدم الأتراك فى أواسط آسيا فغزوا البلاد الواقعة فى طريقهم حتى اقتحم « محمد الفاتح » القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ ، وتقدم خلفاؤه إلى أسوار ڤيينا . ووقفت أوربا فى وجه هؤلاء المسلمين الفاتحين مستأنية خائفة على مصير المسيحية . واتجه الأتراك بغزواتهم وبفتحهم إلى البلاد الإسلامية فتقدموا إلى الشام وإلى مصر ، وتم للسلطان « سليم » وضع يده على القاهرة فى سنة ١٥١٧ . وبديهى – وللأتراك من الملكات الحربية مالهم ودينهم الإسلام – أن يحملوا أهل بيزنطة على اعتناق هذا الدين ، وكان من أثر ذلك أن هاجر العلماء والكتاب المسيحيون المقيمون فى شبه جزيرة البلقان وفى اليونان إلى روما وإلى بلاد أوربا المسيحية المجاورة للبلاد التى غزاها الأتراك وفتحوها وعملوا على أن تعلو فيها كلمة الإسلام .

وقفت أوربا مبهوتة إزاء هذا الفتح الجديد ، وجعلت تفكر فى هذا الماضى الذى حاولت فيه عبثاً أن تسترد الأماكن المسيحية المقدسة من المسلمين ، وفى هذا الغزو الجديد الذى أعاد إلى الذاكرة غزو العرب بلاد الأندلس : فليس طبيعياً أن تتعرض أوربا لكل هذا الغزو وكانت إلى الأمس القريب بمأمن من غائلة الشرق وكانت خلال القرون المسيحية الأولى صاحبة مجد الحضارة فى العالم كله . لقد مدت روما فى العصور التى سبقت المسيحية والتى تلتها إمبراطوريتها المترامية الأطراف إلى الجزء الأكبر من أقطار العالم المعروف يومئذ ، كانت أعلام « قيصر » تخفق

فى مصر ، وكانت جنوده تخترق أوربا إلى إنجلترا . فلما دالت دولة روما قامت بيزنطة مقامها رافعة شأن المسيحية مقيمة فى مختلف الدول علم حضارتها الخفاق . وظلت أوربا من بعد ذلك تشن الغارات الصليبية على دول الإسلام غارة بعد غارة . فماذا أصابها حتى أصبحت مهددة كل هذا التهديد بأن تذل للمسلمين ، وبأن تذل للأتراك القادمين من ظلمات آسيا . فكر أهل أوربا يومئذ فى ذلك وأخذوا أنفسهم بالبحث عن أسبابه ووسائل التغلب على هذه الأسباب . وكانت لهم فى هجرة العلماء الذين أجلاهم الغزو التركى عن بيزنطة إلى روما وإلى أوربا الوسطى ما يكفل دقة هذا البحث وما يمهد فى نفس الوقت إلى مقدمات البعث الأوربى الذى تمخضت عنه أوربا بعد مائة سنة أوما دونها من اقتحام الأتراك المسلمين عاصمة المسيحية يومذاك .

وفى طبائع الناس أن يتساءلوا فى مثل هذا الموقف عما إذا لم يكن للدين الذى يدينون به تبعة عن المآل الذى هووا إليه . وكان مثل هذا التساؤل محتوماً يومئذ أن كان تبادل الغزو قائماً بين المسيحية والإسلام وأن كان للإسلام الفوز والغلب . وفى طبائع الناس إذا ألقوا مثل هذا السؤال أن يلهمهم الحق بالإجابة عنه بالنفى .

إن الدين الذى كان يوماً سبب الرفعة والفوز والغلب لا يمكن أن يكون هو بذاته سبب التدهور والانحلال والهزيمة . فإن يكن على عقائد الناس فى تضعضع عزائمهم وخور نفوسهم تبعة ، فلا بد قد اندس إلى هذه العقائد باسم الدين ما ليس من الدين ، وما أفسد العقائد وزعزع الإيمان الصحيح فى النفوس . فهل حدث من ذلك شىء فى المسيحية ؟ ! وإن يكن قد حدث فما عساه يكون ؟

طرح مفكرو أوربا فى القرن الخامس عشر على أنفسهم هذا السؤال ، وبحثوا يلتمسون الجواب . وليس العثور على الجواب فى مثل هذه الظروف ميسوراً . فرجال الدين الذين يوجه إليهم هذا الاتهام لا يذرون عندئذ فرصة إلا انتهزوها للقضاء على خصومهم . ورجال الدين من أهل الكنيسة المسيحية كان لهم من السلطان المطلق ما رأيت مجمل صورته فى الفصل السابق ، ولم يقف سلطانهم عند وضع يدهم على إرادة الناس وعلى تفكيرهم . بل امتد إلى المغفرة للمذنب ومحو خطيئة المخطئ ، ولم يكن هذا الغفران حرصاً منهم على ألا يعود المخطئ إلى خطيئته . فقد كانت براءات الغفران تباع يومئذ وتفيد الكنيسة منها أموالاً طائلة . إذن فقد أنقلب الدين وسيلة للوصول إلى المال وأصبحت الكنيسة تقتضى المال بهذه الوسائل الخاطئة باسم الرب وباسم « المسيح » فتزيد فى سلطانها المادى ابتغاء الغلب فى هذه الحياة الدنيا . تحدث العلماء فى هذا وأنكروه فيما بينهم على الكنيسة من غير أن يجترئ واحد منهم على التظاهر فى وجهها مخافة أن تحطمه قوة سلطانها . كانت للكنيسة تصرفات غير قليلة تشبه بيع براءات الغفران ، وإن لم يكن منها ما تبدو مخالفته للعقل بديهية بداهة بيع هذه البراءات . وتزايد حديث العلماء فيما بينهم وألقوا على الكنيسة تبعات ما تنوء به أوربا من تدهور ، حتى قيض الله رجلاً من رجال الدين يحمل كلمة العلماء هذه ويلقى بها فى وجه زملائه ، ذلك « مارتن لوثر » . من يومئذ بدأت الثورة على الكنيسة وتعاليمها . ومن يومئذ بدأت الكنيسة تشعر بقوة هذه الضربة الموجهة إلى سلطانها المطلق شعوراً جعلها تحاول القضاء عليها فى مهدها — وقد سلكت لذلك مختلف السبل حتى نزلت إلى ألوان من المهاترة ؛ منها أن اتهمت لوثر فى نزاهته وألقت عليه أنه إنما قام فى وجهها لأنه يريد أن

يخرج كقسيس على تعاليم الدين التى تحظر الزواج على القسس وتسمو بهم عن حب المرأة وإلى تكريس كل حبهم للسيد « المسيح » ، وأن الشيطان الذى زين له حب المرأة وأغراه بالزواج هو الذى دفعه ليرفع عقيرته فى وجه براءات الغفران وهى وسائل طمأنينة وسعادة للمسيحيين جميعاً . ولكن صيحة لوثر لقيت فى كثير من أنحاء البلاد المسيحية صدى قوياً ، لأنها كانت تعبر عما يجول بالنفوس وتكاد تفيض به القلوب على الخواطر بل على الألسن . صحيح أن الناس وقفوا باهتين إزاء هذه الجرأة التى لم تكن معروفة من قبل . لكن ذلك إنما كان بقية مما صور الوهم لنفوسهم من سلطان الكنيسة القاهر فى الأرض وفى السماء . فإذا كان هذا السلطان لا ينال من « لوثر » بأكثر من توجيه تهم لا دليل عليها فقد آن للناس أن يفيقوا من غفلتهم ، وأن يطرحوا كابوس الوهم الذى أثقلهم ، وأن يزداد الصدى الذى تتجاوب به أنحاء المسيحية لصيحة لوثر سلطاناً وقوة . وكذلك أعلنت الثورة على الكنيسة وأعلنت على الجمود الذى قيدت الكنيسة به العقول والقلوب ، وكذلك امتدت هذه الثورة من براءات الغفـران إلى سائر مقررات الكنيسة مما لا يطمئن إليه العقل ، وكذلك بدأت قيود العقل تحطم رويداً رويداً ، وبدأ « كالفن » فى سويسرا و« چون نوكس » فى إنجلترا يعلنان الثورة التى أعلنها لوثر ويناديان وإياه بأن الدين لا يمكن أن يناهض العقل . وأن ما خالف العقل ، من مقررات الكنيسة ، لا بد أن يكون خارجاً على الدين . وبذلك انتشرت ثورة الإصلاح الدينى فى نواحى أوربا المختلفة انتشاراً اضطر كنيسة روما إلى التفكير فى موقفها وإلى إعادة النظر فى كثير من مقرراتها .

لم تكن هذه الثورة من « لوثر » و« كالفن » و« نوكس » ثورة على

الدين ، بل كانت كما رأيت ثورة من طائفة من رجال الدين على الكنيسة ومقرراتها . وبعبارة أدق كانت ثورة من الاجتهاد الديني على التقليد الجامد في الدين ، وكانت ثورة العقل المقيد على قيوده . ولم يكن طبيعياً أن تقوم يومئذ ثورة على الدين كالثورة التي قامت من بعد بزعامة « ڤولتير » وبزعامة أساطين العلم الواقعي من بعده . فإلى يومئذ كان سلطان الدين يتناول كل شيء ، وكان العلم بعض ما يتناول . ذلك بأن الإنسان لم يكن قد فصل بين الدين والعلم على نحو ما فعلت أوربا من بعد – حين أوقفت الإنسان من الوجود موقف الخارج عنه المشاهد إياه يلاحظه ويستنبط من ملاحظاته قوانينه . بل كان الإنسان ما يزال يشعر بنفسه قسماً غير منفصل من الوجود متأثراً به أكثر من تأثيره فيه ، فلم يكن له من أجل ذلك بدٌّ من أن يطمئن إلى موقفه منه بين أزله وأبده . لذلك تجاور العلم والدين في النفس الإنسانية ، ولذلك كان بين العلم والدين من التعاون والتضامن ما رأى الإنسان ضرورته لسعادته في هذه الحياة الدنيا وفيما بعدها . على أن علم الإنسان كان يومئذ محدوداً ، وكانت معارفه قليلة لا تكفي لتنير له سبيل الحياة ولتزيده عليها قوة ، فلم يكن بد إذن من طمأنينة الإنسانية إلى الإيمان لتقوى به على الحياة وتهتدي به إلى الخير والنعمة فيها . ولذلك ظل الأمر لرجال الدين بعد ثورة الإصلاح كما كان لهم قبلها ، وإن نشبت بينهم أسباب من الخصومة بل العداوة مهدت للمفكرين من غير رجال الدين أن يشقوا لأنفسهم طريقاً يصل بهم إلى صفوف الإنسانية الأولى ، ويسمح لهم بمشاركة رجال الدين في توجيه الناس في الحياة ، ويمكنهم بذلك من مشاركة رجال الدين في السيطرة على الناس ، وفي تولي زمامهم ، وفي القيام منهم في مناصب الحكم .

لم يوفق بعض هؤلاء المفكرين إلى بلوغ المكانة التى قصدوا إليها . فقد نادى بعضهم بأمور تخالف مقررات الكنيسة من غير أن تكون بديهية لدى العقل . فالأرض كروية أو مسطحة ، وهل هى تدور حول الشمس أو أن الشمس هى التى تدور حولها . هذه وأمثالها من المعارف التى أصبح الواقع منها فى حكم البديهيات أمام نظرنا كان ما قرره العلماء منها مخالفاً لما قررت الكنيسة ، لذلك لقى هؤلاء العلماء – كما لقى المتشككة – عنتاً من جانب الكنيسة لم يثر رجال الدين ، ولم يثر الرأى العام فى وجهه لأنه كان بمثابة الدفاع عن الحقائق المقررة . وللحقائق المقررة مكانتها من النفوس ؛ فهى تميل أبداً إلى الاطمئنان إليها وتنظر شزراً لمن يخالفها أو يحاول نقضها حتى تستقر مكانها حقيقة غيرها تطمئن الجماعة لها وتؤمن بها ، ولم يكن رجال الدين وحدهم هم الذين حاربوا هذه الحقائق الجديدة . بل ازورّ كذلك عن تأييدها جماعة المفكرين من غير رجال الدين ممن لم يعنُوا أنفسهم بتمحيصها . هؤلاء المفكرون هم جماعةالتجريديين – الميتافيزيقيين – الذين جعلوا منطق العقل وحده وسيلة الوصول إلى ما سموه الحقيقة المطلقة . وهؤلاء كانوا يرون حقاً ما أقره العقل وإن أعوزه الدليل المحسوس ، وكانوا يرون ما نفاه العقل وإن أيدته الكنيسة مفتقراً إلى الدليل كي يثبته . وواسطة العقل فى التدليل المنطق . لذلك كان المنطق أداتهم الأساسية لإقامة الدليل .

كان الكثيرون من هؤلاء المفكرين من غير رجال الدين مؤمنين إيماناً صادقاً . لذلك اعتمد رجال الدين عليهم وعلى أداتهم فى البحث والتدليل أزماناً طويلة . وزاد الخلاف بين رجال الدين ونحلهم المختلفة فى ظل هؤلاء المفكرين الذين كانوا يؤيد بعضهم ديناً بعينه ، ويؤيد

البعض الإيمان بالله وبالروح وخلودها وبالبعث والحساب . وتطلعت الصفوة من أهل كل أمة إلى ناحية هؤلاء المفكرين والفلاسفة على أنهم الأمل المرجو للمستقبل بعد أن بدأ سلطان الكنيسة يذوى ويتوارى ، وبذلك نهضت الفلسفة التجريدية نهضة قوية أدت إلى تقدم التفكير وإلى اقتحامه مختلف الميادين ، وإلى ملاحظة المفكرين الواقع المحسوس وإلى استنباطهم الأدلة منه ، وإلى تمهيدهم بذلك العلم الواقعي الذى كان موقوفاً إلى ذلك الحين على خدمة الدين والفلسفة .

كانت هذه النهضة فى التفكير نتيجة محتومة للإصلاح الدينى . وكانت قائمة على أساس ما نقله العلماء الذين أجلاهم الأتراك عن بيزنطة من منطق اليونان وفلسفتها وحكمتها . وقد أدت النهضة الفكرية إلى إطلاق حرية العقل فى ميادين أخرى مختلفة نشأت عنها نهضات تأثرت هى الأخرى بالثقافة اليونانية ، أول هذه النهضة الأدبية . فقد قام « شكسبير » وقام من بعده « ملتن » فى إنجلترا ، كما قام « راسين » و« كورنى » فى فرنسا ، يثيرون فى شعر بالغ غاية القوة والجمال صوراً وعواطف دينية وإنسانية كان التغنى بها من قبل يعتبر هرطقة وتجديفاً . وإلى جانب النهضة الأدبية قامت فى الفن نهضة قوية بدأت فى إيطاليا ثم امتدت منها إلى بلاد أوربا المختلفة . وكذلك حطمت أوربا قيد الحرية الإنسانية التى كبلتها به الكنيسة عصوراً طويلة باسم الدين ، ففتح باب الاجتهاد أمام التفكير وأمام الفن والأدب ، وفتح باب الاجتهاد فى الدين نفسه بعد أن ظل مغلقاً أجيالاً وعشرات الأجيال .

بينما كانت أوربا تنهض هذه النهضة تاركة حروبها الصليبية العقيمة جانباً ، مستقلة بنفسها وبإصلاح طرائق تفكيرها ، وبإطلاق الحرية

من قيودها ، كانت صفائح الجمود تزداد فى الشرق كثافة وتحجراً . وبينما كان المفكرون والعلماء ورجال الأدب ورجال الفن فى الغرب تأخذ كل طائفة منهم بيد صاحبتها لتزيد فى حريتها فتزيد بذلك فى نتاجها ، كان الفن والأدب والعلم والتفكير يصفَّد فى الشرق وفى الدول الإسلامية ليضع رجال الدين يدهم على كل ذلك وليزيدوا فى القيود الجامدة التى لا يجوز تخطيها أو التفكير على نحو غيرها . وأيد الخلفاء من بنى عثمان فى تركيا وفى سائر أنحاء الإمبراطورية الإسلامية هذه القيود الجامدة ، وأسبغوا عليها باسم الخلافة طابعاً دينياً لا يجوز لإنسان أن يناقشه أو أن يضع جليله أوحقيره موضع البحث ، ولم يجد رجال الدين ولا وجد الخلفاء يومئذ عنتاً فيما صنعوا من ذلك . فنظام الحكم الإسلامى الذى انتقل من الشورى على ما وصفها « أبو بكر » إلى الأوتقراطية المطلقة ، ومن وكالة الخليفة عن المسلمين إلى استبداده بهم واعتباره نفسه وكيل الله عليهم وكلمة الله فيهم ، قد تدرج فى ذلك من الخلافة إلى الملك العضود فى عهد بنى أمية إلى وكالة الخليفة عن الله وكالة وصفها « المنصور » العباسى بقوله : « أيها الناس إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ؛ وتأييده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه ، جعلنى الله عليه قفلاً ، إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم ، وإن شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى » . وقد نشأ عن هذا التدرج أن صارت الدولة الإسلامية محكومة منذ عهد العباسيين بنظام استبدادى طوع للفتح والغلب فى أيام الخلفاء الراشدين منهم كما حدث فى عهد « الرشيد » و « المأمون » ، كما مهد للفتنة والاضطراب مما حدث أيام « المستنصر » وجماعة الذين خلفوه ممن انتهت بهم الدولة العباسية ومن مهدوا للجمود وللتأخر . من ذلك الوقت أسبغت

النظرية الاستبدادية على الملك والسلطان جلالاً كجلال الله ، وجعلت للخليفة عرشاً كعرش الله ، واستمدت له قداسة روحية من أمر الله . ولم يكن الملوك ولا كان الخلفاء هم الذين صوروا عرشهم واستمدوا من الله استبدادهم ، وإنما صور لهم هذا العرش واستمد لهم هذا الاستبداد جماعة الفقهاء والمتكلمين الذين التمسوا من وراء ذلك الإفتاء عطف صاحب السلطان واقتناص الجاه والمال مما يجود به على المنافقين من حوله ، وليظل هذا الاستبداد آمناً مطمئناً لم ير الفقهاء بداً من أن يمكنوا له فى النفوس بأن يلبسوه لباس الدين . وليزيدوا فى أمن الاستبداد وطمأنينته رأوا تقليل الإرادة الإنسانية وتكبيل العقل الإنسانى والعاطفة الإنسانية . لذلك نشطوا يضعون القواعد ، وينظمون حياة الأفراد فى كل كبيرة وصغيرة ، ويرتبون الجزاء على مخالفة هذا النظام ويسندون ما يقررون من ذلك كله إلى الدين ، ويجعلونه بعض ما أتى الرسول به الناس ، وبعض ما نهاهم عنه ، ويشيرون إلى أن ما قرروا للسلطان من حق الجزاء فى هذه الدنيا لا ينفى ما يجزى به الإنسان فى الآخرة ويصورون هذا الجزاء فى الآخرة تصويراً فيه من الدقة المادية ما فى تصويرهم للجزاء الذى يوقع فى هذه الحياة . وهم فيما قاموا به من ذلك لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من عمل الإنسان وسلوكه ، مما يجيش بخاطره ويحس به بينه وبين نفسه إلا نظموها . فكيف يأكل الإنسان ، وكيف يشرب ، وكيف يستحم ، وكيف يتعاشر مع غيره ، وكيف يؤدى التحية وكيف يردها وكيف يقوّم وكيف ينام وكيف يعامل أهله فى بيته – كل ذلك نظّم أدق نظام ، ورتّب على مخالفته الجزاء ، وأنت تستطيع أن تذكر أى شيء مما فى الحياة وتجاربها سواء بين الإنسان وبين نفسه ، أو بينه وبين أهله ، أو بينه وبين المجموع ،

وبين الشيطان ، أو بينه وبين الله ، تستطيع أن تذكر أى شيء من هذا لتراه قد نوقش وبحث واستمدت له القواعد والأحكام من القرآن ، فإن لم توجد فى القرآن فمن الحديث ، فإن لم توجد فى الحديث فمن السنة ، فإن لم توجد فى السنة فمن الإجماع ، فإن لم توجد فى الإجماع فمن القياس . واستمر النشاط فى هذا السبيل عصوراً متوالية كان يقوم أثناءها الحين بعد الحين مجتهد لا يعنى كثيراً بهوى صاحب السلطان فيقرر ما يراه حكم الدين الحق دون أن يخشى قيام الفقهاء الرسميين عليه ورميهم إياه بالمروق والزندقة والإلحاد . فلما بدأت عصور الانحلال بانحلال الدولة العباسية وكثرت الفرق خيف أن يقوم من بينها من يحاول هدم المذهب الرسمى من ناحية ، وخيف من ناحية أخرى أن يقوم داع يهز فى النفوس الكرامة الإنسانية واحترام الذات وتحريم العبادة لغير الله ، فيدعو بذلك إلى الانتقاض على سلطان واه مزعزع ما أيسر ما تعبث به هزات النفوس . لذلك قام جماعة من أولئك الفقهاء الذين وصفنا فنادوا بأن الشعوذة فشت باسم الاجتهاد وأن أفكار الرفض والإلحاد تروج تحت ستاره وقرروا لذلك إقفال باب الاجتهاد وضرورة تقليد السلف والأخذ بأحكامهم ، واعتبروا كل خارج على هذه الأحكام مارقاً كافراً جزاؤه جزاء من ارتد عن دينه ومثواه فى رأيهم جهنم وبئس القرار.

كانت النفوس فى هذه البلاد الإسلامية قد انحلت يومئذ فسكنت إلى هذا القرار ولم تثر عليه . وظل الأمر كذلك حتى جاء الأتراك فحكموا العالم الإسلامى واتخذوا من فقهاء المسلمين بطانة يزيدون فى أغلال العقول وأصفاد القلوب . ولعل الإنصاف يقضى بألا نحملهم من تبعة ذلك كثيراً ، فهم لم يكونوا يعرفون روح الإسلام الصحيحة ، لأنهم لم يكونوا يعرفون

لغته ، ولم يكونوا لذلك قادرين على إدراك أسراره . ولئن كان من بينهم علماء حاولوا معرفة أسرار الدين فأولئك قد عرفوها فى كتب التدهور والجمود وكانوا بطبيعتهم الحربية وبطبيعة البيئة التى أنبتتهم والمعارف المبعثرة التى سعوا بها لفهم الدين – ميالين لتصديق كل ما كان خارجاً على الطبيعة سامياً فوق العقول . إنما التبعة على فقهاء المسلمين الذين باعوا علمهم للأتراك ، والذين انحط إدراكهم حتى صاروا يرون فى كل جديد إلحاداً ومروقاً ، وصاروا يحرصون على الجمود أشد الحرص ويرون فى القضاء على كل اجتهاد رحمة من الله بعباده ويصفّدون الشعوب الإسلامية حتى يصبح التقليد التام الأعمى أساس حياتها فى نظام حكمها وفى شريعتها وفى أخلاقها وفى آداب مجتمعها ، وفى طرائق تفكيرها ، وفى معالجتها العظيم والحقير والجليل والتافه من كل شؤون الحياة .

مع هذا التدهور فى العقيدة وفى التفكير ومع تصفيد الحرية بالأغلال الثقال ، ومع خضوع العالم الإسلامى لنير الترك خضوعاً أعمى فى العصور التى كانت أوربا تتحرر خلالها من سلطان الكنيسة وتنزع فيها إلى تحكيم العقل وتقوم فيها نهضات زاهرة للأدب والفن والفلسفة وسائر صور التفكير والإحساس – مع هذا كله ظلت الدولة الإسلامية محتفظة بمركزها ، وظلت أوربا فى شغل بنفسها عن التفكير فى غزو صليبى وفى غزو جديد أيا كان نوعه . ويرجع ذلك إلى اعتبارات عدة ؛ فملكات الأتراك العسكرية ، ومجدهم الحربى كانت تبعث الرعب إلى النفوس وتصد عن التفكير فى غزو البلاد الإسلامية المستظلة كلها أو أكثرها يومئذ بالعلم التركى . فلم تنس أوربا تقدم الجيوش التركية ظافرة إلى أسوار عاصمة النمسا وتهديدها فيينا وتهديدها أوربا بأسرها . والدول لا تنظر بعضها إلى بعض ولا ترتب

علاقات بينها على أساس تقدم العلم والحضارة أو تأخرهما فيها ، وإنما ترتب هذه العلاقات على أساس القوة الحـربية المادية .وإذا لم يكن فى ذلك شيء تفاخر به الإنسانية أو تعتبره سبباً لمجدها فإنه لسوء الحظ هو الذى كان واقعاً يومئذ ولا يزال الواقع اليوم . ثم إن أوربا كانت فى شغل بنفسها وبالاضطرابات الدينية والسياسية الداخلية التى لم يكن منها مفر بسبب تطور العقلية الأوربية هذا التطور السريع الذى وصفنا . وليس من شأن الإنسان – حين شغله بنفسه وباضطراب أموره الخاصة – أن يفكر فى مهاجمة غيره وفى غزوه . وبخاصة إذا كان هذا الغير مخشىّ الأيد مرهوب الجانب . والدولة الإسلامية كانت محتفظة بمركز القيادة يومئذ فى العالم ، كما كان مركز التجارة والرخاء الاقتصادى بين المسلمين . يضاف إلى ذلك أن اكتشاف كولمبوس لأمريكا فتح أمام أوربا ميادين للاستعمار خفت إليها إسبانيا فوجهت نظر غيرها من الدول الأوربية إلى ناحيتها . ولم يكن الهنود الحمر من سكان أمريكا ليخيفوا أوربا ما تخيفهم الدول الإسلامية التى وقفت حائلاً بينهم وبين آسيا ، والتى أرتهم من الصلابة إبان الحروب الصليبية ومـن البأس حين اقتحام الأتراك أوربا ، ما لم يروا بعد شيئاً منه فى أمريكا . فإذا كانت الدولة الإسلامية يدب إليها دبيب الفساد وتجرى مسرعة فى سبيل الانحلال فإن هالة ماضيها أقامت حولها سياجاً من وهم صد أوربا عن التفكير فى مهاجمتها وغزوها .

وقد يكون هذا عجيباً . لكن الأعجب منه أن الدولة الإسلامية بقيت بمعزل عن الثورة القوية القائمة فى أوربا تحطم القيود وتهيئ للحرية الفكاك من إسارها ، وكأنما بين الشرق والغرب أسوار من حديد تحجب هذه الحركة عن أنظار الشرق لتدعه يغط عشرات السنين ومئاتها فى سباته

وكأنه لا يصل إليه شيء من علم المجازر التى تحدث باسم الدين وباسم الإصلاح فى أوربا ، أو كأنه فى سعادته بجموده ينظر إلى هذه الحركة على أنها طيش جنونى غير لائق بهذا الشرق العريق فى مجده العريق فى حضارته، أن يأبه لها أو أن يفكر فيها . وأدعى للعجب أن تكون الغزوات الصليبية قد فتحت عيون أهل أوربا المسيحية على كثير مما فى الشرق ، وقد دعت هؤلاء المسيحيين إلى التفكير فيه فكان إلى جانب غزو الأتراك أوربا وهجرة العلماء المسيحيين من بيزنطة إلى الدول التى تجاورها بعض ما أسرع بأوربا إلى بعثها . أما الشرق فظل فى سكينته الجامدة ، بل ظل يزيد فى هذه السكينة جموداً . وأنت تستطيع أن ترى ذلك وأن تلمحه مجسماً فى كتب المتأخرين من متكلمى الشرق وفقهائه ممن سخروا ملكاتهم لخدمة الخليفة العثمانى حيثما كانوا من نواحى الإمبراطورية العثمانية . فقد بلغ من جمود التفكير فى تلك العصور أن حصر العقل فى حدود أنانية ضيقة ترتب عليها إبراز الفكرة غير المحدودة بطبعها فى صورة شيء مادّى محدود ككل محسوس مادى ، لا على أنها صورة ذهنية فى طبعها التمدد فى لانهايات المكان والزمان ، تمدداً هو وحده الكفيل لها أن تثمر كل آثارها . وأنت إن رجعت إلى كتب فقهاء تلك العصور رأيت هذه المادية الوثنية صريحة واضحة ممتدة إلى كل ما يحتمل التحديد ولا يحتمل التصوير المادى ، بل ممتدة إلى الروح وإلى خالق الكون – تعالى خالق الكون عما يصفون – فى هذه الكتب ترى وصفاً مادياً للعرش وتصويراً مادياً للملائكة الحافين من حوله ، وذكراً مادياً للألفاظ التى تخرج من أفواههم فى التسبيح بحمد الله وفى تقديسه . وهذا الوصف والتصوير المادى هما فى الإسلام الصحيح وثنية لا ريب وتحريف . وإذا تناولت المادية تصوير

العرش والملائكة وتسبيحهم فأجدر بها أن تتناول الرسل والأنبياء وصفاتهم وحياتهم . وقد فعلت ، فمما تحدثت فيه ما إذا كان الرسل بعد موتهم عليهم السلام يحيون فى القبر حياة مادية يأكلون ويشربون ويتناكحون ويتناسلون ، وتناولت المادية الشمس وما إذا كانت ساعة مغيبها تختبئ تحت عرش الله العظيم حتى يؤذن لها أن تشرق فى الصباح . وإنك لتقرأ فى سير الأنبياء التى كتبت إلا تلك العصور ما ترى أثر المادية فيه واضحاً إلى حد لا تستطيع معه دون الابتسام ازدراء بهم وإشفاقاً عليهم . ولست بحاجة إلى ضرب الأمثال فى هذا وفى مقدور من شاء أن يطلع على ما كتب من السير فى تلك العصور ويلمس فيها من هذا السخف المادى ما تنزهت عنه السير التى كتبت فى عصور أقرب إلى عصور أولئك النبيين ، وحين كانت تلك السير ما تزال فى صفائها الأول أو ما تزال قريبة كل القرب منه .

إذا انحدرت النفس الإنسانية إلى هذه الهاوية من التصور المادى ونظرت إلى العالم على أنه آلة ، لا على أنه فكرة ضاق نطاق التفكير أمامها وأجمعت أنبل عواطفها ، وخمد صوت الضمير فيها ، وتداعت المعانى الإنسانية السامية جميعاً أمامها وتحركت فى أعماقها السلائق الحيوانية الصرفة ثم تحكمت فيها ووجهتها فى كل مشاعرها وكل تصرفاتها . وذلك ما حدث أو ذلك ما كان أثراً محتوماً لها ، ظل علماء المسلمين يعلمون الناس قروناً طوالا وجوب الإذعان إلى من تولى الأمر سواء أكانت ولايته الأمر شرعية أم مغتصبة . ولقد دفعت السلائق الحيوانية إلى هذه النفوس الإنسانية التى فقدت كل معنى إنسانى أحط الأخلاق وأسفلها . دفعت إليها الكذب والنفاق والتحايل لاتقاء غضب كل ذى سلطان ، ولاتقاء غضب الحاكم ، ولاتقاء غضب الله معتبرة إياه جل شأنه وكأنه

حاكم من الحكام أو رئيس من الرؤساء . وعاون العلماء والفقهاء على نمو هذه الأخلاق الوضيعة فى النفوس بما جعلوا يصدرون من الحيل الشرعية التى يتحايل بها المسلم على أحكام القرآن وعلى أوامر الدين ثم يكون من جزاء الله بمنجاة ، كأنما الله ليس بمطلع على الغيب وعلى ما تخفى الأنفس وعلى خائنة الأعين . وافتنت طائفة من الفقهاء فى تصوير هذه الحيل ، ووصلت من طريق هذه الفتاوى التى تصدرها فى شأنها إلى ما تصبو إليه من رخاء مادى وإلى حظ عظيم من متاع هذه الحياة الدنيا متاع الغرور . وإذا ساغ للنفس أن تتخذ الحيلة وسيلة إلى الله وأن تتوجه إليه بالنفاق وبالكذب فما عسى يقف أمامها فى التوجه إلى الحاكم وإلى صاحب السلطان ، وما عسى يقف أمامها فى بلوغ غايتها أياً كانت هذه الغايات ؟ ! ! وما دام صوت الضمير قد جمد فقد آن للرذيلة أن تلبس ثوب الفضيلة ، آن لكل نقص وفساد أن يجد ما يبرره ، بل ما يصوره كمالاً وخيراً . ولا شيء أفتك بحياة الشعوب من أن تنقلب عندها المقاييس الصحيحة للحق والفضل . ولا شيء أدعى إلى انحلال الأمم وإلى أن تدول الدول من تحكم السلائق الحيوانية فى الإنسان تحكماً يهوى بملكاته العليا إلى الحضيض فيسلك من أجل ذلك طريق الضلال .

وفيما كان هذا التدهور يستشرى فى شعوب الشرق الإسلامى كانت نهضة أوربا العقلية والأدبية والفنية سائرة فى طريقها لا تفتر ولاتنى ولا تعرف هوادة أو تواكلاً . وكان أعظم ما عنى به القائمون بهذه النهضة معرفة الطريقة الصحيحة فى التفكير ؛ الطريقة التى تهدى إلى الحق وتصل بالإنسان إلى حسن إدراكه . وإذا كانت ثورة لوثر ومن سار فى طريقه قد بدأت تحطم سلطان الكنيسة المطلق وتعترف للعقل بحقه فى أن يفكر مستقلاً

ليصل إلى معرفة الله وما أمر به ونهى عنه ، ثم كانت نهضة الفلسفة التجريدية قد قامت فى أثر ذلك تبغى لإثبات الحقائق المقررة طريق المنطق غير المقيد إلا بحكم العقل ، فقد آن للتفكير الغربى أن يخطو خطوة جديدة إلى إباحة العلم الواقعى . وقد مهد لهذه الخطوة ما قام بين الفلاسفة التجريديين من نزاع يشبه بعض الشىء ذلك النزاع الذى قام منذ قرن أو نحوه بين رجال الدين . . نزاع اشترك فيه رجال الدين أنفسهم لأنهم رأوا فى تقدم الفلاسفة إلى الصف الأول من صفوف الجماعة الأوربية ما كاد يقضى على قوتهم ويدك سلطانهم وينزع منهم ما كان باقياً بين أيديهم من أعنة الحكم . اختلف الفلاسفة أن كان من بينهم ملاحدة ينكرون الدين وينكرون الوحى وينكر بعضهم وجود الله وحسابه ، ولكنه يعمل ليحل الفلسفة فى النفوس محل الدين ويجعل لها سلطانه ؟ ولم يأبه رجال الدين بالملاحدة من الفلاسفة لأنهم رأوهم أبعد من أن يصلوا إلى نفوس الشعوب ليوجهوها وليأخذوا بزمامها ؛ فحاجة الشعوب إلى الإيمان حاجة طبيعية ملحة لا غناء للشعوب عنها كى تعيش . وحاجة الشعوب إلى الإيمان كحاجتها إلى الهواء وإلى الماء وإلى الغذاء . فإذا دعاها داع لتؤمن بأنها فى غير حاجة إلى الإيمان وأن الإيمان أكذوبة وضلال سخرت منه ورأته بعيداً عن الحقيقة بعد الذى يزعم لها أنها فى غير حاجة إلى الهواء أو إلى الماء : فأما الفلاسفة المؤمنون الذين أرادوا أن يحلوا الإيمان الفلسفى محل الإيمان الدينى فأولئك كانوا فى نظر رجال الدين مصدر الخطر . لذلك وجه رجال الدين قوتهم لمناهضة أمثال « ديكارت » و« روسو» وغيرهما من المؤمنين الذين يقيمون صروح الإيمان الفلسفى على قواعد يسيغها العقل وتطمئن لها النفس وتستهوى المجموع استهواء يجعله يؤيد هؤلاء الفلاسفة على حساب رجال

الدين . وأنت أقدر على قياس مدى الخطر الذى خشيت به الكنيسة المسيحية هؤلاء الفلاسفة إذا ذكرت أن « روسو» حاول أن يقيم ديناً جديداً يحله محل الأديان المقـــررة . فإذا ناهضت الكنيسة هـؤلاء الفلاسفة ، وإذا هى استعدت عليهم سلطان الحاكم وغضب الجماعة ، وإذا هى حاربتهم بكل وسائل الحرب ، فلها من العذر أنها إنما تريد الاحتفاظ بسلطانها ، بل الاحتفاظ بحياتها .

واشتدت الحرب بين الفلسفة والكنيسة ، وازدادت المعركة أواراً وشدة . وألقى الفلاسفة أنفسهم على اختلاف نحلهم ومذاهبهم موضع مهاجمة رجال الدين ، فلم يروا بداً من أن تتضافر جهودهم أثناء المعركة ، وأن تكون بينهم هدنة حتى إذا تم لهم الظفر بخصومهم عاد كل منهم إلى مناهضة رأى صاحبه . وفى سبيل النصر فضح الفلاسفة المؤمنون والفلاسفة الملحدون جميعاً مخازى الكثيرين من رجال الدين ، وأظهروا المجموع على شره هؤلاء وشهواتهم وحبهم المال ، وتهالكهم على الملاذ ، وحرمانهم المجموع من كثير من أسباب نعمته وسعادته ليتمتعوا هم بالنعمة والسعادة .

مهدت هذه المعركة إلى خطوة جديدة يخطوها التفكير الغربى نحو إباحة العلم الواقعى القائم على طريقة الملاحظة والمقارنة والاستنتاج لمعرفة سنن الكون الثابتة بالدليل المحسوس الممكن تحقيقه ، والذى لا يقبل لذلك خلافاً أو جدلا . وقد ظلت العلوم الوضعية قبل استقلالها فى خدمة التجريد زمناً طويلاً ، كما ظلت قبل ذلك زمناً طويلا فى خدمة اللاهوت . لكن الجدل العنيف بين الكنيسة والفلسفة جعل رجال العلوم الوضعية يأنفون أن يظلوا وأن تظل علومهم فى خدمة الفلسفة أو فى خدمة الكنيسة ودفعهم ليطبقوا طريقتهم على جميع فروع المعارف التى لم تكن

خاضعة من قبل لها ، كالمباحث النفسية والاجتماعية والاقتصادية والبحوث العقلية ، وزاد ذلك فى نشاط هؤلاء العلماء « لأوجست كنت » و « للامارك » من قبله فى فرنسا ، و « هربرت سبنسر » و « لدارون » من قبله فى إنجلترا ، و « لهكل » و « هجل » وغيرهم من العلماء فى ألمانيا أن ينبذوا كل مالا تثبته طريقتهم مما سبق إليه اللاهوت وسبق إليه التجريد ، وأن يعتبروا اللاهوت والتجريد حالتين من حالات العقل الإنسانى ممهدتين للحال العلمية التى اعتبرت فى نظرهم الصورة النهائية لما يجب أن تكون عليه مباحث العقل .

وقد غلا أنصار المذهب الواقعى ، والعلم الواقعى فى تقدير ما يستطيع العلم غلواً دفع « رينان » ودفع « تين » ، ودفع كثيرين غيرهما فى مختلف بلاد أوربا إلى الاعتقاد بأن العقل الإنسانى سيصل من طريق هذا العلم إلى معرفة سنن الكون جميعاً ، وإلى الكشف عن أسرار الوجود كشفاً مادياً يلمسه العقل الإنسانى ويقيم الدليل عليه ويحل بذلك ما كان يظنه الإنسان طلاسم لا سبيل إلى تلمس شيء من حقيقتها إلا بوحى الإلهام . وعلى أساس من هذا الاعتقاد قام الإيمان فى أوربا بأن الحضارة الإنسانية قد اطمأنت إلى الأساس الثابت الذى تقوم أبد الدهر عليه . أساس العلم الذى لا يعرف إلا ما أثبت العلم ، والذى يطرح كل ما لم يثبت العلم جانباً حتى يجيء دور إثباته . وبهذه العقيدة نظر رجال العلم هؤلاء إلى الفلسفة التجريدية وعلى ثغرهم ابتسامة إشفاق لهذه المجهودات الكثيرة التى أنفقت الإنسانية ظانة أنها تصل من طريقها إلى الحقيقة ، ثم إذا ما صنعت لا يزيد على مضاربة نظرية تقيم فروضاً وتهدم فروضاً ولا تقرر حقاً ثابتاً . ونظروا إلى الكلام وإلى الدين بأكثر من نظرة الإشفاق . نظروا إليه وإلى رجاله نظرة حقد وكراهية وإصرار على ألاّ يكون لهؤلاء

الرجال على الحياة من بعد سلطان . وكذلك اتفقت كلمة العلماء مع كلمة الفلاسفة فى شأن الدين ورجاله .

إلى أى مدى حقق العلم الواقعى آمال السابقين من رجاله ؟ ليس هذا الفصل موضع القول فى هذا ، لكن هذا العلم الواقعى قد بعث فى حياة الاختراع الصناعى روحاً قوياً ناشطاً جعل الناس يرون من آثارها كل يوم جديداً ، ودفع بها لذلك إلى الصف الأول من صفوف الحياة الاقتصادية ، ونفخ بذلك فى حياة الاقتصاد السياسى روحاً جديداً هو الآخر ، وأنزله من المعارف الإنسانية فى منزلة العلوم الواقعية مما أدى إلى تصوير المذاهب الاقتصادية تصويراً جديداً غير الذى كان معروفاً إلى يومئذ . ومن ثم أقام « جون ستوارت » المذهب الفردى يعارض به المذهب الفزيقراطى . ومن ثم نشطت المذاهب الاشتراكية حتى قام « ماركس » يضع مذهب الاشتراكية العلمية . ومن ثم لم تبق حضارة أوربا حضارة العلم وحده ، بل صارت حضارة العلم والصناعة جميعاً ، وقد كان لهذا التحول فى توجيه الحضارة آثار كثيرة مختلفة سنعرض لبعضها فى غضون هذا الكتاب .

وكان لهذا التطور فى طرائق التفكير الإنسانى من الأثر فى الأدب والفن مثلما كان له فى الصناعة . وقد أشرنا إلى نهضة الأدب والفن منذ بدأت ثورة الإصلاح الدينى ، ومنذ بدأ انتشار الثقافة اليونانية فى أوربا فى القرن السادس عشر . ولم تكن هذه النهضة أقل من نهضة طرائق التفكير نشاطاً ، وصارت النهضتان تؤثر واحدتهما فى الأخرى وتقضيان فى نفس المجموع الأوربى على ما كان من حصر دائرة العلم والأدب والفن فى حدود الكنيسة وما تشاء ، وتتناولان من شؤون الحياة كل ما

يكشف العلم عنه وتسبقان العلم فى أحيان كثيرة ، وتسبقانه أحياناً عشرات السنين بل مئاتها إلى تقرير حقائق تظل مفتقرة إلى الدليل العلمى ، وتظل منظوراً إليها من ناحية العلماء بعين الريبة ، ثم يقوم الدليل العلمى عليها وتصبح من مقررات العلم بعد أن كانت من مقررات الفن والأدب وحدهما .

طبيعى أن تتنفس هذه الثورات الدينية والأدبية والفنية والعلمية عن انقلاب جوهرى فى نظام الجماعة وفى طريقة حكمها ، وأن تتنفس لذلك عن ثورة أشد من كل هاته الثورات عنفاً . تلك هى الثورة السياسية ؛ فالنظام السياسى فى أمة ما ، هو التصوير العلمى لحياة الجماعة وكيف تسير ، وإنما يصدر هذا التصوير عن طريقة تفكير الجماعة ويتغير كلما تغير ما بنفسها وقد تغيرت نفس الجماعة على رجال الدين الذين استأثروا بالحكم أجيالاً لاعتراف الجماعة لهم أنهم يمثلون آمالها ومطامعها ، فخرج الحكم من يدهم وأوشك أن يخرج من يد الملوك الذين يؤيدهم رجال الدين ويزعمونهم خلفاء الله على الأرض . وقد قامت الثورة الدموية فى فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر فانتهت بإعدام لويس السادس عشر ونشرت الفلسفة ثم نشر العلم الأفكار الديمقراطية التى تجعل لكل شعب أن يحكم نفسه بنفسه ، فآمن بها الناس وضموها إلى العلم وإلى الصناعة على أنها أساس من أسس الحضارة التى أقاموا . وإذ كانت الديموقراطية لا تتحقق إلا حيث ينحصر الوطن فى حدود معينة ، وحيث تقوم لذلك فكرة القومية أصيلة فى النفوس للدفاع عن هذا الوطن ، فقد وطدت أوربا هذه الفكرة وجعلت القومية أساساً رابعاً من أسس تلك الحضارة .

ليس يدخل فى نطاق هذا البحث تفصيل هذه الأسس للحضارة الأوربية بأكثر مما سبق . ونحن إنما سقنا ما تقدم لأن أوربا التى عدلت عن

غزواتها الصليبية منذ غزو الأتراك إياها ، والتى أقامت داخل حدودها إبان تحريك الثورات التى أشرنا إليها أحشاءها قد بدأت منذ القرن الثامن عشر تزحف على الشرق وتزعم أنها تريد من هذا الزحف أن تقر الحضارة فى ربوعه ، وأنها تريد « تغريب » هذا الشرق - على حد تعبير الأستاذ « چب » فى كتاب (وجهة الإسلام) - فماذا فعلت لإقرار هذه الحضارة فى الشرق ؟ وإلى أى مدى وصلت من تغريبه ؟ وهل كان الشرق أول زحف الحضارة الأوربية الجديدة عليه مستعداً لحسن قبولها ، وماذا ثار فى أحشاء الشرق من رد الفعل إزاء هذه الحضارة ؟ أتراه أساغها وتمثلها ، أم فرضت عليه فأذعن لها ؟ وهل وصل ما تمثله منها إلى أعماق تفكيره ؟ إحضار هذه المباحث يحتاج تفصيلها إلى إفاضة طويلة لا متسع ها هنا لها لأنها تحتاج إلى مجلدات عدة ، لكننا سنلم بها جميعاً إلماماً لا بد منه لتصوير الشرق الجديد وما نريده أن يكون .

٣ – الحضارة الاستعمارية

ماذا فعلت أوربا لتظل الشرق بلواء حضارتها . . ؟ لقد رأينا هذه الحضارة تقوم على أسس من العلم والصناعة والديمقراطية والقومية فأى هذه الأسس اتخذت منه علم حضارتها ؟ وهل سلكت إلى نشرها سبيل الحضارات التى سبقتها ؟ أم اختطت لنفسها طريقاً جديداً ؟ وإن يكن ذلك فإلى أية غاية أدى الطريق الجديد بها ؟ !

جعلت الحضارات التى سبقت حضارة الغرب الأساس الفكرى والنفسى علم حضارتها ، فتاريخ المسيحية شاهد بأنها – وقد نشأت فى أحضان قوة روما المادية – إنما كان أساسها قوة روحية تحتقر المادة وتستهين بأذى أصحابها وتعتبر الثروة أكفل الوسائل لتورط الروحِ فى الخطيئة حتى ليكون دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الغنىِّ فى ملكوت الله . جعلت المسيحية من الفكرة الروحية أساس قوتها وأقامت النظام الفكرى والحياة النفسية على قواعد من هذا الأساس الروحى فعززت الإنسان لذلك بقوة الكون المعنوية جميعاً يقف بها فى وجه كل أرباب المادة والمؤمنين بسلطانها فيخضعهم لقوة روحه ويحملهم على اتباعه ويصل بهم إلى ما وصلت المسيحية من روما . وتاريخ الإسلام شاهد بأنه أنزل ليحطم فى النفس الصور المادية ممثلة فى هذه الأوثان التى كان العرب يؤمنون بها ، ممثلة كذلك فى كل إيمان بغير الله وحده لا شريك له . وقد حطم الإسلام فى انتشاره القوى السريع كل ما سوى هذا الإيمان من صور ، وأخضع كل ما فى الحياة من مادة وقوة للإيمان بالله يسمو به الإنسان فوق ما فى الحياة الدنيا جميعا ليكون بعض قوى الكون الباقية بقاء الروح المتصلة بالعالم وبالوجود كله منذ أزله إلى أبده .

وعلى الأساس الروحي أقرت المسيحية حضارة لم تدم فى صفائها طويلا أن اختلطت بالوثنية الرومانية وبعقائد السواد المصرى التى تدهور إليها التوحيد الفرعونى . لذلك تعرضت هذه الحضارة المسيحية لألوان من الاضطراب كانت مع عوامل أخرى مما أسرع بروما إلى الانهيار وما جعل الدولة البيزنطية تقف فى إبان قوتها من كل سلطان مادي موقف روع وفزع ، لا تحفزها الأسباب التى كانت تحفز روما إلى التوسع وإلى حمل علم الحضارة التى حملت روما إلى أنحاء العالم بكل عظمة ومجد . فلما جاء الإسلام وبدأ بتنظيم الحضارة الإسلامية حول فكرة التوحيد الروحية السامية أسرع إلى الانتشار وأسرعت الحضارة الإسلامية إلى الاستقرار فى الممالك المختلفة المترامية الأطراف بين المحيطين الأطلنطى والهادى ، وبعبارة أخرى فى ممالك العالم المعروف فى ذلك الحين . وقد وقفت المسيحية فى وجه الإسلام بعد أن حصرها فى أوربا عصوراً طويلة تريد أن تنفذ إلى قلب أفريقيا وآسيا ، وفى تلك العصور كانت الفكرة الروحية فى صفائها أول الأمر ثم مشوشة مضطربة على نحو ما وصفنا فى الفصلين السابقين ، هى اللواء الذى تتقدم به صفوف المسلمين وتتقدم به صفوف المسيحيين لغزو الإنسانية . وبرغم ما انحدرت إليه هذه الفكرة فى العصور المسيحية الوسطى ، وفيما سبق الغزو التركى وما لحقه فى العالم الإسلامى ، فقد بقى اسم الرب عند المسيحيين ، واسم الله عند المسلمين ، هو الذى تهتز له أوتار الأفئدة وتتوجه إليه القلوب فى طلب النصر والظفر ، وبقى الإنجيل عند المسيحيين ، وكتاب الله عند المسلمين ، آية هذه الحضارة التى يريد هؤلاء وأولئك أن ينشروا لواءها ليظل العالم جميعاً .

لو أن الحضارة الغربية سلكت فى محاولتها غزو العالم ما سلك الإسلام

وما سلكت المسيحية من قبل لكان لواء العلم خفاق البنود فى طليعة الغزاة الأوربيين لأمريكا بعد اكتشافها ، ولآسيا ولأفريقيا عند اقتحامهما . ولعل ذلك قد دار بخاطر بعض الفاتحين الأوربيين فقد رأينا « نابليون » إذ جاء إلى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر وقد استصحب معه بعثة علمية تدرس أحوال مصر ، وأنشأ بالقاهرة مجمعاً علمياً فرنسياً . ولعله كان يريد أن يجعل هذا المعهد نواة لمعهد علمى مصرى إذا استقر الأمر لفرنسا على ضفاف النيل . وهذه المحاولة من « نابليون » لنشر أفكار الثورة الفرنسية فى مصر تجعلنا نعترف لهذه الثورة الفرنسية بما دار بخلد أبطالها من تبشير بمبادئ الحرية والإخاء والمساواة فى أنحاء العالم التى غزت . لكن هذه المحاولة لم تدم طويلا ولم تتعد أوربا إلى غير مصر فى خلال الفترة القصيرة التى أقام الفرنسيون بها ، فأما ما قبل الثورة الفرنسية وما بعدها إلى وقتنا الحاضر فلم تقم الحضارة الأوربية لغزو العالم باسم العلم ولا باسم التفكير الحر ، وإنما قامت وتقوم لغزوه باسم الصناعة الأوربية وإقحامها على بلاد العالم جميعاً . وهذا الأساس المادى البحت هو الذى جعل أوربا تسمى حضارتها الحضارة الاقتصـــادية ، وما جعل المبادئ الاشتراكية من فردية واشتراكية وشيوعية هى الأساس الذى يقوم عليه كل نضال فى أوربا سواء فى شؤونها الفكرية أو السياسية ، والحافز الذى وجه الحضارة الغربية فى غزوها الشرق غزواً يجعل الحضارة الغربية مرادفة للاستعمار فى ربوعه .

والحق أن العلم والحرية العلمية لم يرتفع علمهما قط فى طلائع غزو الغرب سائر ربوع العالم . وندع الغزوات الأولى التى قام بها الإسبان فى أمريكا ، وندع الهجرة الإنجليزية للولايات المتحدة . فقد كان عنصر الاستعمار المادى هو الحافز لإسبانيا كما كان الفرار من وجه العسف

الدينى هو الحافز للإنجليز الذين ذهبوا إلى العالم الجديد . صحيح أن هؤلاء وأولئك لم تحركهم بعد استقرارهم بأمريكا أية عاطفة إنسانية إزاء أهلها حمر الهنود ، على العكس من ذلك قد جعلوا استئصال هؤلاء السكان الأصليين مرمى سياستهم وأساس حضارتهم . وكل الأعذار التى تصاغ لتبرير خطة الاستئصال أقصر من أن تسوغ هذا العمل الهمجى البحت . لكن أوربا كانت فى ذلك الحين على درجة متأخرة من الحضارة هى وحدها التى تنهض عذراً لها عن تلك الوحشية . ولسنا بمعرض التحدث عن أحوال الغرب التى سبقت حضارته الحديثة . فلنتخط إذن هذه الفترة إلى حين بدأت أوربا تفاخر العالم بحريتها وبعلمها ، وحين بدأت تغزو الشرق بعد أن وقفت منه عصوراً وقروناً طويلة موقف الخائف الوجل .

حاولت أوربا أن تصل إلى آسيا فوجدت فى وجهها السد الإسلامى المنيع الممتد من مراكش إلى القسطنطينية حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط الجنوبية جميعاً . ولم يدر بخاطرها أن تقتحم هذا السور وهى تذكر منعته وتخشى أن تتعرض للخسائر الفادحة من الأموال والرجال إذا هى أقدمت على اقتحامه . وما لم يكن الحافز للإنسان على مغامرة إيمان ثابت يستهين بالحياة فى سبيله ما استهان المسيحيون الأولون والمسلمون الأولون . فإن الغنم المادى ، وإن عظم ، أهون من أن يدفع بصاحبه إلى المخاطرات الجسيمة . وبالرغم مما استطاعت البرتغال من تحطيم الأسطول المصرى فى القرن الخامس عشر فإن اقتحام السور الإسلامى ظل خاطراً تضطرب له أعصاب أوربا . لذلك كان اكتشاف « فاسكو دى جاما » طريق رأس الرجاء الصالح للوصول إلى آسيا بالدوران حول أفريقيا كلها هو الذى بعث الرجاء إلى نفس أوربا الظامئة لاستعمار الشرق . مع ذلك بقى هذا

الظمأ مكبوحاً فيما خلا محاولات هولندا والبرتغال فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر حتى طوعت له مغامرات الأفراد ؛ فقد ذهب جماعة الإنجليز الذين كونوا شركة الهند الشرقية فى مدراس ، كما ذهب جماعة من الفرنسيين كذلك إلى الهند حيث أقاموا فى بوندتشرى . ولم يكن غرض هؤلاء ولا أولئك علمياً ، ولا كانت له صلة بالحرية ولا بالديمقراطية ، إنما كان غرضاً تجارياً مادياً بحتاً . وعلى أساس هذا الغرض توسعت الشركة الإنجليزية توسعاً أتاح للحكومة الإنجليزية مؤازرتها ، ثم كان مقدمة تغلب إنجلترا على النفوذ الفرنسى فى الهند وتوغل إنجلترا بعد ذلك فى هذه البلاد التى أقعدها الجمود الدينى والجمود الاجتماعى عن الحركة ، وقعد بها عن أن تدفع عن نفسها عدوان المعتدين . على الرغم من ذلك بقيت إنجلترا مترددة عشرات السنين دون اقتحام الممالك الهندية الخاضعة للنفوذ الإسلامى . لأن اسم الإسلام كان إلى يومئذ لا يزال مهيب الجانب محترماً مخوفاً .

هذا الأساس التجارى الذى أخذ بالتدريج صبغة الاستعمار هو الذى طبع غزو الحضارة الغربية الشرق ولا يزال يطبعه . وكانت الوسائل التى سلكتها أوربا فى هذا الغزو أقل ما تكون نفقات فى الأموال وفى مهج الرجال . فهى قد آثرت بادئ الرأى أن تترك العالم الإسلامى لا تتعرض له . ولم يكن ذلك حرصاً منها على صداقة هذا العالم . فأوربا لم تقم وزناً لاعتبار الصداقة يوماً من الأيام . إنما كان ذلك لأنها آثرت ألا تتعرض لاندحار قد يفسد عليها خطتها الاستعمارية . وكان ذلك لأن مبدأ القومية – الذى قام أساساً من أسس الحضارة تدعيماً للفكرة الديمقراطية – قد جعل دول أوربا ينظر بعضها إلى بعض نظر تنافس وخصومة فى الاستعمار ، لا نظر

تعاون وتضامن فى إذاعة العلم وبث حضارة تؤمن دول أوربا بأنها تكفل سعادة العالم وخيره . وفكرة القومية هذه هى التى أملت على أوربا سياستها الداخلية وسياستها الخارجية كما أملت عليها سياستها الاستعمارية . ولذلك كانت كل واحدة من الدول الأوربية تعمل تحت تأثير الفكرة القومية دائبة تريد إضعاف الدول الأوربية الأخرى . وكانت كل واحدة منها تخاف أن يتبعها غيرها إلى فتح فى الشرق جديد . لذلك هبت جميعاً تتسابق لكسب صداقة تركيا دولة الخلافة الإسلامية بدعوى ضمان سلامة الأراضى العثمانية . وفيما كان هذا الاتجاه يملى على دول أوربا الغربية سياستها جميعاً إذا « بطرس الأكبر » فى روسيا يحاول أن يسلك سياسة جديدة . وإذا به يحاول غزو تركيا والاستيلاء على البسفور والدردنيل ليطل الدب الأبيض برأسه على البحر الأبيض المتوسط . هنالك ازدادت دول أوربا الغربية حرصاً على سلامة الأراضى العثمانية . واطمأنت تركيا إلى هذا التنافس بين الدول وجعلت خطتها أن تزيد فى أسبابه معتقدة أنه كاف وحده ليكفل لها إلى الأبد البقاء . وأكد هذه العقيدة فى نفوس سلاطين تركيا أن وقفت أوربا فى وجه جهود « بطرس الأول » و « كاترين الثانية » ، وإن أبقت لبنى عثمان إمبراطوريتهم . ولقد نسى خليفة المسلمين أن كل سلامة مستمدة من نزاع الغير غير معتمدة على قوة الدولة الذاتية ، سلامة معرضة فى كل فرصة للخطر ، جديرة بأن تعرّض الدولة التى تعتمد عليها إلى الاضمحلال وإلى الفناء .

لم تكن الدول فى تنافسها لضمان سلامة الأراضى العثمانية ، بريئة من الغرض . وإذ كانت كل منها تعلم أن أية فكرة ترمى إلى غزو تركيا تقابل من جانب الدول الأوربية الأخرى بالتضامن مع تركيا فى صدها ، فقد وجهت هذه الدول مطامعها إلى ناحية أخرى ، ناحية التوسع فى الامتيازات

الأجنبية ، وجعلت كل واحدة منها تقتضى ثمناً لهذا الضمان توسعاً فى هذه الامتيازات يسمح لها بغزو سلمى لا اعتراض من جانب الدول الأخرى عليه بأكثر من مطالبتها تركيا بمثله . واغتبط الخلفاء العثمانيون لقصر نظرهم بهذا الثمن الذى حسبوه طفيفاً ، لذلك انقلبت الامتيازات الأجنبية التى كانت من قبل ضماناً من الحكومة التركية لحرية الأجانب ولعدم إعناتهم حقوق سيادة لهؤلاء الأجانب وللدول التى نزح هؤلاء الأجانب إلى تركيا منها . كانت غاية ما يطمع الأجنبي من حماية الامتيازات قبل هذا التوسع فيه ألا تفرض عليه ضرائب غير ما يفرض على العثمانيين ، وألا تقتضى هذه الضرائب بوسائل العنف والعسف . فأزال هذا التوسع حق الدولة العثمانية فى فرض الضرائب على الأجانب إلا أن ترضى دولهم . كانت التجارة والربح منها كل ما يطمع الأجنبي الوافد إلى البلاد العثمانية فيه ، فأصبحت مزاولة المهن الحرة ، ثم أصبح انتشار المدارس بعض ما لهؤلاء الأجانب ولدولهم من حقوق وسيادة تحد من السيادة العثمانية . كان الخليفة الإسلامى حامى حمى الملة والدين فى بلاده ، فأصبح التبشير المسيحى بعض الحقوق التى تكفلها الامتيازات الأجنبية فى حدود بلاد الدولة . ويقع هذا ويقع أضعافه برضا الخليفة التركى وهو به مغتبط لأنه الثمن الذى يحسبه متواضعاً لكفالة الدول الأوربية سلامة أراضيه العثمانية . وما تناله الدول الأوربية من حقوق فى تركيا برضا الخليفة العثمانى يمتد باسم الإسلام الذى يقوم الخليفة على حمايته إلى بلاد العالم الإسلامى كله حتى ما لم يكن منها تابعاً لتركيا . ومع فداحة هذا التغلغل فى شؤون الدول الإسلامية ، وهذا الاقتطاع من سيادتها فداحة سنعود إلى بيان بعض آثارها من بعد ، فقد أذعنت هذه الدول والحكومات الإسلامية للأمر الواقع ولم

تقم الشعوب الإسلامية من جانبها بشيء من رد الفعل ضده . بل ظل هذا التداخل باسم الامتيازات يستشرى وتستفحل آثاره والدول والشعوب الإسلامية والشعوب الشرقية عنه لاهية بل به راضية ، غافلة عن النتيجة المحتومة التى لا بد أن تترتب عليه .

لماذا هذا الإذعان وهذا الاستخذاء ؟ !

لأن نظام الحكم ، ولأن الحياة الاجتماعية فى هذه الشعوب الإسلامية والشعوب الشرقية كانت قد وصلت من الجمود إلى ما سبق لنا وصفه ، ولأن هذه الشعوب رأت فى الحياة الجديدة الوافدة عليها من أوربا صوراً تحطم من قيود الجمود وترد إلى الإنسان حظًّا من الحرية يجعل للحياة قيمة لم تكن لها . ومهما تكن الحرية التى جاء بها الأوربيون إلى الشرق متجهة إلى نواحى الحياة المادية أكثر من اتجاهها إلى نواحيها الفكرية والمعنوية فإن كل قدر يحطم من الجمود يبعث إلى النفس رجاء فى نعيم الحياة لم تكن تطمع من قبل فيه . فإذا أتاح الاعتداء على سيادة الدولة أن يرى أبناؤها أفكاراً جديدة يستريح إليها العقل ، وإذا أتاح هذا الاعتداء أن يعبر الإنسان عن فكره بحرية لم يكن يعرفها ، وإذا أتاح للإنسان أن يعيش حياة مادية أكثر رخاء ، وإذا بعث الأمل فى تحطيم قيود الجمود قيداً بعد قيد — إذا أتاح الاعتداء على سيادة الدولة هذا كله للأفراد نسى الأفراد الدولة وسيادتها ، وبخاصة إذا كان نظام هذه الدولة أوتقراطياً بشع الاستبداد كما كان الشأن فى تركيا ، وبخاصة إذا كان صاحب هذه السيادة راضياً عن تقييدها ثمناً لما يناله من ضمانة الإمبراطورية وسلامة أراضيها ، وكيف ترى تدافع الشعوب عن سيادة الدولة إذا كانت هذه السيادة ستاراً للعسف والظلم والقضاء على صور الحرية جميعاً ، وإذا كانت قيود هذه

السيادة تفتح فرجة أمل فى تحطيم قيود الحرية . إن الشعوب يومئذ لتفكر فى سعادتها وفى رخائها وفى طمأنينتها قبل التفكير فى سيادة الدولة . فإذا بلغت من ذلك مقاماً ترضاه توجهت بهمتها إلى نظام الدولة وإلى حقوقها . فإذا أصبحت الدولة ممثلة الشعب كما يجب أن تكون اتجهت جهود الشعب لاستكمال سيادة الدولة وحريتهـا وتضافرت لإقامة استقلالها ومجـــدها .

وثم اعتبار آخر هوّن على الشعوب إذعانها واستخذاءها . ذلك إذعان الحكومات واستخذاؤها . فهؤلاء الأجانب الذين وفدوا على مختلف البلاد الشرقية وأقاموا فيها ألواناً من حياة أوربا قد رأوا من حكومات هذه الدول ترحيباً بهم وإقبالا عليهم وحماية لهم يتمنى أهل البلاد بعضها ولا يجدونها . يجب إذن أن يكون هؤلاء الأجانب فى نظر تلك الحكومات الشرقية جديرين بهذا التقدير والاعتبار ويجب أن يكونوا أرقى فى مراتب الحياة لينالوا كل هذا الاعتبار . لذلك لم تنظر لهم تلك الشعوب على أنهم إخوان فى الإنسانية هجروا بلاداً ضاقت بهم فلم يجدوا فى المقام بها خيراً وهم لذلك جديرون بشيء من الإشفاق ، مطالبون بأن يقدروا هذا الإشفاق حق قدره . بل نظرت إليهم على أنهم أبناء أمم أسمى نفوساً وأرقى عقولا وأقدر على حكم الحياة وأجدر بأن يكونوا مثالاً يحتذى لينال محتذيه شيئاً مما ينالون من كرامة وحق وسلطان على الحياة . وقد حصل الذين احتذوا مثال هؤلاء الأجانب من حكوماتهم الشرقية على شيء من ذلك كله مما لم يكونوا يحصلون عليه من قبل ، ومما لا يحصل عليه من لم يتخذوا الأجنبي قدوتهم ولم يخرجوا بذلك على قديم جمودهم . وشجع هذا السبق فى ميادين الحياة على اتساع نطاق الاحتذاء وعلى محاكاة الطائفة الحاكمة من أهل البلاد

لهذه الحياة التى وردت مع الجاليات الأجنبية . ولم يكن ذلك عجباً وقد جعلت الحكومات نفسها تستورد من صور هذه الحياة ما تراه حقًّا بأن ينيلها عطف هذه الدول التى أطلقت على نفسها اسم « العالم المتمدين » . استوردت الحكومات أسماء النظم الأوربية وصورها الظاهرة مكتفية بذلك عن حقائقها وقيمها الذاتية . أقامت هيئات إلى جانب الحكم المطلق أطلقت عليها اسم الشورى أو النيابة عن الأمة لتضاهى البرلمانات ومجالس النواب . أنشأت مدارس وألبست أبناءها الزى الأوربى وأدخلت فيها تعليم بعض اللغات الأجنبية لتضاهى المدارس الأوربية . أقامت للعدل نظماً صورها الظاهرة كالنظم الموجودة فى أوربا . وكان ذلك كله اعترافاً منها بأن الحياة الأوربية هى الكفيل بالرقى فى سلم التمدن وأن النهج على منوالها هو الذى يسمو بالإنسان إلى مقام الحضارة . ولكى يكون لهذه المظاهر جميعاً من حسن السمعة ما يوهم عظيم شبهها بأمثالها فى أوربا استعارت حكومات الشرق رجالاً من الغرب لإتقان تصوير هذه المظاهر . فلا غرو إذا نزع أبناء الشعوب الشرقية إلى محاكاة الوافدين عليهم من أبناء الغرب فى مظاهر حياتهم ، وإذا اعتبرت هذه الشعوب فى ذلك ما يقربها من حضارة الغرب وما يكاد يدفع حضارة الغرب بحيالها .

ولعل مصر كانت أكثر دول الشرق سبقاً فى هذا الميدان ؛ فمصر بطبيعة مركزها الجغرافى هى عقدة الاتصال بين الشرق والغرب ، ومصر كانت أيالة « ولاية » عثمانية كغيرها من سائر أجزاء الإمبراطورية العثمانية ، لكنها كانت على خلاف غيرها دائمة التمرد والثورة على سلطان الدولة . وقد ظهر ذلك من قبل الحملة الفرنسية على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر حين أعلن « إبراهيم بك الكبير » استقلالها ، كما ظهر بعد الحملة

الفرنسية حين عينت تركيا « محمد علىّ باشا » والياً على مصر فاستفاد من تمردها ومن ثورتها على الدولة ومن قوتها الذاتية قوة قام بها فى وجه تركيا ، واندفع بها إلى غزوها جاعلا الآستانة هدفه ، قاصداً وضع يده على مقر الخلافة ليقيم بها خليفة للمسلمين ، أو ليرد الخلافة إلى القاهرة ويقوم هو خليفة فيها مكان الخليفة الذى انتزعه الأتراك منها . ولشد ما عطفت أوربا على هذا العصيان الذى قام به والى مصر فى وجه متبوعه خليفة المسلمين وما شجعته . ومع أنها وقفت دون « محمد على » وبلوغه غايته فإنها قد أبدت من الحرص على تأييده بمنح مصر استقلالها الذاتى تحت إمرته وإمرة أسرته من بعده وبجعل فلسطين وسوريا تحت حكمه ما جعله يقدر هذا العطف ويفتح للأجانب فى مصر باباً كان من قبل موصداً . ولم يكتف « محمد على » بفتح هذا الباب ثمناً لعطف فرنسا ممثلة أوربا يومئذ عليه ، بل أقبل هو على الأجانب واتخذ له منهم مستشارين وأنصاراً وجعل منهم قواداً لجيشه ، ومهد بذلك لتغزو الحياة الأوربية مصر غزواً سريعاً . وقد ظهرت نتائج هذا الغزو بعد زمن قصير حين عقد « دلسبس » مع « سعيد باشا » اتفاقية قناة السويس ، وحين نادى « إسماعيل باشا » بأن مصر لم تعد جزءاً من أفريقيا بل أصبحت قسماً من أوربا ، وحين توالت الحوادث بعد ذلك سراعاً لتمهد الطريق لإنجلترا كى تضع يدها على مصر .

كان من أثر هذا التطور فى حياة دول الشرق وشعوبه وتوجهها نحو الحياة الأوربية تنسج على مثالها أن بدأت البعثات التعليمية الأوربية تفد إلى الشرق وتستقر به . وكانت هذه البعثات التعليمية بدء الغزو الصحيح ، وكان ذلك تقدير أوربا لها . فما دام الشرقيون يقبلون على الحياة الغربية

فليهيئ الغرب لهم أسباب محاكاتها وليجعل التعلم وسيلته إلى ذلك ، لكن أمر هذه البعثات يستلفت النظر ، فقد رأينا أوربا تتدرج منذ البعث فى القرن الخامس عشر إلى حرية الفكر وإلى تحطيم القيود التى غللت بها الكنيسة هذه الحرية ، وإلى إقامة نظم تعليمية مستقلة عن الكنيسة وعن رجال الدين . مع ذلك كانت هذه البعثات التى جاءت إلى الشرق بعثات دينية كلها . ولقد يخال الإنسان بادئ الرأى أن هؤلاء الذين وفدوا إلى الشرق من رجال الدين المسيحى على مختلف مذاهبهم ونحلهم إنما وفدوا إليه لتضييق حكوماتهم نطاق التعليم الدينى فى بلادهم واعتبارها أدوات جمود وتأخر . لكن هذه البعثات الدينية لقيت منذ اللحظة الأولى حماية من لدن حكوماتها المختلفة لم يلقها غيرها من الأجانب الذين جاءوا إلى الشرق . وكان المتبادر إلى الظن ألا تعطف حكومات أوربا كل هذا العطف على جماعة تعتبرهم سبباً من أسباب تأخر أوطانهم مادامت تريد أن ترفع فى ربوع العالم كله لواء حضارتها الجديدة . لكن الأمر كان لا يزال على النقيض من هذا المتبادر إلى الظن . ومتتبع تقارير ممثلى الدول الأوربية فى الشرق منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر إلى وقتنا الحاضر يعجب لما يرى فيها من شدة الحرص على حماية هذه البعثات حماية لا يتردد الإنسان معها فى اعتبار البعثات التعليمية الدينية غزوة منظمة وجهتها أوربا إلى الشرق لغايات سياسية .

كيف كانت هذه البعثات غزواً سياسيًّا منظماً وجهته أوربا للشرق ؟ رأيت أن تركيا ، باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية الحائلة بامتدادها حول البحر الأبيض المتوسط دون غزو أوربا لأفريقيا وآسيا ، كانت موضع نظر خاص من جانب دول أوربا . فتنافسها بحكم القومية جعلها تتسابق إلى أن تكفل سلامة

الأراضي العثمانية وحرصها على اختراق هذا النطاق وعلى وضع يدها عليه جعلها تعمل لتشجيع العوامل التي تضعف هذه الدولة العثمانية ؛ فهي قد صدت روسيا بعد أن تراجعت تركيا أمامها ، وهي قد أعادت « محمد على » إلى مصر بعد أن كان على مقربة من القسطنطينية ، وهي قد شجعت اليونان وشجعت الدول البلقانية على الانتقاض على تركيا . لكن تركيا إذا تركت وشأنها بعد هذه الضربات التي أصابتها والتي صدتها أوربا عنها ضماناً لسلامتها فقد تستفيد من هذا الدرس القاسي وقد تراجع النظر في أمرها . فلتختر أوربا الجهات التي يكثر فيها المسيحيون من بلاد آل عثمان ولتوجه إليها غزوتها التعليمية بقوة أكبر مما وجهت لسائر بلاد الدولة ، واختارت أوربا لبنان لهذا الغرض وبعثت إليه البعوث وأنشأت فيه المدارس منذ سنة ١٧٥٠ . وكان أهل لبنان إلى يومئذ لا يجعلون الخلاف في الدين سبباً لاختلاف سياسي ، لكن هذه البعثات الدينية الأوربية عملت بتأييد دول الغرب المختلفة لتعليم المسيحيين من أهل لبنان ولإقناعهم بأن ما ينزل بهم ليس مرجعه إلى نظام الحكم في الإمبراطورية العثمانية كلها ، ولكن مرجعه إلى أنهم مسيحيون ، وأن الدولة العثمانية هي دولة الخلافة الإسلامية ؟ وبهذه التعاليم تهيأت نفوس أهل لبنان للانتقاض على الحكومة المركزية .

قد يكون رجال هذه البعثات مخلصين لرأيهم فيما علموا أهل لبنان ، ولكنهم كانوا أدوات السياسة الغربية ، سياسة الاستعمار المادي الذي لا يعنى بالعقيدة ولا بالدين إلا بمقدار ما يصل به إلى أغراضه . وقد انتقض لبنان بالفعل في سنة ١٨٦٠ وتدخلت الدول الأوربية لتأييد انتقاضه وكفلت له الحكم الذاتي الذي كفلت لمحمد على في مصر قبل عشرين سنة من ذلك التاريخ ، وبذلك أقامت من لبنان الجبل الحصين نتوءاً في جنب

السور الإسلامى ، كما أقامت من مصر قبل ذلك نتوءاً آخر أشد من لبنان خطراً بسبب هذا الموقع الجغرافى الممتاز الذى يجعل مصر موضع الصلة بين البحرين الأبيض والأحمر موضع الصلة لذلك بين قارات العالم الخمس جميعاً .

كان من نتيجة هذا الغزو التعليمى وما أذاع فى الشرق من أدب جديد وتفكير جديد أن زاد أهل الشرق شعوراً بما جنى الجمود عليهم وإقبالاً على هذه الحضارة المتقدمة . ولكن كيف يكون هذا الإقبال ؟ أيكون بنزع القديم كله وارتداء ثوب الحضارة الجديدة ؟ لقد نزعت بعض الأمم فيها بعد الحرب الكبرى الأخيرة هذا المنزع ، كما فعلت تركيا وكما حاولت أفغانستان أن تفعل . لكن هذا المنزع لم يكن ميسوراً قبل الحرب حينما كانت شعوب الشرق ما تزال تحسب نفسها قديرة على استعادة مجد كان لها . لذلك بدأ أهل الشرق يفكرون فى أسباب تغلب الحضارة الجديدة عليهم ، وفى وسائل الوقوف على أقدامهم إزاءها . وتفكير الضعيف فى سبب ضعفه تفكير مطمئن بطبعه للاعتراف بما هو متورط فيه من الخطأ وما هو شر من الخطأ ، لذلك كان الأخذ بوسائل العمل لمجابهة الحضارة الغازية أسرع من التفكير فى التغلب على أسباب الضعف . وكان هذا العمل لمجابهة الحضارة الغازية سطحيًّا ، هو ما يتبادر إلى ذهن الإنسان العادى فى أى ظرف من الظروف . فهذا العمل إنما هو محاكاة الغرب صاحب هذه الحضارة . ومحاكاة الغرب تكون باستعارة مظاهر حضارته ، وتكون بإرسال جماعة من أبناء الشرق للوقوف على أسرار هذه الحضارة .

وقد كان هذا تفكير مصر منذ عهد « محمد على » ، وكان تفكيرها بعد ذلك . وهو قد كان كذلك تفكير بلاد غير مصر فى الشرق . لكن النشاط فى هذه الناحية بدأ نشاطاً حكومياً ، ثم فتر زمناً إلى أن أتاحت

ظروف خاصة للأفراد التفكير فيه .

أدهشت الحضارة الغربية أعضاء هذه البعثات فكل مظاهرها جديدة أمامهم ، والمظاهر المعنوية فى ذلك كالمظاهر المادية سواء . وهذه وتلك كلها قوية ناشطة ، آخذ بعضها برقاب بعض ، مستندة كلها إلى هذه الحرية التى كسبت أوربا فى مختلف الميادين بعد نضال القرون . فالعلم والفن والأدب والفلسفة وسائر مظاهر التفكير جديدة كلها ، بالقياس إلى ما خلفوا وراءهم فى بلادهم . والصناعة والتجارة ومعدات النقل وأسباب الملاحة ضخمة هائلة لا يرى فى الشرق منها إلا ما كان وارداً من الغرب . وهذه الحرية التى يستند ذلك كله إليها ، تتهم فى الشرق بمنافاتها لقواعد الخلق ولمقتضيات الفضيلة . وليس يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن رجال الدين فى الغرب يحدثون هؤلاء الذين أوفدهم الشرق حديثاً غير الذى يحدثهم رجال دينهم ؛ يحدثونهم حديثاً أساسه التعقل واحترام الحرية ، ويحدثونهم عن الخلق وعن الفضيلة وعن المحبة الإنسانية حديثاً قلما تخالطه الخرافة . فمن حق هؤلاء الشرقيين أن يندهشوا ، ومن حقهم أن يشعروا بسبق الغرب إياهم ، وبأن حضارة الغرب إنما هى الحضارة الواجب أن تنتقل إلى الشرق إذا أريد بالشرق أن يخرج من جموده وأن يفيق من سباته . فما هى الوسيلة ؛ بل ما هى الوسائل لنقل هذه الحضارة ؟

يستغرق التفكير فى هذه الوسائل السنين الطوال . لكن هذه النتيجة التى وصل إليها من تثقفوا بثقافة الغرب من أبناء الشرق ، جعلت نظرتهم إلى بلادهم نظرة إشفاق لا تخلو من ازدراء ما فيها من العناصر الحيوية التى كان يجب أن تدفع بها إلى الأمام فإذا هى تردها القهقرى خطوات فسيحة . ومن شأن هذه النظرة أن تضعف فى النفوس القوة المعنوية أضعاف .

ما ضعضعت البعثات الدينية الأجنبية من هذه القـوة . ثم زاد فى ضعفها عامل آخر جدير بالاعتبار هو الآخر ، وهو من نوع هذين العاملين من حيث إنه عامل تعليمى مرجعه إلى تدريس تاريخ الشرق لأهـل الشرق .

فقـد جعل أهل الغرب همهم تصوير تاريخ الشرق تصويراً يجعـل الناشئين من أهله يعتبرون بلادهم بطبيعة تاريخها غير أهل لما بلغت أوربا ، فواجب عليها أن تذعن لقيام أوربا بتعليمها وإعدادها للحرية وللحكم . فمصر مثلا لم تحكم نفسها – فى رأى الأوربيين الاستعماريين – منذ انتهى عهد الفراعنة . بل خضعت لحكم اليونان والرومان والعرب والترك عصوراً وقروناً . وشعب هذه وراثته فى الحكم لا يمكن أن يعرف الحرية ، أو يعرف كيف يتولى بنفسه الحكم . ومع فساد هذه النظرية من الجهة العلمية النزيهة ، فقد ظلت تروج وتروج ، ويخلع عليها الأدب والفن من مختلف الصور ما نزل بها إلى نفوس الشعب فأضعفها . وتركيا – مع الاعتراف لها بتفوق ملكاتها الحربية – هى الرجل المشرف على الموت الذى ليس من موته بد . وبلاد العرب المندمجة فى الإمبراطورية العثمانية قد خضعت لنير العرب منذ الفتح الإسلامى ، ثم عصف بها الحكم التركى فقضى فى نفوس أهلها على كل ملكات الحرية والحكم .

أما الجزائر وأما تونس فقد وقعت فى حكم فرنسا . وقعت الأولى فى أوائل القرن التاسع عشر ، بينا ظلت الثانية حتى حوَّل بسمرك أنظار فرنسا إليها بعد حرب السبعين ليشغلها بها عن هزيمتها فى تلك الحرب من ناحية ، وليشغلها عن مجهوده الجبار فى إقامة الوحدة الجرمانية من الناحية الأخرى ، وما نفثت أوربا من سموم الانحلال فى مصر وفى الشرق الأدنى نفثته فرنسا

فى الجزائر وفى تونس . وإذن فليؤمن الشرق كله بأنه فى حاجة إلى حضارة الغرب إذا أراد أن يحيا وأن يعرف للحرية طعماً ، وليؤمن تبعاً لذلك بأنه فى حاجة إلى دول الغرب لمعاونته على الحياة وعلى الحرية .

وتقدم الغرب لمعاونة الشرق ، ولكن أية معونة ؟ من يريد أن يستغل استغلالاً اقتصادياً فاحشاً تحت ظاهر من نشر لواء حضارته . فحضارة العلم قد عنيت فى الشرق بتضييق نطاق العلم غاية التضييق . عكفت البعثات التبشيرية فى البلاد التى ظلت مستقلة على بث ذلك التاريخ المشوه للشرق فى نفوس أبنائه ، وعلى إشراب تلاميذها العقيدة بأن الشرق بحكم دينه الغالب ، وبحكم تاريخه ، لا سبيل إلى تقدمه ما لم ينزع عنه ثوب هذا الدين ، وما لم يفصل بينه وبين ماضيه بسياج متين . فأما فى البلاد التى امتد نفوذ الغرب فيها ، فقد حصر التعليم فى أضيق دائرة ممكنة ، وجعل أداة لتخريج موظفين يدينون بالطاعة والإذعان للغرب صاحب السبق والتقدم أو صاحب النفوذ السياسى فى البلاد . وقد أشار لورد «كرومر» فى تقاريره عن التعليم بمصر إلى ذلك غير مرة بعبارات صريحة . بل أضاف إلى ذلك أن لغة أهل الشرق (العربية) غير قادرة على أن تحمل رسالة العلم ، فلا بد لمن يريد أن يدرك هذه الرسالة من أن يصل إليها عن طريق لغة أوربية . وهذه كلها لا ريب عقبات ، عمل الغرب لوضعها فى طريق الشرق حتى لا تسرع إليه رسالة العلم الصحيح تدفعه إلى حمى الحرية والحق ، وتجعله يقف مع الغرب جنباً لجنب بدل أن يذعن له ويطأطئ رأسه أمامه .

وفيما كانت هذه العوامل كلها تضعضع من إيمان الشرق بنفسه ، كانت صناعة الغرب تغزو الشرق غزواً ذريعاً ، وكانت سياسة الغرب

تقيم فى وجه الشرق كل عقبة إذا أراد أن ينافس بصناعته صناعة الغرب . وكان الاستعمار الاقتصادى يتخذ من علم الغرب ومن أدبه ومن فلسفته وسيلة لإضاعة ما عند الشرق من ثقة بنفسه ، ولإقناعه بأنه أصبح إلى أجيال عالة على الغرب لا سبيل له إلى الاستغناء عنه . وقد بلغ الغرب من ذلك أن أصبحت بلاد الشرق مقصورة على إنتاج الخامات التى تحتاج إليها الصناعة ، قاصرة عن أن تنتج فى ميادين العلم والأدب والفن شيئاً يذكر ، وإن أصبح كل ما فى الشرق من مظاهر الحضارة مستعاراً من الغرب ، حتى لو أنك نزعت ما فى الشرق من علمه وأدبه وفنه وصناعته وتجارته،إذن لرأيت الشرق أجرد عارياً إلا من خصب أراضيه ومن أذرع الفلاحين والعمال فيه .

هل أسلم الشرق نفسه لهذا الفناء فى الغرب ؟ أم أنه حاول أن يقاوم وبأى مقدار ؟

نقف فى هذا الفصل عند الغزو الأوربى للشرق إلى ما قبل الحرب الكبرى التى شبت نارها فى الثانى من أغسطس سنة ١٩١٤ . إلى ذلك الحين كان غزو الغرب بلاد الشرق معتمداً على ما قدمنا بصفة عامة ، معتمداً إلى جانب ما قدمنا على القوة المادية والهيبة العسكرية فى البلاد التى غزاها الغرب . وقد كانت تتنازع الشرق إزاء ذلك كله نوازع مختلفة الموجات . كان الشرق كله تفيض نفسه أسى وحسرة على ما أصابه . لكن رد الفعل فيه كان يختلف باختلاف الطوائف والهيئات . فمن هذه من رأى كل مقاومة غير مجدية ، ومن آمن أكثر من ذلك بتعاليم الغرب بأن الشرق لم يبق أهلاً لحكم نفسه ، وأنه لو ترك وشأنه لمزق أهله بعضهم بعضاً كل ممزق . ولفشت فيه آثار الاستبداد جميعاً من ظلم وقسوة وانتقام ورشوة وفساد خلق .

وأن ليس له لذلك إلا أن يذعن للغرب وأن يسلم له قياده حتى يعلمه الغرب حكم نفسه ، أو حتى تتم المعجزة فيبعث الله من يقيم الشرق من الوهدة التي تردى فيها . وآخرون كانت تثور نفوسهم لما يسلب الغرب الشرق حريته فينادون بحرية الشعوب اعتماداً على حقها في الحرية واعتماداً على مبادئ الحق التي قررت الثورة الفرنسية . وهؤلاء كانوا يتخذون من ضرب مصالح الأمم الغربية بعضها ببعض وسيلة للغاية التي يصبون إليها من تحرير أوطانهم محتذين في ذلك حذو الدولة العثمانية في اعتمادها على تنافس الدول الأجنبية لضمان سلامتها ، كما كانوا يعتمدون على استفزاز حماسة الشعوب المظلومة ليشعروا المستعمرين بأن مصالحهم معرضة للخطر إذا هم ظلوا في سلبهم لحرية الأمم التي يظلمون . وآخرون غير هؤلاء وأولئك كانوا يعتقدون أن الإذعان والتسليم أمر يتنافى وطبائع الأمم . وأن الاعتماد على تضارب مصالح الدول الغربية اعتماد غير مثمر . لأن هذه الأمم تتفق فيما بينها على حساب الأمم المظلومة ، فتنازعها لن يكون من أثره إلا ازدياد هذه الأمم المظلومة عدداً . وأن استفزاز الشعور وحده غير كاف لطرد المستعمر من بلاد يجد فيها مغنماً مادياً ، أو يجد فيها نقطة ارتكاز لسياسته الاستعمارية أو العسكرية . فإذا أريد أن تقاوم أمم الشرق استعمار الغرب فلا مفر من تقوية الروح المعنوية في أمم الشرق تقوية أساسية ثابتة تجعل أصحاب هذا الروح يأبون الضيم ويفضلون عليه الاستشهاد ، وأن تقوية الروح المعنوية على هذه الصورة لا يكون إلا إذا شعرت هذه الأمم بأن لديها من مقومات الحياة ما لدى أمم الغرب من علم وفن وأدب وصناعة ، وأن الاعتماد على الحكومات في هذا ضرب من السخف لأن الحكومات إما استبدادية كما كانت في تركيا وفي فارس وفي الأفغان فهي تخاف العلم والفن والأدب

والصناعة كما يخافها المستعمر سواء بسواء وإما خاضعة لحكم المستعمر فلا رجاء فى مقاومتها سياسته ، وفى إقامتها العلم والفن والأدب والصناعة مما يدك أركان هذه السياسة . فلا بد من أن تقوم حركة أهلية منظمة تعمل لتقوى الروح المعنوية وإن احتاجت فى ذلك إلى ما تحتاج إليه من جهود شاقة وعمل متصل على السنين .

كانت هذه النزعات الثلاث قائمة بنفوس البلاد الشرقية إلى ما قبل الحرب . ومع أنها على ما ترى نزعات لا يمكن أن تعترض بعضها بعضاً ، بل يمكن على العكس أن تتجاوز وتعمل متضامنة – والنزعتان الأخيرتان منها بنوع خاص – فإن السياسة الغربية الواسعة الحيلة قد تمكنت من أن تضربها بعضها ببعض ، وأن تقيم أصحابها وجههم فى وجه بعض ، وأن تجعلهم يترامون بتهم شنعاء أقلها المروق من الوطنية أو الخرف فيها . وقد تعجب إذ ترى أن ما حسبته تركيا ضماناً لسلامتها حين ضربت الدول بعضها ببعض قد أدى إلى استفحال شأن الامتيازات الأجنبية فيها وفى البلاد الشرقية كافة – قد انقلبت نتيجته حين ضربت سياسة الاستعمار طوائف الأمم المغلوبة بعضها ببعض فزادتها بذلك ضعفاً ، ولكن لا عجب . فالبذرتان المتشابهتان يختلف ثمرهما إذا زرعت إحداهما فى أرض قوية والأخرى فى أرض سبخة . وفرق بين سياسة تقوم على الضعف وتستمد وجودها من تنازع الدول على السلطان الذى يقوم بها وعلى بلاده ، وبين سياسة تعضدها القوة المادية والهيبة العسكرية وتستند إلى ما كسبت أوربا خلال القرون التى أعقبت عصر البعث من علم وفن وسياسة :

هذه الصورة التى رسمنا من صلات الغرب والشرق فى عصر الاستعمار – أى منذ منتصف القرن الثامن عشر إلى حين نشوب الحرب الكبرى –

تدلنا على أن أوربا قد غزت الشرق غزو استعمار ، لا غزو حضارة . قد غزته غزواً مادياً لم تقصد منه إلى أن تظله بلواء حضارتها العلمية . . بل غزواً اقتصادياً كان كل غرضها منه استغلاله استغلالاً اقتصادياً . قد يقال إن الغزو كان يرمى فى كل العصور إلى الغلب السياسى وإلى الاستغلال الاقتصادى . وهذا صحيح فى مجموعه ، وهو صحيح فى الغزو الإسلامى صحته فى الغزو المسيحى . لكن الغزو الإسلامى والغزو المسيحى كانا إلى جانب الغلب السياسى والاستغلال الاقتصادى يقيمان حيث أقاما روحاً معنوياً ونظاماً روحياً لم يقصد به يوماً إلى إضعاف ثقة الأمة ، التى نزل هذا الغزو فيها ، بنفسها ، ولا هو عمد إلى تشويه تاريخها وحبس العلم عن أهلها وعدم السماح لهم إلا بالنزر منه . ويشهد التاريخ أن الحضارة الإسلامية أظلت بلوائها كل بقاع الأرض التى انتشر الإسلام فيها . وكذلك الشأن مع الحضارة المسيحية ، لكنا لا نحسب أهل الغرب أنفسهم يرون شرفاً لحضارة الغرب أن يقولوا إنها أظلت البلاد التى حكم الغرب بلوائها . فإنما نشر الغرب حيث ذهب حضارة استعمارية قامت على إضعاف الروح المعنوى فى الشعوب التى نزلت بها ، وعلى قتل معنى الاعتماد على النفس فى تلك الشعوب ، كما نشرت بينها روحاً مادية قتلاً للإيمان بكل المعانى السامية أو المثل العليا توطيداً للاستعمار وآثاره . وهذا الروح المادى هو ما يعمل المستعمرون لنشره أنى ذهبوا ؛ لأنهم يرونه الصلة الوحيدة التى تربط الحاكم بالمحكوم فى كل أمة ليس بين الحاكم والمحكوم فيها صلات لغة أو جنس أو دين . أفنجحت هذه السياسة فى ربط الغرب بالشرق حين أعلنت الحرب الكبرى ؟ وهل نجحت من بعد ذلك فى توطيد السلام فى ربوع العالم ؟ فلننتظر قليلا ثم نرى .

الفصل الثانى

الشرق فى طور بعثه*

١ – أثر الحركات الفكرية فى بناء الوطن

ما هو المقصود بالحركات الفكرية ؟ لعلى لا أكون مخطئاً حين أجيب عن هذا السؤال بأن الحركات الفكرية إنما هى يقظة الأمم من ركود تألفه وتستنيم إليه ، فتؤدى استنامتها لهذا الركود إلى انتشار العادات الضارة ، والعقائد السقيمة ، والمفاسد التى تصبح فى حكم العادات والعقائد ، والتى تضر بالمجموع القومى ضرراً يشعر به بادئ الرأى بعض الأفراد فينبهون إليه ، ثم ينتشر الشعور به فى طوائف الأمة المختلفة . فإذا علت الصيحة بمقاومة هذا الفساد لبى الشعب هذه الصيحة ، فكانت اليقظة ، وكانت الحركة الفكرية أو التحريرية للقضاء على العادات الضارة والعقائد السقيمة والمفاسد الناشئة عنهما . وعند ذلك تتحرك نفسية الشعب إلى أمل أسمى ومثل أعلى يراد تحقيقهما للخير العام .

والركود الذى يصيب الشعوب فتنشأ عنه هذه المفاسد مثله فى الجماعة الإنسانية كمثل ركود الماء وما ينشأ عنه من طحلب يعلو سطحه ؛ ومن

* محاضرة ألقيت بدار الكتب الوطنية فى حلب سنة ١٩٥٣ .

جراثيم تنمو فى هذا الطحلب فتفسد الماء نفسه فيصبح آسنا . ويقظة الشعب لمحاربة الأسن الذى يريم عليه ، ومقاومة ما ينشأ عنه من فساد ، إنما مثلها كمثل الماء الجارى يندفع قوياً إلى مواضع الركود فإذا الطحلب يتمزق وينزاح أمام هذا الماء المتدفق فيلقى به إلى الشطآن حيث تلقمه الشمس وتنقيه وتطهره من جراثيمه . كذلك تفعل يقظة الشعوب ، تمزق ما كثف من حجب العادات الضارة والعقائد السقيمة وتقضى على جراثيم الفساد التى عششت فيها ، ثم إذا الكيان القومى يقاوم ما اندس إليه من ضعف ، وإذا بناء الأمة الذى كاد يتهدم ويتداعى يعود متيناً قوياً ، وإذا هذه الأمة تستظل بلواء من حرية الفكر يجدد فيها العزائم المنحلة والنفوس الضعيفة ، ثم إذا بها تندفع متحدة الكلمة متوثبة العزم لتنهض بالعبء الإنسانى الذى يقتضيها التقدم فى طريق الكمال .

واليقظة القوية مصدرها العقل والعاطفة ؛ إذ يغالبان السليقة الحيوانية ، ويتغلبان عليها ويسموان بها إلى ما يرضى الشعور البشرى بالكرامة الإنسانية . والعقل والعاطفة هما اللذان يوجهان السليقة الحيوانية فى الإنسان إلى الخير أو إلى الشر فيسموان بها إلى مصاف الأبرار والعلماء والقديسين ، أو ينحدران بها إلى مصاف الأشرار والجهال والفاسدين .

ومن هنا كان اختلاف هذه السليقة فى الإنسان عنها فى سائر الحيوان . سليقة الحيوان تهديه طريقه فى الحياة على نحو ما اهتدى آباؤه وأجداده وسائر أسلافه منذ كان نوعه . فالأسد اليوم يعيش كما عاش الأسد من مائة ومن ألف ومن عشرة آلاف سنة مضت . وشأن الثور كشأن الأسد سواء ، وكذلك سائر الحيوان . أما الإنسان فتتأثر سليقته بهدى عقله

وعاطفته وحبه ، لأنه يستطيع بهداها أن يعرف لنفسه ألواناً من المتاع فى الحياة لا يبلغها عن طريق السليقة وحدها .

صحيح أن سليقة الحيوان وسليقة الإنسان تهدفان كلاهما إلى المحافظة على الحياة وإلى تخليد النوع . والمحافظة على الحياة تقتضى كلها الطعام والشراب والمأوى . وتخليد النوع إنما يكون بالتناسل . ولكن الحيوان لا يعنى من طعامه وشرابه ومأواه وتناسله بمتاع خاص يلذ حسه ، أو يرضى عاطفته ، أو يرضى عنه عقله وإنما تدفعه الطبيعة إلى أن ينال من ذلك ما يسرته له فى حدود الأغراض التى تمليها سليقته : المحافظة على الحياة وتخليد النوع . أما الإنسان فلا يكتفى بما تيسره الطبيعة ، بل يحرص على تحويره وتنظيمه على صورة تنيله من المتاع بالحياة ما يجعله أشد حرصاً على المحافظة عليها ، ومن تخليد النوع مـا يخلع عليه ألواناً من الحس والعاطفة ليس للحيوان منها إلا القدر القليل . ثم يبدع عقله وحسه وتبدع عاطفته ألواناً من العلوم والفنون والآداب تزيد هذا المتاع أضعافاً مضاعفة .

ومن هنا كان تطور الإنسان على حقب التاريخ فى ألوان حياته الفردية والجماعية ، وكان تطور صلات الناس بعضهم ببعض فى الأسرة والقبيلة والمدينة والأمة ، وفيما بين الأمم بعضها وبعض . ومن هنا كذلك طوَّر العلم أسباب الحياة من شظف العيش الذى كان يحياه الناس منذ ألوف السنين ، والذى لا يزال مألوفاً عند بعض الجماعات الإنسانية المتخلفة ، إلى ما وصلنا إليه اليوم من آيات العلم والفن وسائر ما هنالك من نتاج العقول ووحى الخيال فى مختلف الميادين .

جاء هذا التطور الذى نقل الجماعة الإنسانية من حال الهمجية إلى أسمى ما بلغته من مراتب الحضارة نتيجة ليقظة العقل والعاطفة يقظة تكررت

عشرات المرات فى مختلف أرجاء الأرض ، وتبعتها فى كل مرة تلك الحركات الفكرية فكان لها ما كان من أثر فى بناء الأمم . وقد اختلفت صور هذه اليقظة باختلاف الأزمنة والأماكن التى تقع فيها ، فكانت تارة يقظة روحية ، وتارة أخرى يقظة فنية ، وتارة ثالثة يقظة علمية ، وتارة رابعة يقظة صناعية ، وهلم جرا ، وفى أعقاب كل واحدة من هذه اليقظات كانت الحركات الفكرية تتفاعل فتخرج الأمة من سباتها ومن ركودها إلى نشاط معمر يظل زمناً حتى تبدو اليقظة فى ركن آخر من أركان العالم ، فإذا تلك اليقظة الأولى تنطوى على نفسها ، وإذا هى تنقلب شيئاً فشيئاً ركوداً يعلوه حجاب يكثف بتوالى الزمن ، وتعشش فيه جراثيم العقائد السقيمة والآراء الضارة وما ينشأ عنهما من فساد وانحلال يطول زمنهما أو يقصر ، حتى تمزق حجابهما يقظة جديدة ونهضة فكرية جديدة .

وتاريخ الإنسانية سلسلة متصلة من تلك اليقظات ومن أدوار الركود تبدو هنا وهناك فى مختلف أرجاء العالم . وحسبى أن أعيد إلى الذاكرة بعض هذه اليقظات لنرى أن مصدرها جميعاً كان حركة فكرية . ولنقدر ما كان لها من أثر فى بناء الأمة التى ظهرت فيها . ثم امتدادها من بعد ليعم أثرها العالم كله .

موسى بن عمران

وأول مثل أضربه اليقظات الروحية . فهذه الأديان التى نشأت فى منطقتنا ، منطقة الشرق الأدنى ، قد كان كل واحد منها ، فى أول أمره ، حركة فكرية نادى بها رجل فهتك بها حجاب ذلك الركود الذى خيم على الأمة التى نشأ فيها . كان « موسى بن عمران » فى مصر ، وكان فرعون

مصر يقول لأهلها : أنا ربكم الأعلى ، وكان أهل مصر يخلعون على فرعون كل مظاهر الألوهية وصفاتها ، فجاء « موسى » بأمر ربه وألقى فى الناس أن فرعون ليس إلا رجلا كالرجال ، وأن الله جل شأنه برأه كما برأ غيره من الناس ، وأن فرعون معرّض للخطأ ، كما أن غيره من الناس معرض للخطأ ، وأن الكمال لله وحده ، والعصمة له وحده ، ويجب أن تكون العبادة له وحده .

هذه فكرة تحريرية ألقى بها « موسى » فأثار فرعون ثم كان لها من بعد أثرها ، لا فى حياة مصر وحدها ، بل فى حياة العالم كله .

عيسى بن مريم

وجاء « عيسى » وبطش الرومان مسلط على الرقاب ، فألقى فى الناس آية العفو والمغفرة والتسامح والسلام ، فكان ما ألقاه فكرة جديدة قاومها الطغاة وقاوموا رسولها ، كشأنهم فى مقاومة كل فكرة تحريرية . ولكن هذه المقاومة لم تمنع ضياء الفكرة من أن يشع فى الآفاق إشعاع نور الشمس فيها ، ولم يمنع الفكرة ذاتها من أن تنتشر وأن تحتل ملك روما نفسها لتقضى على الطغيان فيها . وانتشرت المسيحية فى روما وفى مصر وبلاد الشرق ، ثم عم نورها آفاقاً لا تزال تسبّح بحمد المسيح وتقدس له . وكان للفكرة التى ألقاها المسيح أثرها فى بناء الأمم التى دانت لتعاليمه ، ولا يزال لها من هذا الأثر فى بناء أكثر الأمم رقيًّا وحضارة فى عهدنا الحديث ما تعرفون .

النبيّ العربي

وجاء النبي العربي برسالة الإسلام إلى شبه الجزيرة يوم خيم عليها ركود كانت عبادة الأصنام مظهره . جاء يدعو إلى التوحيد ، وإلى الأخوة الإنسانية ، وإلى أسمى الفضائل النفسانية ، فلم تمض على دعوته غير عشرات قلائل من السنين ثم إذا الإمبراطورية الإسلامية تمتد شرقاً من الهند والصين إلى المحيط الأطلنطي ، وإذا هذه الأفكار التحريرية تنهض بأمم أفسدها الركود فبعثتها لتقيم فى العلم حضارة ، وتبنى فى العالم شعوباً وأمماً لا تزال حتى اليوم تؤمن برسالة النبي العربي ، ولا تزال ترجو أن تبعث فى العالم روحاً جديداً من الإخاء والتسامح ومن المحبة والسلام والخلق الكريم تنقذه من فساد حل به وهو يرزح اليوم تحت كلكله .

هذه الحركات الفكرية التى أدت إلى تلك اليقظات الروحية ، والتى كان لها أكبر الأثر فى بناء الأمم التى اعتنقت هذه الرسالات ، أصابها الهرم والركود فى بعض الأحيان ، ثم دبت إليها اليقظة فى أحيان أخرى فعادت قوية تسمو بالحياة الإنسانية إلى ألوان من الجاه تضفى على الحياة قيمة لم تكن لها من قبل .

وحسبي أن أذكر مثلا لهذا الركود ولليقظات التى هتكت حجابه حركة البعث فى أوربا . كان قد دب إلى المسيحية فى العصور الوسطى من أثر الركود ما شجع رجال الدين على بيع براءات الغفران وما يشبه بيع براءات الغفران من أمور رآها بعض زملائهم مخالفة صارخة لتعاليم السيد المسيح . عند ذلك ثاروا بهم فكانت الحركة الفكرية التى قام بها

« لوثر » و « كالفن » والتى أقرت البروتستانتية فى العالم . وقد كان لهذه الحركة الفكرية من الآثار فى بناء الأمم الأوربية ما سجله التاريخ وما لا يزال يسجله إلى وقتنا الحاضر . فلم يقف أثر هذه الحركة عند الأمم التى اعتنقت المذهب الجديد ، بل قضت على كثير مما كان رجال ثورة الإصلاح الدينى يشكون منه ، وكانت براءات الغفران مقدمة ما قضت عليــه .

ثم كان لهذه الحركة الفكرية أثر أبعد ؛ ذلك أنها نبهت الأذهان إلى أن للعقل الإنسانى حقوقاً لا يمكن أن تهضم ، وأن العقل الإنسانى يستطيع أن يفتح للإنسان من أبواب الطمأنينة والسعادة الشىء الكثير .

وفى ذلك الحين كانت جيوش الأتراك تتقدم حتى فتحت القسطنطينية وقضت على بيزنطية وعلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية القضاء الأخير ، ورفعت لواء الإسلام على البلاد التى فتحتها . هنالك اضطر عدد من العلماء ، الذين لم يرضوا أن يسيروا فى ركاب الغزاة ، للهجرة إلى إيطاليا وإلى غيرها من بلاد أوربا ، فكانت هجرتهم طليعة البعث العلمى الذى شهدته أوربا منذ القرن السابع عشر ، والذى أقام الحضارة الغربية الحاضرة ، وهو لا يزال باقى الأثر إلى اليوم .

هل لى قبل أن أتحدث عن اليقظة العلمية ، وعن الحركات الفكرية التى وجهتها وعن أثرها فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية ، وما كان لذلك من أثر فى سياسة العالم كله ، وفى قيام أمم وتدهور أمم أخرى ، أن أشير إلى ما بين اليقظة الروحية والحركة الفكرية التى توجهها وبين غيرها من اليقظات من اختلاف أساسى . . فاليقظة الروحية بطبعها تدعو الناس إلى العودة إلى الكمال الروحى ، إذ يكونون قد انحدروا إلى مراحل دون

مستواه . فهى ليست يقظة دافعة إلى تبديل يراد به التقدم إلى الأمام ، بقدر ما هى حركة مقاومة للتحلل النفسانى ، ودعوة للعود بالروح إلى صفاء جوهرها ، صفاء مصدره إيمانها الصحيح بالله . والإيمان بالله هو الإيمان بالكمال الروحى ، فالله كمال فى كل صفاته جل شأنه . وإذا كان الله قد خلق الإنسان على صورته ، فواجب أن يلتمس الإنسان فى حياته كل الصفات التى تقربه من الله جهد طاقته .

وليس عجباً أن يكون ذلك شأن اليقظات الروحية ، فهذه اليقظات تتصل بجوهر النفس . وهذا الجوهر لا يتغير بالزمان ، بل هو باق بقاء الزمان . فليهد العلم الإنسان إلى ما شاء الله أن يهتدى إليه فلن يغير ذلك من جوهر نفسه ، ولن يغير مما يدعو إليه هذا الجوهر من معانى المحبة والإخاء والسمو الروحى شيئاً . لقد استطاع علم النفس أن يكشف عن كثير من العوامل التى توجهنا فى سلوكنا ، ولكنه لم يستطع أن يغير المثل العليا لقواعد هذا السلوك ، فلم يجعل الكذب أو الخداع سبيلنا إلى الحق ، ولم يجعل الكراهية والبغضاء سبيلنا إلى السعادة ، بل بقيت القيم الأخلاقية ، التى عرف الناس فضلها من ألوف السنين لم تتغير ، ولا إخالها تتغير وإن انقضت على يومنا بعد اليوم ألوف السنين وعشرات ألوفها .

فأما ما سوى اليقظات الروحية والحركات الفكرية التى توجهها ، فليس يدعو إلى مثل هذا العود لما محته أحلك أطوار التاريخ ، بل هو يدعو إلى أطوار جديدة فى مظاهر الحياة الإنسانية تزيد الناس رخاء أو تزيدهم بالحياة متاعاً . لما قامت الحركات التحريرية فى أوربا فى القرن الثامن عشر نتيجة لجهود العلماء الذين دفعهم الغزو التركى من اليونان إلى إيطاليا وإلى غيرها من بلاد أوربا ، فتقررت حقوق الإنسان ، وفى مقدمتها الحرية

الفردية ، تطورت النظريات الاقتصادية متأثرة بهذه اليقظة السياسة ، متأثرة كذلك بالنشاط الاقتصادى الذى دفعت إليه هذه اليقظة . فبعد أن كانت الحياة الاقتصادية قائمة على أساس من الرق ومن تملك صاحب الأرض لمن عليها من الناس ، ألغى الرق وارتفعت الصيحة داعية إلى الفردية الاقتصادية . هذه العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتتابعة أدت « بآدم سميث » ، ثم « بجون ستيوارت مل » إلى تقرير المبدأ الفردى المطلق ، وإلى القول بأن أول واجب على الدولة ، بل واجبها الوحيد ، أن تحمى الحرية الفردية فى الميدان الاقتصادى ، وأن تترك الناس يعملون أحراراً متنافسين ، يثرى منهم إلى غير حد من شاء ، ويموت جوعا من لم تمكنه مواهبه من الصمود فى ميدان المنافسة . وكانت الحجة الأساسية التى أقاموا عليها نظريتهم أن الطبيعة تعمل لبقاء الأصلح ، وأن قياس الصلاحية هو المقدرة على المنافسة فى الحياة . فإذا عجز إنسان أو عجزت طائفة من الناس عن أن تقف من المنافسة موقف الظافر فعليها أن تذعن للهزيمة وأن تكتفى بالفتات الذى يلقى إليها من جانب الظافرين . وإذا بلغ من ضعفها ألا تستطيع البقاء ، فذلك الدليل على عدم صلاحيتها له ، ومن الطبيعى إذن أن تندثر وأن تفنى .

ظلت هذه النظرية الفردية قائمة متحكمة طيلة القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من قيام دعاة للاشتراكية ، لم يستطع هؤلاء الدعاة أن يثبّتوا أقدام دعوتهم ، وظلت الفردية الاقتصادية منتصرة فى حمى النظام السياسى الذى يحمى الحرية الفردية ولا يعبأ بما سواها . فلما آذن القرن التاسع عشر أن يولى بدأ التفكير الاشتراكى تقوى قوائمه ، وبدأت صيحات الدعاة تدوى فى آذان الشعوب ، وبدأت الطبقات العاملة تشعر بأن لها حقوقاً ، وبأنها

تستطيع من طريق التكتل أن تبلغ هذه الحقوق ، وبدأ المفكرون الاشتراكيون ينعون على النظام الفردى أنه فى إيمانه بالفرد ينسى الجماعة وينسى الشعب والأمة ، وينادون بأن العدالة الاجتماعية تقتضى توزيع الثمرات التى تهبها الطبيعة للناس جزاء كدهم وعملهم توزيعاً أدنى إلى العدل . وتأثرت الحياة فى بلاد أوربا المختلفة بهذه الحركة الفكرية . فقامت فى ألمانيا الاشتراكية الديمقراطية وقامت فى فرنسا ألوان مختلفة من الاشتراكية ، وبدأ حزب العمال يقوم فى إنجلترا . وانتشرت تعاليم « تولستوى » الاشتراكية فى روسيا .

ولست أشك فى أن هذه الحركة الفكرية كانت ذات أثر حاسم فى قيام الحرب العالمية الأولى . فقد شعر « غليوم الثانى » عاهل ألمانيا فى مستهل هذا القرن العشرين أن الشعب الألمانى فى حاجة إلى التوسع لتنال الطبقات العاملة فيه من ثمرات كدها ما يرفع مستوى العيش بالنسبة لها ، فإذا لم تجد الوسيلة لذلك عنف النضال بينها وبين أرباب رأس المال فهدد ذلك كيان الدولة بالاضطراب والثورة . أما إذا هى وجدت الوسيلة لذلك ولو خارج الحدود الألمانية فقد وجدت الطمأنينة السبيل إلى البلاد . ولما كانت فرنسا وإنجلترا متحكمتين يومئذ فى المستعمرات الأفريقية والآسيوية ، ولم يكن يسيراً أن تنزل أيهما عن شىء منها ، فقد أدت هذه الحالة إلى إعلان الحرب العالمية الأولى وإلى اكتواء العالم بنارها .

كانت روسيا فى ذلك الحين تضطرب بالحركة الفكرية التى دعا إليها تولستوى ، وكانت القيصرية الروسية تقمع هذه الحركة بكل ما أوتيت من قوة ، وتنفى القائمين بها فى سيبيريا ، أو تضطرهم إلى الفرار خارج حدودها . وكان « لينين » وطائفة معه من مفكرى الروس من هؤلاء الذين نفوا أنفسهم . فلما اندحرت الجيوش الروسية أمام ألمانيا سنة ١٩١٧ ،

واضطرت القيصرية الروسية أن تعقد صلح برست لتوفسك ، شعر « لينين » وزملاؤه بأن الفرصة سانحة لإقامة النظام الشيوعى على النحو الذى صوره « كارل ماركس » ، فعادوا إلى روسيا وأشعلوا الثورة فيها وانتصروا وأقاموا النظام السوفييى الذى تطور شيئا فشيئاً إلى وضعه الحاضر .

ولم تكن روسيا وحدها التى تأثرت بهذه الحركات الفكرية نتيجة للحرب العالمية الأولى ، بل تأثرت فرنسا وتأثرت إيطاليا وتأثرت إنجلترا بها ، مع أنها جميعاً خرجت ظافرة من تلك الحرب . وحسبى أن أذكر حزب العمال الذى لم يكن يمثله فى البرلمان البريطانى إلى أن بدأت تلك الحرب غير أفراد لا يبلغون عدد أصابع اليدين ، ثم قوى حتى أصبح يهدد حزب المحافظين ، وحتى طغى على حزب الأحرار البريطانى طغياناً سار به إلى مصيره الحاضر .

وكان طبيعياً أن تترتب هذه النتائج على الحرب العالمية الأولى . فقد شعرت الجماهير الفقيرة التى اشتركت فى الحرب فى تلك البلاد كلها أنها تحمل من عبء الدفاع عن الوطن ما يزيد على ما تحمله طائفة أرباب المال أضعافاً مضاعفة ، فمن الطبيعى أن تطمع فى حظ من العدل أوفر مما كان لها حين كان العالم يرتع فى بحبوحة السلام ، وحين كان منطق النظرية الفردية معتمداً على ما يسميه قانون الطبيعة القاسى للأجور ، متناسياً أن لهؤلاء الذين يتناولون تلك الأجور من القوة المادية ما يعيش أبناء الوطن جميعاً من كدهم ، وما يجعلهم إذا امتنعوا عن العمل يشلون الحركة الاقتصادية ويعرضون النظام القومى كله لنتائج خطيرة .

أما وقد ذكرت ما كان للحركات الفكرية فى الميدان الروحى ، وفى الميدان الاقتصادى ، من أثر فى الحياة العامة ، فيجب ألا ننسى ما كان لهذه الحركات من أثر فى الميدان الاجتماعى . لقد أشرت إلى إلغاء

الرق بعد أن ظل نظاماً قائماً فى العالم ألوف السنين ، وإلى أن إلغاء هذا الرق إنما جاء أثراً للحركة الفكرية التى أدت إلى تقرير حقوق الإنسان ، وفى مقدمتها أن الناس يولدون أحراراً ، ويجب أن يظلوا حياتهم أحراراً . لكن الفردية الاقتصادية التى حصرت عمل الحكومات فى حدود المحافظة على الأمن ليستمتع كل فرد بحريته مادام لا يعتدى على الحرية المادية لغيره أدت إلى بقاء الطبقات الكادحة ، وهى السواد الأعظم ، فى غيابات الجهل المطبق . فلما بدأت الدعوة للعدالة الاجتماعية ، وبدأت الحركة الفكرية تطالب بأن يتسلح الأفراد جميعاً للحياة بأسباب المعرفة التى تمكنهم من أن يشقوا طريقهم فى الحياة الكريمة ، اعترفت الأمم المتقدمة بحق الأفراد جميعاً فى أن ينالوا حظًّا من التعليم يؤهلهم لإدراك ما فى الحياة من معانى الحق والخير والجمال ، بذلك نهضت الشعوب التى تقرر فيها هذا الحق وقتئذ نهضة قوية ، وبدأ تضامنها يقوى وبدأت تؤدى للحياة الإنسانية فى أمم الأرض المختلفة خدمات جليلة .

وكان من أثر هذه الحركة الفكرية فى الميدان الاجتماعى أن تطور موقف المرأة من الحياة القومية أضعاف ما تطور موقف الرجل منها . لقد كانت المرأة معتبرة فى العصور الوسطى وعاء للتناسل ومتاعاً للرجل وخادماً لذريته . فلما تقررت الحرية الفردية كان نصيب الرجال منها أوفر أضعافاً من نصيب النساء ، لأن الرجال هم الذين قاموا بالثورة على الماضى . لكن تقدم الزمن أتاح للمرأة أن تكسب حقوقاً انتهت إلى اعتراف ميثاق الأمم المتحدة بالمساواة بين الرجال والنساء فى الحقوق كلها . وإذا كان هذا الاعتراف لم يطبق إلى اليوم فى بلاد كثيرة فإن مجرد الإقرار به يعتبر خطوة فسيحة نحو تحقيقه . ربما لا ينتهى ذلك إلى أن تقوم المرأة بالأعمال التى

يقوم بها الرجل ، كما أنه محال على الرجل أن يقوم بكثير من الأعمال التى أتاحت الطبيعة للمرأة أن تقوم بها . لكن الذى لا مرية فيه أن هذا الاعتراف فتح أمام المرأة ميادين جديدة فى الحياة . والمرأة وحدها هى القديرة على تكييف الصورة التى تشغل بها هذه الميادين .

وكلنا يعلم أن كل واحدة من هذه الحركات الفكرية وما إليها من مثلها فى ميادين العلم والفن وغيرها لم تكن تنتج آثارها فى يسر على أثر قيامها ، بل كانت تلقى من المقاومة ما يردها على أعقابها فى كثير من الأحيان لتتحضر من بعد فتقوم بهجوم جديد تنال فيه حظًّا كبيراً أو حظًّا ضئيلا من النجاح . وكذلك أشرت إلى مقاومة القيصرية الروسية للأفكار التحريرية حتى كانت هزيمة روسيا فى الحرب العالمية الأولى وانتقال روسيا السريع من الحكم المطلق إلى الحكم المنشفيكى ثم إلى الحكم البلشفى . وهذا طبيعى ، وإذا كان انتقال الفرد من الطفولة إلى الصبا إلى المراهقة إلى الشباب يقتضى عشرين سنة أو نحوها فليس كثيراً أن يحتاج انتقال الأمة من طور إلى طور إلى أضعاف هذا الزمن ، إلا أن تكون الأمة من الحيوية بحيث تستطيع أن تسرع الخطى وأن تبلغ فى أعوام ما لا يبلغه غيرها فى عشرات الأعوام .

وأنتم تعلمون كما أعلم أن هذه الحركات الفكرية تتفاعل ويتأثر بعضها ببعض ويحدث تفاعلها فى العالم كله أثراً يختلف قوة وضعفاً باختلاف قيمتها ومصدرها . لما أدى التفكير العلمى إلى ازدهار الصناعة فى الدول الأوربية فزادت منتجاتها على الحاجات المحلية ، فكر ساسة هذه الدول فى الوسيلة لتصريف هذه المنتجات وإيجاد أسواق لها . وأدى بهم هذا التفكير إلى التماس الأسواق فى الأمم المتخلفة عنهم فى ميدان الصناعة ،

ثم أدى ذلك إلى استعمار هذه الدول . ألم تكن شركة الهند الشرقية شركة بريطانية غايتها تصريف المنتجات الصناعية البريطانية فى الهند ، ثم أصبحت هذه الشركة حكومة داخل الحكومة أو الحكومات الهندية ، ثم أصبح الجيش الإنجليزى يؤازرها ، ثم انتهت مؤازرته إلى استعمار إنجلترا للهند ، ثم كان ذلك مقدمة السياسة الاستعمارية الأوربية للأمم الآسيوية والأفريقية . وكذلك تمخضت الحركة الفكرية فى الميدان العلمى عن حركة صناعية انقلبت إلى حركة استعمارية خضع العالم لسلطانها طوال القرنين الماضيين .

ورب ضارة نافعة كما يقولون ، فقد تمخضت الحركة الاستعمارية عن الحربين العالميتين الأخيرتين اللتين أنزلتا بالعالم من الكوارث ما لم يشهد له العالم مثيلاً من قبل ، ثم تمخضت هاتان الحربان عن يقظة الشعوب المستعمرة ، يقظة أدت بالكثير منها إلى إلقاء نير الاستعمار ، وإلى النهوض تريد الحياة الحرة الكريمة ، وتريد مشاركة أمم الأرض جميعاً فى النهوض بالإنسانية كلها لتسرع الخطى فى طريق التقدم نحو الكمال .

لعل ثَمَ من يسأل : ما بالى لم أشر من الحركات الفكرية التى قامت فى هذا الشرق إلا إلى الحركات الروحية التى حدثت فى عهد الأنبياء عليهم السلام ، ثم التمست الأمثال للحركات الفكرية فى القرون الأخيرة لما حدث فى أوربا . ولا أحسب جوابى على هذا السؤال خافياً . فقد خيم الركود وما يجره الركود فى أذياله من الجهل والضعف والفساد على هذا الشرق فى القرون الأخيرة ، منذ حكم السلاطين العثمانيون حكم استبداد وطغيان . فلم تؤثر فيها حركة فكرية قوية الأثر تستطيع أن تهتك حجاب هذا الركود وتطرد أمام تيارها الجارف ما تخلف عنه من جراثيم التقاليد الضارة والآراء

السقيمة والفساد المذل . ولست أرى إذ أستعيد أمام ذاكرتى ما حدث فى منطقتنا هذه من الحركات الفكرية إلا ما قام به السيد « جمال الدين الأفغانى » والشيخ « محمد عبده » فى الميدان الدينى ، وما قام به « قاسم أمين » فى الميدان الاجتماعى . أما ما سوى ذلك مما حدث فلا يعدو أن يكون حركات مستعارة من الغرب لقيت من المقاومة ما حطمها ، لأن سياسة الاستعمار الغربى كانت حريصة على أن تتحطم . ولولا هذا الحرص لكان لهذه الحركات من الأثر ما يفيد فى بناء أمم الشرق أجل فائدة .

أتريدون دليلا على هذا الحرص ؟ إليكم مثلين حدثا فى مصر ولعل لهما فى غير مصر نظائر : قامت فى مصر فى أوائل هذا القرن العشرين حركة ترمى إلى إنشاء جامعة علمية تنقل إلى مصر ثمرات العلم من مختلف بلاد العالم ، وتمهد السبيل لحركة فكرية فى الميدان العلمى تفيد مصر وتفيد أمم الشرق العربى كله . ولم يتجه الدعاة إلى هذه الفكرة للحكومة لأنهم كانوا على يقين من أن الحكومة لن تستجيب لهم ، بل لجأوا إلى السراة وكبار الأغنياء يطلبون إليهم التبرع لهذا المشروع الجليل . وكان لورد « كرومر » معتمد إنجلترا فى مصر وصاحب الكلمة النافذة فيها يومئذ ، وكان يرى أن التعليم العالى فى هذه البلاد لا يجوز أن يزيد على تزويد الشبان بالعلوم الكافية ليكونوا أدوات طيعة فى يد الحكومة إذا هم تولوا وظائفها . لهذا أوحى إلى رجال الحكومة جميعاً فطالبوا الأعيان بإنشاء « كتاتيب » لتعليم القراءة والكتابة وبالتبرع لها حتى يصرفهم عن التبرع لمشروع الجامعة . وكان لهذا العمل أثره . صحيح أن الجامعة قامت رغم ذلك . « لكن مواردها المحدودة حالت دون التوسع فيها بالقدر الذى كان يقصد الدعاة إليه أن يبلغوه ، وكذلك بقيت الفكرة تتعثر حتى استقلت

مصر . ثم ضمت الحكومة كلية الآداب الأهلية التى أنشئت نواة للجامعة الأهلية وأقامت سائر كليات الجامعة .

أما المثل الثانى فتفكير بعض المصريين فى أوائل هذا القرن كذلك فى إقامة صناعة النسيج فى مصر ، هذه الصناعة المزدهرة اليوم ، والتى تكفى مصر حاجاتها الشعبية وتصدر منها إلى الخارج ما فاض عن هذه الحاجات . أتعرفون ما قوبل به ذلك التفكير الأول من لدن لورد «كرومر» . قيل يومئذ إن صناعة النسيج لا تصلح فى مصر لأن جو مصر لا يساعد على قيام هذه الصناعة . فلما أراد بعضهم أن يجازف مع ذلك قيل إن هذه الصناعة إذا قامت وجب أن تدفع مقابل الرسوم الجمركية رسوم إنتاج حتى لا تنافس غيرها . هذا بدلا من مدّ يد المعونة لصناعة يراد أن تنشأ على نحو ما يحدث فى بلاد العالم كلها .

•

كانت سياسة الاستعمار الغربى إذن حريصة على تحطيم ما تخشاه من أثر الحركات الفكرية ، ولو كانت هذه الحركات مستمدة من الدول المستعمرة نفسها . وقد أدى هذا التفكير الاستعمارى إلى نتيجته الطبيعية المحتومة . زاد المرارة بين الأمم الحاكمة والأمم المحكومة على النحو الذى زاد به المرارة بين الأرقاء والسادة فى العصور الوسطى ، ودفع إلى نفوس الأمم المحكومة بأن لها من الحق فى الحياة وفى الحرية ما للأمم الحاكمة . ولذلك قامت كلها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، تناضل فى سبيل حريتها واستقلالها . وهذا النضال هو الذى أدى بالسياسة البريطانية من ذلك الحين لتقدر المصير ولتعترف لطائفة من الأمم التى كانت تستعمرها بحقها فى الحياة الحرة ، وأن تكون فى نفس الوقت جزءاً من الكمنولث

البريطاني . لكن هذا التفكير اقتصر يومئذ على بريطانيا ، واقتصر فى بريطانيا على الشعوب القادرة على أن تأخذ حقها بيدها ، سواء من طريق القوة والاقتدار ، أو من طريق المقاومة السلبية والعصيان المدنى . فأما الأمم التى استطاعت بريطانيا أن تناهض فيها النزعة الاستقلالية فقد استبقتها فى مركز المستعمرات ، وتركتها لذلك تقاوم بكل وسائلها مذلة الخضوع لحكم الغير على أنه رق للأمم أشد إهانة من رق الأفراد .

ليس من حق ، وقد سردت من الحركات الفكرية ما اتصل بالشئون الروحية ، وبالشئون العلمية . وبالشئون الاقتصادية . وببعض الشئون السياسية ، أن أغفل من هذه الحركات ما كان عظيم الأثر فى تهذيب النفس الإنسانية . أقصد الحركات الفلسفية ، والحركات الأدبية ، والحركات الفنية . فما قام من حركات فكرية فى هذه الميادين قد صقل الحياة الإنسانية وجعلها أعذب مذاقاً ، وجعل متاعنا بها أبقى وأرقى ، وإن عنفت فى كثير من الأحيان رقته ، وإن بلغ رقيه فى بعض الأحيان حداً أذهل عقولا لا تستطيع متابعة هذا الرقى والسمو إلى عليا درجاته .

والواقع أن متاعنا الحق بالحياة أكثر اتصالا بهذه الألوان من الحركات الفكرية منه بسائرها ، وإن كنا فى حاجة إلى المتاع بنتائج الحركات الفكرية فى الشئون التى سبق لى ذكرها لنستطيع تذوق هذه الألوان الدقيقة الرقيقة السامية من التفكير الفلسفى والأدبى والفنى .

وإنى لأحاول أن أتصور ما تكونه الحياة لولا الفلاسفة والشعراء والكتاب وأرباب الفنون الجميلة من موسيقيين ومصورين ومن إليهم ، فأشعر أنا لولاهم لكنا أقرب إلى حالة الهمجية الأولى وإن بلغنا من السمو الروحى ومن الحرية السياسية ومن الرخاء الاقتصادى أعظم مبلغ . تصوروا

معى حالَ البلاد العربية فى نهضتها الروحية القوية التى أعقبت رسالة النبى العربى عليه السلام ، لو لم يكن فيها هؤلاء الشعراء والأدباء الذين أشاعوا فى جوها من رقيق العواطف وجميل الصور والمعانى مالا نزال نتغنى به إلى اليوم . ولقد سئل أحد مفكرى الإنجليز يوماً : ماأعظم ما تعتز به إنجلترا ؟ فكان جوابه : « شيكسبير » والإمبراطورية . وهل بقى من أثر الإمبراطورية الرومانية شىء أجل خلوداً على الدهر من آيات « مارك أوريل » ولوحات « رفائيل » و « مكلينج » ، ومن موسيقى « ڤردى » وأضرابه ، وهل تعتز البلاد الجرمانية بشىء ماتعتز بأسماء « بتهوفن » و « موزار » و « فاجنر » ممن لا تزال ألحانهم الموسيقية الشجية تشنف آذان العالم ، ومن أدب « جيتى » وفلسفة « نيتشه » ممن لا تزال كتبهم تهز العقول والعواطف . أفأستطيع وهذه هى الحال أن أغفل فى حديثى إليكم هذه الحركات الفكرية الإنسانية البالغة غاية السمو .

إننى من أشد الناس إيماناً بأن حضارة الأمم لا تقاس بقوتها الحربية ولا بتقدمها الصناعى بمقدار ما تقاس برقيها فى العلوم والآداب والفنون ، وبأن القوة الحربية والتقدم المادى إنما يستمدان من سليقتنا الحيوانية فى المحافظة على الحياة ، بينا يصور الرقى فى العلوم والآداب والفنون حيويتنا الإنسانية التى لا شريك فيها للإنسان من سائر الحيوان . فهذه العلوم والآداب والفنون تخاطب العقل والعاطفة والشعور وتدفعها إلى السمو فى مدارج البشرية العليا حيث يتجلى النور الإلهى فى بهائه وسنائه وضاء لألاء ليقربنا من مراتب الكمال ويرينا نور الحق فى جلال روعته التى تأخذ بالقلوب والأبصار .

والأمم التى ازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون هى التى استطاعت

أن تضع فى بناء الإنسانية كلها ، لا فى بنائها هى وحدها ، لبنات متينة أقام البناء الإنسانى فيها فى حقب التاريخ كلها على أساس متين .

وإنه لمن حسن الطالع ، أن تكون الحركات الفكرية فى ميادين العلوم والآداب والفنون قد بلغت فى عصرنا الحاضر إلى حيث قربت بين الأمم ووصلت بينها بأوثق الوشائج . لما حضرت إلى مدينتكم الشهباء من إحدى وعشرين سنة حضرت إليها من لبنان ، ومع ذلك اقتضانى الحضور ساعات طوالا اضطررت معها إلى المبيت فى أثناء الطريق بطرابلس وباللاذقية. واليوم أحضر إليكم من مصر فى ثلاث ساعات بالطائرة . ولولا إصرار صديقى سامى الكيالى لخاطبتكم عن طريق الإذاعة وأنا مقيم بمصر ، ولاستمعتم إلىَّ كما تستمعون اليوم ، وكما استمع أهلى وأصدقائى إلى إذاعة لى من الهند حيث كنت فى يناير الماضى . وأنتم تسمعون حين مقامكم بمنازلكم إذاعات أوربا وأمريكا تقفون منها على أنبائهما وعلى علومهما وآدابهما وفنونهما . وأحسبنا عما قريب سنشهد عن طريق التلفزيون أولئك الذين يحدثوننا أو يشنفون بأغانيهم أو بموسيقاهم آذاننا ، وإن بعدوا عنا مئات الأميال بل ألوفها . ومن يدرى ، فلعل العلم يزيد العالم قرباً بعضه من بعض فلا يكتفى بإلغاء المسافات التى تفصل بين الأمكنة ، بل يتغلب كذلك على الزمان فيجعلنا قادرين على أن نعيش مع أجدادنا ومع حفدتنا . ويومئذ تتحقق وحـــدة الوجود تحققاً ماديًّا ، ولا تكون فكرة عقلية وكفى .

لا أرانى بحاجة إلى أن أقص عليكم ما كان لهذه الحركات الفكرية من أثر فى بناء الأمم التى قامت فيها بعد الذى قدمته فى أول هذا الحديث . ولا يخفى على أحد ما كان للحركات الفكرية السياسية من أثر فى فرنسا حين

قامت الثورة الفرنسية الكبرى ، وفى روسيا حين زالت القيصرية لتحل محلها البلشفية ، وفى إنجلترا حين قامت ثورتها الكبرى فى القرن السابع عشر فأكرهت ملوكها على الاعتراف بحقوق الشعب ، وفى أمريكا حين قام « واشنطن » على رأس المحاربين فى سبيل الاستقلال ، وفى الهند حين تولى « غاندى » وأعوانه قيادة حركة العصيان المدنى وعدم التعاون فى غير عنف ، وفى غير هذه من الأمم الغربية والشرقية التى ناضلت فى سبيل الحرية الفردية أو الحرية القومية . كما لا يخفى على أحد ما كان للحركات الفكرية الاقتصادية والصناعية من أثر فى رخاء الأمم وفى توزيع الثمرات توزيعاً يتفق مع موجب العدالة الاجتماعية . ونحن نعرف كيف ارتقت الحركات الفكرية فى ميادين العلم والأدب والفنون بالشعوب التى ازدهرت فيها . وفضلاً عن ذلك فإن الحركات الفكرية يأخذ بعضها برقاب بعض ، فإذا قامت حركة روحية أو حركة علمية عاصرتها وسايرتها حركة سياسية وحركة اقتصادية وحركة علمية أو أدبية أو فنية . ذلك بأن هذه الحركات الفكرية تهز الأمم فتوقظها من سباتها ، فإذا استيقظت نشطت كل عناصرها واندفعت تستبق تريد كل واحدة منها أن تبلغ الكمال .

ومهما تقف العوائق فى سبيل هذه الحركات المتدافعة فإنها تنتهى بالتغلب على كل عائق ، شأنها شأن الماء إن حبسته تجمع حتى يحطم السد الذى يحول دون اندفاعه ، أو يطفو فوق هذا السد ثم يتخطاه غير عابئ به .

كثيراً ما قامت هذه الحركات الفكرية حين كانت القيود مفروضة على المفكرين فى التعبير عن أفكارهم . فقبيل الثورة الفرنسية بقليل كان بعض المفكرين والكتاب فى فرنسا لا يستطيعون أن ينشروا كتبهم

فى البلاد الفرنسية ، فكانوا يضطرون للذهاب إلى هولاندا لطبعها هناك . وفيما قبل ذلك لقى المفكرون والعلماء الذين قالوا بكروية الأرض ألواناً من الإرهاق قل أن يحتملها غيرهم .

وسجلات التاريخ حافلة بالأدلة على أن الحركات الفكرية لا يمكن حبسها ، فإن هى حبست زمناً فلتخرج بعده من محبسها أعظم أيداً وأقوى سلطاناً ، وليكون لها من الأثر المحسن فى حياة الأمة وفى بنائها ما يسلك الذين حبسوها من قبل فى سلك الطغاة والأثمة الذين يذكرهم التاريخ بأسوأ ما يذكر به إنسان .

لهذا اقتنعت الأمم المتحضرة كلها بأن الحرية الفكرية وحرية التعبير هى أقدس ما يجب الدفاع عنه . ولعل قوة الحركات الفكرية على تحطيم كل عائق يقف فى سبيلها لم تكن الدافع الوحيد لهذا الاقتناع الذى بلغ حد الإيمان . بل لعل ما كان لهذه الحركات من أثر فى رقى الإنسانية إلى مدارج الحضارة قد كان أبلغ حجة فى هذا الاقتناع وهذا الإيمان . فقد تبينت هذه الأمم أن تاريخ التقدم الإنسانى هو تاريخ هذه الحركات الفكرية ، وأن حرية التفكير والتعبير هما اللذان كفلا لهذه الحركات أن تزدهر وتقوى ، وكفلا لذلك عزة الأمم وسعادتها ، فأيقنت بأن كل قيد من تشريع أو من بطش أو إرهاب يقف فى سبيل هذه الحرية يضر بالأمة أفحش الضرر ، ولذلك جعلت لها من القدسية فى دساتيرها وقوانينها ما يرد عنها كل غائلة ، ويدفع عنها كل عادية ، لتؤتى من الثمرات ما يدفع الإنسانية كلها نحو الكمال ، وهو غايتنا جميعاً ، وغاية كل من يدرك المعنى الصحيح لكلمة الإنسانية .

لقد طوفت بكم فى آفاق شتى من تاريخ الحركات الفكرية فى العالم ،

ولم أقف مع ذلك إلا لماماً عند كل واحدة منها . فاعذروني إن كنت قد أطلت عليكم أو أمللتكم . وغاية ما أرجو ، أن يكون لنا ، نحن أبناء هذا الشرق ، عظة وعبرة من هذا التاريخ . فمستقبل الإنسانية كلها ، لا مستقبلنا وحدنا ، يتطلع اليوم إلينا يريد أن يعرف أيان اتجاهنا . ومن لم يعرف الماضي ليعتبر به لم يعرف كيف يصور طريقه للمستقبل . وحاشا أن يكون ذلك شأننا .

* * *

إذا رجعت إلى نهضة الشرق من بضع عشرات من السنين ، وجدت مؤلفات ، ووجدت نزعة إلى حرية الفكر ، لكنك لا تجدها صريحة صراحة النهضة الحاضرة ، ولن تجدها صادرة عن مثل الإيمان العميق التي ترتكز النهضة الحاضرة عليه . وهذه ظاهرة لها معناها ولها أثرها . فمعناها أنه إذا كان للقديم مكانته واحترامه ، فإنه قد فسد فساداً أصبح لا يمكن معه البناء فوقه ، بل لا بد من بناء جديد . ولإمكان هذا البناء الجديد يجب ألا يكون القديم غلاً في أعناق العقول وحجر عثرة في سبيل التفكير . إذن فقد ملت مصر ومل الشرق الإقامة في الأطلال الخربة المتخلفة عن الماضي ، وانطلقا يبحثان جميعاً عن حضارة المستقبل . . وقد سئمت مصر وسئم الشرق حكم الجامدين من عباد هذه الأطلال الذين ينعبون من خلالها ، كما تنعب حشرات الأشجار التي تنمو في المقابر . وقد اعتزمت مصر واعتزم الشرق إقامة حضارة جديدة تكون بعثاً لهما بعد هذه الرقدة الطويلة التي رقداها منذ القرن الخامس عشر .

هذه الدلالة الواضحة لتلك المظاهر التي أشرنا إليها موجودة في غير الكتب وفي غير المجلات والصحف ، هي موجودة في هذه النهضة العظيمة

التى نهضتها مصر ونهضها الشرق فى مختلف الميادين .

وهذا البعث الذى تدل عليه هذه الدلائل لا يقف عند طائفة المستنيرين من أهل الشرق ، بل هو قد عم الطوائف جميعاً . وبحسبك أن تنظر إلى عباد الماضى أنفسهم لترى ذلك واضحاً فى تصرفاتهم . فهم لا يسلكون أبناءهم سبيلهم ، بل يعدلون بهم إلى السبيل الذى تسير فيه النهضة الحاضرة ويوجهونهم نحو هذه الوجهة التى يزعم بعضهم أنه يحاربها . ولو أنه كان مؤمناً حقًّا بما يقول ، ولم يكن دفاعه مجرد تمويه يستر به عجزه وضعفه لربى أولاده تربيته وسلكهم فى سبيله . أما أن يوجههم فى السبيل الأخرى ، وهو يعلم تمام العلم أنهم سينتهون إلى محاربة مذهبه ، وإلى تقويض الأطلال التى ينعب هو من خلالها ، ثم يزعم بعد ذلك أن هذه الأطلال هى السياج الحامى للجماعة ، فذلك هو الرياء مع النفس ومع الناس رياء لا يتفق لرجل تعمر قلبه ذرة من الإيمان برأيه .

ومهما يقل هؤلاء إنهم إنما يفعلون ما يفعلون من ذلك اندفاعاً مع التيار ، أو لكفالة خير أسباب العيش لأبنائهم ، فإن قولهم مردود عليهم . بل فيه ما يدل على أنهم أصبحوا زوائد متخلفة لا حاجة بالناس إليها . ذلك أن التيار إذا جرف ، وكنت أنت مؤمناً حقًّا وعن عقيدة وإيمان بأنه تيار ضار ، فأول واجب عليك أن تقاومه بكل ما لديك من وسائل ، وألا تقدم له من الأسباب ما يزيده قوة واندفاعاً . خير أسباب العيش ليس وحده سبباً كافياً ليجازف الرجل بأبنائه وبالأعزة عليه فى سبيل يعتقد أنه أذى وشر . فليس بمعقول مطلقاً أنك إذا رأيت السرقة أو النصب أو غيرهما من الوسائل الدون رائجة فى بلد ، وتكسب المتسم بها من أسباب العيش مالا يكسب غيره ، زججت بأبنائك ومن تعول فى غمار هذه الطوائف

لتكفل لهم خير أسباب العيش . .فالحقيقة إذن أن هؤلاء سكان الأطلال الخربة ضعف إيمانهم وتحطمت عقائدهم بأن ما ينصحون الناس به هو الخير ، وهم لذلك لا يبتغونه لأبنائهم . ولو أنهم قد بقى لهم من مرونة الذهن ما يمكنهم من تغيير عقلياتهم وتحوير أذهانهم لما ترددوا لحظة ، ولانقلبوا إلى هذا الجانب الذى يعمل الكل فيه لتوطيد أسباب بعث الحضارة فى الشرق وتدعيمها .

ثم إن هذا البعث قد تناول طوائف الأمة غير المستنيرة بمقدار ما تناول طوائف الأمة المستنيرة إن لم يكن بمقدار أعظم وأقوى . وهؤلاء الذين هم أشد الطبقات فقراً يقتطعون من أسباب قوتهم للاندماج فى هذه النهضة بأنفسهم إن استطاعوا ، وبأبنائهم إن لم تمكنهم مشاغل العيش والحياة . فلم تفتح مدرسة ليلية فى قرية من القرى حتى اكتظت بالفلاحين المقبلين على التعليم فيها . وقد ضاقت مدارس الأولاد والبنات بمن فيها فى المدائن والقرى . وطـاقة الحكومة والهيئات لإنشاء موائل للعلم أقصر من إقبال الناس على هذه الموائل بكثير . وهذا الإقبال هو فى الواقع إقبال على الحضارة الجديدة التى يعمل العاملون لبعثها فى الشرق بكل ما أوتوا من قوة .

وهذا السعى الحثيث فى سبيل حرية الفكر يكفل لهذا البعث أن يؤتى خير الثمرات وينتج أصلح النتائج ؛ ذلك بأن كل حضارة يرجى تجديدها لا يمكن أن تتجدد بمجرد النقل عن حضارة أخرى ، كما أنها لا يستطاع بعثها بالوقوف عند الأساليب القديمة التى بليت وأصبحت لا تحتمل مطالب الجماعة الجديدة . وقد كان الناس إلى زمن يتحدثون فى سبيل تحضير الشرق وبعثه عن الأخذ من الحضارة الغربية بما يصلح

لشرق وترك مالا يصلح له . وما يصلح وما لا يصلح تعبير مرن مطاط يمكن لكل فرد أن يختلف مع الفرد الآخر فيه . وما دامت الجماعة ضعيفة فهى تضطرب كل يوم إلى ناحية ما يقول به فرد من الأفراد . ولذلك نسى الناس هذه الفكرة القديمة واتجهوا إلى ناحية أخرى تظهر جليًّا فى مناحى بحث الباحثين وتفكير المفكرين . هذه الفكرة الجديدة هى أن كل حضارة لا تتفق وطبائع العمران فى الناحية التى تقوم فيها الحضارة مقضى عليها بالفشل لا محالة . وأنت إذا استطعت أن تقر فى إنجلترا مثلا صورة من صور الحضارة أخاذة بالنظر واللب فقد يستحيل عليك أن تقر هذه الصورة فى مصر أو فى الشام أو العراق ، لأن طبائع العمران فى هذه النواحى تختلف اختلافاً جوهرياً عنها فى إنجلترا . وإذن يجب أن تتفق الحضارة المراد بعثها مع هذه الطبائع التى شكلت حضارات هذه الممالك والأمم فى الماضى . وإذن فكل حضارة يراد توطيدها يجب أن تتصل بالماضى اتصالا وثيقاً ، ويجب أن يكون ما يضم إليها من جديد قابلا لأن يظهر فيها ولأن يثمر .

ووسيلة معرفة هذه الطبائع تحرير الأفكار سلفا قبل البحث والنظر فيما أمامها . فهذه الطبائع ليست غريبة عنا ، بل هى طبائعنا ، وهى التى شكلت صبانا ، وهى التى يحتمى وراءها سكان أطلال الماضى . فإذا نحن نظرنا إليها نظرة مؤمن بها لم نستطع أن نجردها مما أحاط بها من أساطيرها ووثنياتها . فأما إن حررنا أفكارنا بحيث صارت صالحة لبحثها والتنقيب فيها ومعرفة مبلغها عند صفائها من الشوائب من التأثير فى الجماعات التى تخضع لها ، كان لنا بعد ذلك أن ننفى عنها الأساطير والوثنيات التى علقت بها وأن نقيم على أساسها صافية صريحة صرح الحضارة الجديدة التى نرجو

بعثها، وهذه الطبائع تصبح هى المنبع العذب الخصيب الذى تنبعث منه الحضارة .

والجهاد فى سبيل تحرير الفكر جهاد مضن فى كل العصور التى تسبق التحرير بالفعل . أليس هو إزالة هذه الأستار الكثيفة المعبودة ، أستار الجهل والضعف والرياء . أليس هو حرب الجامدين فى أرزاقهم وأقواتهم حرباً يستميتون أثناءها فى سبيل الدفاع عن أنفسهم . إن ما أورده صاحبا كتابى حرية الفكر والجمعيات السرية من تواريخ الثورات والمجازر والمحاكمات والتعذيب ، وما صوراه من ألوف ماتت ضحايا التعصب الأعمى ، ومن رجال ذوى أفكار سامية سيقوا إلى العذاب وإلى الموت مما تشيب من هوله الرؤوس ، لكنه مع ذلك الدية المحتومة للجهاد فى سبيل تحرير الفكر . ولقد يكون من حسن حظ الشرق اليوم أن سادت فيه الأفكار الحرة فى العصور الأخيرة رويداً رويداً ، وإن أصبح النضال فى سبيل هذه الحرية كما كان فى العصور القديمة وإن كان مع ذلك نضالا قاسياً بما جر من حرب على الرزق والحرية . لكن هذا الجهاد قد أثمر إلى اليوم ثمرات توشك أن تجعلنا نعتقد أن أنصار الحرية أصبحوا على أبواب الفوز إن لم يكن الفوز قد تم لهم بالفعل . كما أن النهضة التى وصفنا والتى عمت كل طوائف أمم الشرق وسرت عدواها إلى أشد الناس جموداً كفيلة بأن تقضى على كل محاولة لمحاربة حرية الفكر .

٢ — الحرب وحركة التجديد فى الشرق

عجيب ما أحدثت الحرب من انقلاب ! فبينا نرى الذين أثاروها من أهل أوربا قد اكتووا بنارها وأحرقهم لظاها ، فأفسد عليهم ما كانوا

ينعمون به فى جنة الحياة ، واضطرهم اليوم إلى جهاد أى جهاد لاستعادة هذا النعيم الذاهب ، نرى الذين كان يرتجيهم أهل أوربا مغنماً للحرب من أمم الشرق قد نشطوا من خمول وتحركوا من جمود ، وتطلعوا من مراقد كان يحسبها غيرهم مدافن الشرق الأبدية ، ينهضون إلى بعث يضارع بعث أوربا على أثر العصور الوسطى ، ويضارع بعث هذه الأمم الشرقية نفسها إثر قيام الإسلام . فكأنما كانت الحرب محاريث ومناجل دفعتها يد المقادير فى الغرب والشرق ، فكان أمامها فى الغرب حدائق وأعناب وجنات ذات عيون لم تلبث أمام هذه المناجل والمحاريث أن تجتث من الأرض وأن تقع على الجانبين ، فذبل منها ما ذبل وتداعى ماتداعى وبقى البعض وله بالأرض اتصال هو الذى يسمح بالرجاء اليوم فى استعادة النعيم الذاهب ، وكان أمامها فى الشرق أرض جامدة تلبدت فوقها حشائش وأعشاب جافة لم تلبث أمام مناجل القدر ومحاريثه أن تطايرت ، وأن شقت الأرض ، وأن فجرت فيها العيون فإذا قوة الإنبات والإثمار تنشط من جديد ، وإذا الجذور القديمة التى ضعفت عن أن تجد لها مخرجاً خلال جمود الأرض قد وجدت سبيلها إلى النور والهواء والحياة ، وإذا بذور وفروع جديدة من دوحات الغرب التى حطمت تطعم هذه البذور والفروع القديمة لتعود أنضر مما كانت ، ولتبعث الشرق إلى حياة المجد والعظمة كرة أخرى .

قلبت مناجل الحرب ومحاريثه الطبقة الجامدة من أرض الشرق ، هذه الطبقة التى تكونت خلالها عصور وعصور بفعل الظلم والإرهاق والاستبداد فحبست عن أهل الشرق نور الحياة وقبرتهم مقيدين فى أصفاد من الأوهام والأباطيل ، لا تنفذ إليهم من شمس الحياة الإنسانية حرارة تصهر الطبقة الجليدية فتذيبها فتطلق الأسرى من إسارهم . وخلال هذه

العصور والأجيال المتعاقبة ألف الشرقيون أغلالهم وما هم فيه من ظلمات حتى حسبوه الحياة والنعيم . ولم لا ؟ أليس كل شعاع يبرق خلال الظلمة الداجنة تعشى له الأبصار وتفزع منه ولا تألفه إلا إذا ثبت واطمأن فاطمأنت له ولم يكن يخرق حجب طبقات الظلم والاستبداد الكثيفة إلا بروق خاطفة تجيء فى فترات متباعدة فلا يكون من أثرها على المصفدين فى الأغلال إلا أن تبهر من غير أن تضيء . لذلك اطمأن الشرق إلى حجبه فركدت عواطف أهله وجمدت قرائحهم واضطرب حسهم ، بل فسد ما فيهم من الغرائز الحيوانية الأولى . فلما آن للحرب أن ترفع عنهم الطبقة المتحجرة من غير أن تطلقهم من أغلالهم . ثم لما ألفت عيونهم النور ونفوسهم الحياة هاجوا واضطربوا وثاروا ولا يزالون إلى اليوم فى ثورتهم وهياجهم .

وهذا أول البعث ومقدمة النور والحياة فى الشرق . وهذا بدء عود الشرق إلى مجده وعظمته . ولما كان الطغاة والمستبدون إنما أذلوا الشرق وسدلوا عليه حجاباً من الظلمة تحجر إلى الطبقة القاسية التى أشرنا إليها بمؤازرة طوائف أنصار الجمود فى التفكير والحس والعاطفة ، لذلك رأيت الثورة التى بدأت سياسية بحتة على أثر الحرب – لأنها كانت متأثرة بمطامع الذين أعلنوا الحرب وبما أعلنوا من مبادئ سياسية – رأيتها بعد أن ألف أهل الشرق النور الذى تكشفت عنه حجب الماضى ، تناولت هذا الجمود فى التفكير وفى الحس وفى العاطفة ، وجعلت من أنصاره خصماً يجب القضاء عليه ، أو إخضاعه ، كما يجب القضاء على المتحكمين السياسيين وإحلال مبدأ التضامن فى العلاقات الدولية مكان مبدأ الاستعمار والعسف . وليست الجهود التى توجه لمحاربة الجمود دون الجهود التى توجه لمحاربة الاستعمار والاستبداد ؛ ذلك بأن الجمود هو الذى مكن فى الماضى للمستبدين

وللمستعمرين ، وهو الذى يمد اليوم فى أمل من لا يزال له منهم أمل أن يحكم أمم الشرق بالسيف والنار أو بالخديعة والتفرقة . فإذا قضى على الجامدين ، أو إذا هم ذلوا وخضعوا ، رأى المتعسفون فى الحكم أن لم يبق لهم إلى العنف والعسف سبيل ؛ لأن الحرية الغالية تطغى على كل عنف وعسف ، فجلوا عن أماكنهم جلاء أخيراً ونزلوا عن عتيق مبادئهم ليعتنقوا مبدأ التعاون والتضامن فى سبيل الحرية والحق .

فما نراه اليوم من نضال بين القديم والحديث فى اللغة والأدب ، وما نراه من دعوة إلى التجديد فى العلم والفكر ، وما نلمسه من اندفاع إلى الحرية فى الحس والعاطفة وفى الرأى وإبدائه ، وما نشهده من محاولات جريئة للقضاء على كل آثار الجمود الماضى فى الصلات الاجتماعية كحجاب المرأة وكنظام الطوائف بين الرجال ، وهذه النزعة الطموح إلى ناحية الفن الجميل فى مختلف صوره — هذه المظاهر التى نراها للشرق فى طور نهضته ليست إلا آثار الثورة على جمود الماضى العتيق وعلى عسف الحاضر وما يؤيد هذا العسف من استبداد واستعمار .

وهذه النهضة وهذه الثورة لاشك بالغة غايتها ، محققة للشرق بعثاً مجيداً . ذلك بأن النفوس الشرقية التى كانت حبيسة فى ظلم الجمود وغيابات الظلم ، والتى ضعفت لذلك فيها أسباب العزيمة والنشاط ، قد شعرت بهذه الأسباب تعاودها مع النور الجديد كما رأت إبان الحرب وعلى أثرها أن هؤلاء الغربيين التى كانت تنظر لهم فيما مضى كأنهم آلهة الفكر والنظر والإبداع والاختراع لم يكونوا آلهة إلا لأنهم كانوا أحراراً ، وأن الشرق لم يعبدهم إلا لأن الجمود أفقده حريته . أما وقد تحطمت قيود الجمود فقد آن لأصفاد الاستعباد والاستعمار أن تتحطم هى الأخرى ، وآن للشرقيين أن يكونوا آلهة

كالغربيين أو أن يكون الغربيون أناساً كالشرقيين سواء بسواء ، والشرق يخطو إلى هذه الغاية بخطى الجبابرة ، لأنه وقد رأى ميادين العمل انفسحت أمامه ، ورأى عقله وذكاءه تحرراً ، لم يبق ما يعوقه عن العمل بكل ما أوتى فى العقل والعاطفة والحس وفى البدن أيضاً من قوة ونشاط . ومن عمل إستحق أجر عمله وحصل عليه ولن يسلبه منه سالب ما دام يعتزم الاحتفاظ به مستعداً لدفع من يريد العدوان عليه بكل ما أوتى من قوة بدنية وعقلية .

وهذه المرتبة السامية التى يخطو الشرق نحوها ولا تخامره ريبة فى قرب دركها هى التى تحفز من ألقت عليهم المقادير بعبء هذا البعث وتجعلهم يرون فى كل تضحية يتقدمون بها كسباً جديداً دونه كل كسب . أرأيت إلى هذا الذى يجاهد فى سبيل حرية الفكر كيف يحاربه الجامدون وكيف يعملون بكل ما أوتوا من قوة ليحرموه من رزق الحياة ، بل من الحياة نفسها ؟ أرأيت إليه يستهين بما يستطيع خصومه أن يبلغوه منه ولا يتردد لحظة فى مساجلتهم الحرب واثقاً من أنه سينتهى إلى الظفر وسيلقى بهم تحت أقدامه أذلة صاغرين ؟ ثم أرأيت إلى هذا الشخص الذى لا يحفل بحكم الجمهور ولا بزرايته بفن من الفنون فيزدرى الجمهور ليعلى مكانة هذا الفن ويواصل السنين تباعاً يعانى من ألم الحرمان المادى ما كان فى غنى عنه لو أنه جارى الجمهور وخضع لأهواء الجامدين ؟ وهل رأيت لأبطال النهضة النسوية يريدون أن يحرروا نصف الإنسانية تحريراً عملياً من إسار الذل ويبعثوا إلى العالم من نشاط العواطف الحية السامية ما يضاعف العالم نشاطاً وسمو عاطفة ، غير آبهين لما يقوله الجامدون عنهم ، ولما يجاهدون فى سبيله من حرمان وما يصلون إليه أحياناً من نصر مؤقت فى هذا الحرمان المادى ؟ أرأيت إلى الذين يضحون فى سبيل النهوض بالشرق إلى المراتب الإنسانية السامية ! إنهم

ليجدون فى تضحيتهم لذة معنوية دونها كل لذائذ الحياة الجامدة . وما المال ، وما الألقاب وما المناصب إلى جانب رضا النفس وطمأنينتها إلى أداء واجبها السامى للإنسانية . إن قلب الإنسان لأكثر أعضائه نبضاً وأدقها حساًّ وأكثرها تعرضاً لكل ما يصيب سائر الجسم من آلام ، وهو مع ذلك أشرف الأعضاء وأسناها لأنه هو الذى ينظم فيها الحياة ويجعلها – ما دام هو سليماً – تتذوقها على خير ما تمكنها قواها الباقية .

والغبطة النفسية التى تنسى صاحبها آلام البدن وحرمانه ، واللذة المعنوية التى تذيب العذاب المادى فلا يشعر به صاحبه ، هذان هما دعامة الإيمان الذى يحرك الأجيال ويدك الأطواد ، وهذان هما اللذان كانا فى تاريخ الأمم المحرك والدافع إلى المجد والحضارة . استطاع أصحابهما فى كل عصر نجموا فيه أن ينتشلوا أممهم الغارقة فى عبادة المادة الجامدة عن إدراك بهاء الحق والجمال والحرية . وهما اليوم متوافران فى الشرق بما لم يتوافرا فيه منذ قرون . وهما يسيران جماهيره مسحورة بأصحابهما ، وإن وجدت فيهم أكثر الأحيان خوارج على ما قدسته خلال القرون ، ثواراً على ما شادت به يد الظلم والاستعباد من هياكل الوهم ومعابد الأباطيل .

نعم إن جماهير الشرق لتسير اليوم مسحورة وراء دعاة الحق والجمال والحرية وإن أشعرتها غرائزها المكسوبة أنهم ثوار وخوارج لأن روح الثورة والخروج قد انسكبت فى قرارة روح هذه الجماهير نفسها ، فهى قد رأت بعينها ، بعد ما أزاحت الحرب طبقات الجمود المتحجرة ، أملا فى حياة جديدة . ولكن : ما هى هذه الحياة الجديدة ؟ وكيف يتحقق هذا الأمل ؟ إن أصحاب الرأى أيام الجمود لن يكونوا دعاة الحياة الجديدة ولا محققى الأمل الإنسانى الأسمى . هذا أمر تشعر به الجماهير شعوراً صادقاً . وهى

لذلك قد تخلت عن هؤلاء الجامدين وإن كانت ما تزال آخذة بتعاليمهم لأنها لما تجد فى الجديد ما يحل محلها وينظم شئون العيش والحياة تنظماً يكفل الطمأنينة الوادعة المستريحة لكن الجديد يجب أن يقيم قواعد مكان ما انهار وتداعى . فلننظر نحن الجماهير بعطف يشوبه الحذر إلى كل الدعاة للتجديد ، فمن أفلح منهم تبعناه إلى مكانة الحكم وقبلنا من جديده ما تسيغه عواطفنا وما يتفق وتراث أسلافنا الأمجاد .

نفوس طامحة إلى الحرية تستعذب فى سبيل الحق والجمال كل تضحية وتندفع مؤمنة بما ألقت عليها مقادير هذا العصر الحاضر من رسالة . وجماهير شعرت بما خلّف الماضى وقد أصبح خرائب تلجأ إليها قهراً وكرها ، لأنها لما تطمئن إلى بناء جديد أقيم . وبيئة مؤاتية لهذه النهضة مؤيدة هذا البعث أنشأتها الحرب وقدستها الدعوة إلى تحطيم الاستعمار والظلم . هذه هى أدوات الشرق فى طور بعثه . وهى أدوات كافية كل الكفاية ليتم هذا البعث ولتقوم على أثره حضارة قوية تزحزح الاستبداد والاستعمار جميعاً عن كواهل أمم الشرق . وما دامت هذه الأدوات تعمل متوافقة فستصل من البعث إلى غايته .

وأكبر يقيننا أنها تعمل وستعمل موفقة . فهذه هى الجهود الجسام تبذل لكشف كل ناحية من نواحى الحياة الإنسانية وتخليصها من رق جمود الماضى وبعثها حية تبتغى ما يستطاع من الكمال . وهذه الدعوة إلى التجديد وإلى الحرية فى كل شىء ، وهذا القبول الحسن من جانب الجماهير لتلك الدعوة ، ليس إلا مقدمة لهذا الكشف فى النواحى التى ما تزال بحاجة إلى الجهاد . انظر إلى جانب الفن الجميل ! لم يكن يعرف أهل الشرق من أمره شيئاً حتى أيام الحرب ، ولم يكونوا يحلمون بفن جميل شرقى أو منسوب إلى أمة

من أمم الشرق ، وكان المتقدمون إلى ناحية الحضارة منهم يقفون عند الإعجاب بما تنتج حضارة الغرب من آثار الفن ، وينظرون إلى ما فى الشرق منه نظرة ازدراء وتحقير ويعتبرونه عملاً تافهاً إن لم يكن عملاً محرماً . أما اليوم فالجمهور يتطلع بعين العطف الكبير إلى ما يبذل من الجهود لإحياء الفن الشرقى والتقدم به لمجاراة حضارة العصر الحاضر . فالشعر والنحت والتصوير والنقش وما إلى هذه الفنون مما كان بعضه باقياً عندما رسمه له العرب من خطى ، والبعض الآخر موسوماً بميسم الإثم ، أصبح الكل ينظر اليوم إليها يريد بعثها فى صورة شرقية جديدة تتفق والبعث النفسى العام الذى تهتز به أرجاء الشرق جميعاً . والفن الجميل ثمرة الحضارة ، بل هو رحيق هذه الثمرة ، فالتطلع إليه ورجاء النجاح فيه والبلوغ به إلى مرتبة الكمال ، تطلع إلى هذا الرحيق؛ إن لم نبلغه اليوم فأبناؤنا أو حفدتنا بالغوه لا ريب كأثر للبعث الحاضر .

ثم انظر إلى جانب التفكير . لم يقف أمره عند الدعوة إلى حرية الفكر والرأى وإبدائهما ووسائل هذا الإبداء . بل لقد كادت هذه المسألة تصبح اليوم بديهية على قصر العهد بالدعوة لها دعوة جدية . بل تعدى التفكير ما ألف الناس خلال العصور الطويلة الماضية إلى ما يزعمه البعض تجديفاً وإلحاداً . وأصبح البحث الحر عن الحقيقة لذاتها أمراً مسلماً به من ناحية ، وأمراً واقعاً بالفعل من الناحية الأخرى . فكثيرون يبحثون فى الأدب وتاريخه ، وفى الدين وعلاقته بالعلم ، وفى العلوم المختلفة ، على طرائق البحث الحديثة التى تبدأ بالشك وتختار من مذاهب البحث العلمية ما شاءت . ولئن كانت ثمرات هذه البحوث ما تزال قليلة وما تزال فجة فإن السنوات القليلة التى مرت منذ البعث ، والجهود التى أنفقت فى سبيل هذا البعث بالذات لم تكن لِتسَع أكثر من هذا . ثم إن سمو الثقافة الحاضرة وإنشاء التعليم العالى

وإقامة منشآته على أسس متينة كل ذلك بشير بإنتاج خصب فى المستقبل القريب يتناول كل ألوان البحث الفكرى ويتناول العلوم والفنون جميعاً .

وانظر كذلك إلى مقياس الحياة عند الناس اليوم وما كان قبل الحرب . لقد زادت حاجات العيش عندهم زيادة محسوسة ، ودخل بين هذه الحاجات كثير مما كان يحسب من قبل كمالياً ، وهو بعض الغذاء الأولى للنفس الإنسانية . فهم اليوم أكثر ميلاً للقراءة وللاتصال بالحياة العالمية أضعاف ما كانوا من قبل . وليس أدل على ذلك من سعة انتشار الصحف من ناحية ، وكثرة عددها وتنوع موضوعاتها من الناحية الأخرى ، وسموها فى كل شئونها على ما كانت مثيلاتها قبل الحرب سمواً كبيراً . وهم اليوم أشد حرصاً على الاستفادة من كل المكتشفات والمخترعات الإنسانية وأعظم إقبالاً مما كانوا فى أى وقت سالف على المتاع بنعيم العيش متاعاً إنسانياً كاملاً . اذهب إلى دور المسارح وإلى دور السينما وإلى معازف الموسيقى وإلى كل ما يتصل بمعانى الحس والعاطفة تجدها تضاعف عددها وتضاعف الإقبال عليها ، ثم هى إلى جانب ذلك تسير فى سبيل السمو والإتقان عما كانت عليه مثيلاتها قبل الحرب وعما كانت هى عليه أول خلق منشآتها الأولى أثناء الحرب . ثم هم اليوم فى عيشهم المادى فى منازلهم وخارج منازلهم أرقى مما كانوا بكثير . ولو أنك قارنت مدائن القاهرة ودمشق وبغداد وغيرها من كبريات عواصم الشرق بما كانت عليه هذه المدائن نفسها قبل الحرب لبهرك الفرق ولحسبت بين عمارة هذه المدائن اليوم وعمارتها من عشرين سنة ماضية عمل أجيال وقرون متعاقبة . وليست المدائن وحدها هى مظهر هذا التطور السريع فى دور البعث الذى يجتازه الشرق بل إن البلاد الصغيرة والقرى قد تأثرت به كما تأثرت الأمصار والعواصم أو

أكثر مما تأثرت الأمصار والعواصم ، والناس فى الشرق كله قد أنفوا الزهد القديم فى الحضارة الإنسانية ، وألفوا عيشاً جديداً لا سبيل إلى بقائه من غير جهاد مستمر هو الجهاد فى سبيل الحضارة ، وهو بعض أدوات البعث الذى نتحدث عنه الآن .

ولو أنك نظرت إلى أى جانب آخر من جوانب حياة الشرق لرأيت فيه مثلما رأيت فى جوانب الفن والتفكير والعلم وتصور الحياة من نهضة وجهاد للبلوغ بالنهضة غاية الكمال ، ولرأيت أن هذه النهضة الاجتماعية والفكرية والخلقية تتضافر أطرافها لمؤازرة النهضة السياسية تضافراً يضىء سبيل الحرية أمام الشرق كله ويجعل محالا فى سنين معدودة أن يخضع هذا الشرق لحكم متحكم أو لاستعمار مستعمر ، وأنه إن ارتضى فى علاقاته الدولية قاعدة أو صلة فإنما تكون صلة التعاون بينه وبين الغرب للبلوغ بالإنسانية كلها إلى مرتبة الكمال .

قد يرى بعضهم ، فيما لفتنا النظر إليه من جوانب النهضة ، قصوراً واضطراباً فأين علمنـــا من علم الغرب ؟ وأين تفكيرنا من تفكيره ؟ وأين فننا من فنه ؟ ونهضتنا الاجتماعية من نظامه العتيق المؤسس على أثبت القواعد ؟ بل ما قيمة هذه الجهود فى تلك الجوانب وما عساها تستطيع فى نهضة بلاد انقضت عليها عصور وهى سجينة تحت ظلمات تلك الطبقات المتحجرة من عسف واستبداد وجهل وجمود ؟ ! وقد يكون للناظر السطحى أن يتأثر بهذا الاعتراض حتى ليحسبه جديراً بالاعتبار . لكنه لا يزيد على أنه اعتراض سطحى فهذه النهضة التى تبعث الشرق اليوم إلى الحياة ليست بنت اليوم . بل إن لها لمقدمات ترجع إلى أكثر من مائة سنة مضت ، وللمجاهدين اليوم طلائع تقدمونا ، وقضوا فى ميدان الجهاد أبطالا عظاماً ،

وإن كان التاريخ لم يذكرهم فذلك لأن التاريخ لما يكتب بالعناية التى يجب أن يكتب بها . ثم إن الجهود ما تزال قاصرة حقًّا وما يزال الاضطراب بادياً فى نواحى نهضة الشرق . لكن هذا الاضطراب نفسه أمارة أخرى من أعلام البعث وحجة من حججه . ألست إذا أردت تشييد قصر منيف بدأت بإزالة ما يعترض أساساته من أسباب الضعف حتى لا يتطرق إليه فى مستقبل الزمن وهن ، ثم قمت بعد ذلك بإحضار كل مواد البناء وتحضيرها . فإذا ظهرت على السطح أوليات بناء القصر حسبها الناظر إليها خليطاً مضطرباً من الحجر والطين والجير ، ثم رأى حولها وخلالها ما هو أشد منها اضطراباً . لكنه لا يلبث كلما ارتفع البناء أن يرى النظام يحل محل الفوضى ، والعواضد تربط بين أجزاء البناء ، حتى إذا بالقصر المنيف تأخذ العين روعته واللب بهاؤه وجلاله . فهذه الجهود التى يحسبها السطحيون قاصرة ، وهذه الاضطرابات التى يتوهمونها الفوضى ، إنما تلك اختفاء أسباب الضعف والوهن من أسس نهضة الشرق وأدوات عمارتها . وهذه النهضة ليست بكبير حاجة إلى زمن طويل ليقف منها الناظر السطحى ، وغير الناظر السطحى موقف المعجب المقدس .

وإن عواضد هذه النهضة وروابطها لتظهر أمام الرائى رويداً رويداً . فالجهود العقلية — علمية وفكرية وأدبية — كانت مبعثرة فى الماضى لا تربط بينها رابطة ، وكانت ضعيفة لا تقوى على خلق هذه الرابطة . ثم ها هى ذى اليوم قد ربطت بينها الجامعات منتشرة على بلاد الشرق العربى المختلفة بما قررت من اتصال فيما بينها وبين غيرها من معاهد العلم المختلفة فيه . وهذه روابط فكرية ومعنوية تتقدم كل بعث إلى ذرى الحضارة كلما آن لبعث أن يؤتى ثمراته . ثم إن الروابط المادية نفسها تزداد كل يوم وتزيد

أمم هذا الشرق اقتراباً بعضها من بعض . ألست تتجول اليوم خلال الشرق كله فى أيام فتصل من القاهرة إلى القدس وعمان ودمشق وبغداد ثم إلى جزيرة العرب لتعود منها إلى القاهرة أو إلى أية نقطة أردت . وهذا التجوال كان يقتضيك فى الماضى شهوراً طوالاً ونصباً لا قبل للأكثرين بها .

وكلما قويت الروابط المعنوية والمادية ، وكلما تكدست ثمرة المجهودات الصادقة التى تبذل اليوم ، ارتفع أمام النظر هذا البناء العظيم وبدت على جوانبه تماثيل العلم والفن والفكر وكل أسباب الحضارة الشرقية رافعة الرأس يمسك كل منها بيد صاحبه علامة التضامن والتآزر لبناء هذا الشرق قوياً مجيداً .

ولقد اجتاحت بلاد الشرق فى السنوات الأخيرة حركة تجديد واسعة النطاق حقاً ، وهى متهمة بالتطرف إلى حدود الثورة أحياناً . وإذا كانت مصر لم تلجأ إلى طريق الثورة الذى لجأت إليه تركيا والأفغان وفارس لأسباب سياسية وغير سياسية مختلفة فإن ذلك لم يمنعها – رغم سبقها هذه الدول الشرقية فى الماضى إلى ناحية المدنية الغربية – من أن توسع خطاها فى حركة التجديد ، ومن أن تحث السير فى سبيله . والبلاد السورية والعراق تحاولان ما تحاول مصر وما تحاول البلاد الشرقية الأخرى . بل إن حركة التجديد لم تفت الحجاز وبلاد شبه جزيرة العرب برغم عدم ملاءمة أحوالها الاقتصادية وظروفها الاجتماعية له كملاءمة أحوال البلاد الشرقية الأخرى وظروفها .

وما نحسبنا نغلو فى قليل ولا كثير إذا اعتبرنا حركة التجديد التى تتناول أمم الشرق جميعاً دليلا على عمق إحساسها بأن النظام القديم ، بل المدنية القديمة ، التى كانت آخذة بهما لم يعودا صالحين للجهاد والتعاون مع أمم الأرض الأخرى. وليس فى هذا انتقاض للنظام القديم لذاته أو

للمدنية القديمة لذاتها ، ولكن معناه أن هذا النظام وتلك المدنية قد قاما بما أريد لهما أن يقوما به فى العصر الذى كانا فيه ملاك قوة الأمم وتقدمها . ثم كانت التطورات الأخيرة فى مدنية أوربا ، فتغلبت بمنشآتها الحديثة على ما كان فى النظام القديم من قوة بحيث أصبح عاجزاً عن مجاهدة هذه المدنية الحديثة ومنافستها . ولقد كان ذلك أبداً شأن النظم والمدنيات فى العصور المختلفة . يخلف واحد منها واحداً ويتغلب عليه فيزج به فى أعماق التاريخ . وليس فى هذا قضاء أخير على النظام المغلوب . فكثيراً ما حدث أن بعثت تطورات وعوامل جديدة هذا النظام إلى الحياة من جديد فى صورة تلائم تفكير الناس واتجاههم فى الحياة . ولكن فيه انتصاراً لنظام جديد عليه لا يرى الناس بداً من الأخذ به حتى يصلوا من الحياة إلى خير ما تستطيع الحياة أن تمدهم به من نعمة إبان العهد الذى يعيشون فيه .

ولقد يكون من موجبات الأسف عند البعض أن يكون النظام الجديد الذى تسعى أمم الشرق إليه مشرباً بالروح المادى الذى بعثه العلم فى أوربا فى القرون الأخيرة . وقد يكون من حق هؤلاء أن يزدادوا أسفاً لأن الشرق كان فى الماضى مبعث النهضات الروحية التى جددت قوى الأمم فجعلت من مهابط الوحى على الأنبياء فى مصر وفلسطين وبلاد العرب مصدر قوة كفلت لهذه الأمم سعادتها قروناً طويلة . ولكن هذه الأمم الشرقية شعرت بأن شعلة هذه القوة الروحية خبت فى الأزمان الأخيرة مما مكن لأمم الغرب من التغلب عليها والاستئثار بالأمر فيها وإكراه أهلها على ألوان من العبودية لا ترضاها أمة تحترم نفسها وتقدر كرامتها . ولم تجد هذه الأمم فى الرجال الذين تتمثل هذه القوة الروحية فيهم شيئاً من ضياء هذه القوة

ونورها . بل كثيراً ما كان هؤلاء الحفظة للقوة الروحية أعواناً للغالبين فى بلادهم . فلما كانت الحرب ورأى الناس فى بلاد الشرق جميعاً مظاهرها المادية أقنعهم ذلك بأن هذه المدنية المادية ونظامها غالبان لا محالة . لذلك ما لبثوا أن رأوا فى طائفة ممن ولوا أمرهم أنصاراً لهذه المدنية حتى بايعوهم ولم يقيموا الاعتراض معترض عليهم وزناً . ولعلك إن بحثت عن السبب فى ضعف هؤلاء الحفظة للقوة الروحية فى العصور الأخيرة فى الشرق وفى القرون التى سبقتها فى أوربا نفسها ، وجدته فى الأثرة الطائفية التى بعثتهم ليجمدوا على التعالم القديمة ولا يعترفوا بما استحدث العقل الإنسانى فى مختلف ميادين الحياة من قوى . والأثرة الطائفية كالأثرة الفردية كانت دائماً سبب ضعف وانحلال ما اعتزت بنفسها وناوأت القوى المحيطة بها وانكمشت دون الاندماج فى هذه القوى لفائدة الجماعة ولفائدة الإنسانية . وكما أن رئيس الأسرة أو الطائفة يزداد قوة كلما شعر أهل الطائفة أو الأسرة أنه لهم أكثر مما هو لنفسه . على حين هو يضعف إذا هم رأوا فيه توفراً على ذاته وانكماشاً عنهم ، كذلك تضعف الطوائف التى يجلها الناس ويقدسونها إذا هم شعروا بها تبتعد عنهم ولا تريد لهم خيراً ولا إصلاحاً . ومن الثابت فى التاريخ أن حفظة القوة الروحية من رجال الدين فى أوربا وفى الشرق وصلوا فى عصور مختلفة إلى ظروف من الأثرة جعلت الناس ينظرون إليهم نظرة خوف وقلق . وفى هذه الظروف التى تغلبت الأثرة فيها على هؤلاء أبدى المشتغلون بالعلم من التضحية ما لفت نحوهم الأنظار وجعلهم يعتبرون رجال التضحية لخير الإنسانية ولفائدتها . كذلك كان الشأن فى أوربا منذ القرن الخامس عشر ، ولعل هذا هو الشأن الآن فى كثير من الأمم الشرقية .

وأنت إذا نظرت مثلا إلى أمة كتركيا كان سلطانها يمتد حتى أيام الحرب العالمية الأولى إلى بلاد الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف وبحثت فى نفسية أهلها عما يعتقدونه السبب لتدهورها ، ألفيتهم يؤمنون بأن السبب يرجع إلى أثرة طائفة الذين كانوا يمسكون بالقوة الروحية فى الماضى والذين كانوا مع ذلك مثال الأنانية والأثرة فيها ، وسواء أكان هذا الاعتبار صحيحاً أم غير صحيح فإنه حل من النفس التركية محل الإيمان ، وهو الذى جعل الناس يقبلون على حركة التجديد والإصلاح التى قام بها الغازى مصطفى كمال أفواجاً أفواجاً لأنهم رأوا هذه الحركة تقصد إلى رقيهم وسعادتهم جميعاً كأمة ولم يروا فيها شيئاً من الأثرة التى تميز بها ذلك العصر الماضى .

ومثل الاعتقاد الذى رأيناه فى تركيا نرى اعتقاداً شبيهاً به فى غيرها من الأمم الشرقية . ولهذا الاعتقاد نرى الناس يترددون قبل أن يحكموا حكماً قاسياً حتى على ما يعتقدونه متطرفاً غاية التطرف من حركات التجديد التى تقوم تلك البلاد بها ولا يأبون أن يضعوها موضع بحث ولا مناقشة . وما دامت النظم الاجتماعية توضع موضع البحث من غير تعصب لأى منها فتلك بداية حركة التجديد فى كل عصر وفى كل أمة .

فضلاً عما لحركة التجديد من الدلالة على عمق إحساس الأمم الشرقية بأن النظام القديم ، بل المدنية القديمة لم يعودا صالحين للجهاد والتعاون مع أمم الأرض الأخرى ، فإن لها دلالة غير هذه ليست دونها قوة . فحركة التجديد دليل أيضاً على عمق إحساس الأمم الشرقية بضرورة إلقاء النير الأجنبى عنها ، وإن كلفها ذلك ما كلفها ، وبضرورة التعاون مع الأمم الأخرى تعاون أخوة ومحبة ، لا تعاون سيادة وعبودية . ألست

ترى الناس جميعاً يقولون : إنا يجب أن نتسلح بأسلحة أوربا إذا اردنا ان ننجح فى وجه أوربا . ولقد كانوا يقولون هذا القول فى الماضى ثم لا يكادون يشفعونه بعمل . ذلك بأنهم لم يكونوا يؤمنون إيماناً صحيحاً ، وكانوا لا يزالون يتوهمون فى النظام القديم وسيلة للتحلل من الرق ، أو أنهم كانوا مطمئنين إلى هذا الرق . أما اليوم فهم يقولون ويعملون ويجاهدون بكل ما لديهم للتسلح فعلاً بالأسلحة الأوربية المعنوية والمادية . ولقد أدركت أوربا مدى ما يمكن أن يترتب على هذا الإيمان الجديد لدى الأمم الشرقية ، ففكرت فى ضرورة الارتباط بينها وبين أمم الشرق بروابط المودة والتحالف والتعاون ، وإن كانت ما تزال إلى اليوم مترددة فى المدى الذى تذهب إليه من هذا التحالف والتعاون الودى . وكانت ما تزال تماطل قبل وضع القواعد الأخيرة لهذا التحالف لأنها تريد أن تعرف غاية ما يدفع الإيمان الجديد الأمم الشرقية إليه من اعتزامها العيش حرة رافضة أى نير يفرض عليها .

وأحسب أن ثمة اعتباراً آخر هو الذى يدعو إلى تردد الأمم الغربية ؛ فالأمم القائمة بحركة التجديد على صورة جدية لا هوادة ولا مواربة فيها هى الأمم التى كانت قبل الحرب مستقلة استقلالاً صحيحاً والتى ما تزال مستقلة استقلالاً صحيحاً كذلك . فتركيا وفارس وبلاد الأفغان لم تخضع فى يوم من الأيام خضوع غيرها للنير الأجنبى . وإذا هى كانت فى بعض الظروف قد خضعت لتكون منطقة نفوذ لبعض الممالك الأوربية فإن خضوعها هذا لم يدم أمداً طويلاً ، ولم يكن عن رضاً وطواعية . وهذه الأفغان – على أنها بلاد صغيرة – لم ترض حكم إنجلترا إياها ولم تترك فرصة من الفرص إلا انتهزتها حتى وصلت للاعتراف لها بالاستقلال الناجز ،

لا تعليق فى أية ناحية من نواحيه بحال . وتركيا إذا كانت قد فقدت مستعمراتها ، التى كانت تجعل منها إمبراطورية كبيرة ، فإنها لم تكن يوماً من الأيام خاضعة لنير أجنبي خضوعاً بالمعنى الذى تفهمه الأمم الأوربية . وفارس التى كانت يوماً من الأيام مقسمة إلى مناطق نفوذ بين الدولتين الإنجليزية والروسية لم تدم على ذلك إلا ريثما وجدت السبيل للثورة عليه . وهذه البلاد التى كانت فى هذه المراتب السياسية فى الماضى هى القائمة اليوم بالتجديد على وجه قوى واضح . أما سائر البلاد الشرقية فكانت خاضعة من قبل لنير أجنبي هو نير تركيا ، أو لنفوذ أجنبى هو نفوذ إنجلترا أو فرنسا أو غيرهما . وحركة التجديد فى هذه البلاد ليست بمثل القوة الحادثة بها فى تركيا وفارس والأفغان . أفليس من حق أوربا — وهذه هى الحال — أن تتمهل وأن تطاول وتماطل قبل أن تمد لهذه البلاد — التى كانت محكومة منذ قرون ماضية ، والتى وقعت بعد الحرب فى قبضتها — يد مودة وصداقة وتعاون خالص .

ولأوربا أن تفكر على هذا النحو ؛ فالعلاقات الدولية لا تقوم بين الأمم على قواعد من مبادئ الحق والعدل والحرية على نحو ما اعتدنا أن نسمع إبان الحرب وبعدها . وإنما تقوم هذه العلاقات على أساس ما فى كل أمة من الأمم من قوة الحياة . فإذا صح يوماً من الأيام لدى أوربا أن حركة التجديد القائمة فى الشرق حركة متمكنة من النفوس بالغة منها مبلغ الإيمان واصلة يوماً من الأيام لتقف هذه الدول فى وجه أوربا موقف الند للند بطريقة عملية ، ولتكلف أوربا مشقات للتغلب عليها ، لم يبق بد من أن يقوم التعاون الصحيح بين الشرق والغرب ، ومن أن تقر أوربا الدول المغلوبة اليوم بمثل ما أقرت به من قبل لتركيا ولفارس وللأفغان ،

ومن أن ترتبط وإياها بعلاقات المودة الخالصة .

ونحن من جانبنا نقر بأن أوربا واصلة آخر الأمر لهذا الاقتناع بضرورة العدول عن ذلك إلى سياسة التعاون . فإنما يحول بين الدول الواقعة اليوم تحت السلطان الأوربى وبين القيام بحركة التجديد على النحو الذى تقوم به تركيا وفارس والأفغان وجود هذه الدول الأوربية نفسها وإلزامها البلاد الواقعة تحت سلطانها أن تسير فى خطاها إلى التقدم ، مع شىء كثير من الحذر حتى لا تتخذ أوربا من اندفاعها وسيلة لمناوأتها والعمل على محاربة آمالها فى التجديد . ومع هذا الحذر فإن الخطى التى تسير بها الأمم واسعة إلى حد كبير . وخذ مصر مثلاً ؛ فلم تبق بين أمم العالم أمة تخضع لمثل الاعتبارات السياسية الثقيلة التى تخضع لها مصر : تحفظات إنجلترا المكفولة بجيوشها من جهة ، والامتيازات من جهة أخرى ، والاضطراب الحزبى الناشئ عن هذا الموقف السياسى من جهة ثالثة . مغ ذلك فإن خطى مصر فى سبيل التجديد خطى العمالقة . ومهما يتغير القائمون بأمر الحكم فى مصر فإن حاجة الشعب نفسه للتجديد تدفع هؤلاء القائمين بالأمر إلى السير فيه طوعاً أو كرهاً . وإذا كان من بينهم من لا يؤمن بالتجديد إيماناً صحيحاً وكان يستطيع لذلك أن يحاول الوقوف فى وجهه ، فهو إنما يحاوله بوسائل ملتوية لأنه لا يستطيع أن يصارح الناس بأنه عدو التجديد وخصم تقدم الأمة إلى الصف الذى يمكنها من التغلب على الجمود الذى عصف بها وبحريتها واستقلالها فى الماضى . وأنت لا ريب واجد من سوريا وفلسطين والعراق مثل ما تجد من ذلك فى مصر سواء بسواء . والحق أن الذين حضروا العهد القريب السابق لأيام الحرب فى هذه البلاد ليذكرون كيف كان الجمود متمكناً ، وكيف كانت الصيحات إلى التجديد تقابل

بفتور أدنى إلى السخرية منها والاستهزاء بها . وبالرغم من تضافر كثير من القوى فى هذا العصر الأخير على الوقوف فى وجه حركة التجديد فإن هذا التجديد منتصر لا محالة بالغ غايته من إلغاء النير الأجنبى والوصول بهذه الأمم لتكون علاقتها مع غيرها علاقة تفاهم وتعاون لا علاقة خضوع وذلة .

بقى الآن أن نتساءل عما يكون شأن مخلفات النظام القديم الذى جمد ، والذى حدثت الحركة بقدر ما جمد . هل يكون من أثر هذه الحركة القضاء على هذه المخلفات قضاء أخيراً ؟ ذلك ما يمكن أن تبعث مثل حركة تركيا على الاعتقاد به . فالتكايا القديمة ، والملابس التى كانت معتبرة وكأنها ملابس دينية ، والمحاكم التى كانت مصبوغة بهذه الصبغة ، كل ذلك قضى عليه إلى غير عودة . لكن تركيا نفسها – مع ظهورها فى حركة التجديد بمظهر المتطرف الذى لا يريد الوقوف فى منتصف الطريق من إصلاحها – قدرت أن لابد فى حياة الشعوب من قوة روحية . وإذا كانت هذه القوة قد أغرقت فى الماضى فى فيض من الجهالات والأباطيل كانت هى التى تعمر التكايا وما إلى التكايا من نظم ، فإن تنظيف أسباب هذه القوة من الأدران التى أحاطت بها فى الماضى وجعل الدين والعلوم المتصلة به موضع دراسة صحيحة كفيل بما تحتاج إليه الجماعة من هذه القوة من غير أن يخلق بسببها عاطلين ومرتزقة بغير عمل . وها نحن أولاء نرى فى الأفغان وفى فارس مثل هذا الاتجاه . بل ها نحن أولاء نراه أخيراً فى مصر وإن كان يسير بخطى متئدة ليس فيها معنى الثورة التى لزمت الانقلاب فى تركيا وفى الأفغان وفارس . وإذن فسيكون أن تأخذ هذه البلاد من هذا النظام القديم بالقدر اللازم لحياته ولحياتها وستنفى منه ما كان

معطلاً لغيره من أسباب حياتها وتقدمها ، وسيبدأ هذا النظام لذلك يستعيد شيئاً من القوة التي تكفل له التعاون مع حركة التجديد الذى كان يعتبر فى الماضى عدواً لها، وعندئذ تؤتى حركة التجديد ثمارها فتقف الأمم الشرقية تكاتف غيرها من سائر الأمم ، وتكون قد خلفت لنفسها الحضارة التى تكفل لها الحرية وتكفل للعالم السلام .

٣ — حضارة الشرق الأوسط
متى تُبعث من جديد ؟

قامت فى تركيا وإيران وأفغانستان فى الحلقة الثالثة من هذا القرن حركة تجديد عظيمة أساسها إحلال مظاهر الحضارة الغربية محل آثار الحضارة الشرقية ، ولقد ذهبت تركيا فى هذا السبيل إلى أبعد مدى حين قررت استبدال الحروف التركية بالحروف اللاتينية فى الكتابة . وكثيراً ما قيل فى تركيا إن سبب ما أصابها فى الماضى إنما يرجع إلى أخذها بالحضارة الشرقية وقيامها على رأس الأمم الإسلامية حين كانت صاحبة الإمبراطورية العثمانية . ولعل شيئاً من مثل هذا يقال فى إيران وفى أفغانستان فهل نستطيع أن نعتقد أن الحضارة الغربية ستقضى على الحضارة الشرقية . وأن الأمم التى عاشت قروناً طويلة ذات حضارة شرقية خاصة ، ستضطر أمام تيار المدنية الغربية إلى أن تنسى ماضيها وإلى أن تأخذ فى الدقيق والجليل بالحضارة الغربية ، أو أن هذه النزعات القائمة اليوم فى الدول الثلاث التى أشرنا إليها ، وما شابهها من نزعات قائمة فى سائر الأمم الشرقية ،

لا يمكن أن تنتهى بالشعوب الشرقية إلى الأخذ بالحضارة الغربية وحدها ، وأن هذه الأمم متى استعادت نشاطها بما تقترضه من أمم الغرب ستضطر بحكم طبيعة الوجود إلى بعث حضارتها الشرقية من جديد ، بالغاً ما بلغ تأثر هذه الحضارة الشرقية بمظاهر الحياة الغربية التى اقترضتها ؟

وقد يحسب البعض عند النظرة الأولى أن الحضارة الشرقية قد أفلست بل اندثرت ، وأن لا سبيل لها إلى عودة أو بعث . أو ليس العالم تتقارب اليوم أجزاؤه بما ييسر العلم من طرق المواصلات وما يسهل من ذيوع الأفكار والآراء بمختلف الطرق والوسائل ؟ وإذن فالمدنية الحاكمة فى العالم ستكون مدنية واحدة ، وهذه المدنية اليوم وإلى أجيال مقبلة هى مدنية الغرب مدنية العلم والصناعة . بل لقد يصح القول عند أصحاب هذه النظرة الأولى بأن ما امتاز به الغرب من نشاط ، وما عرف عن أمم الشرق من ميل للدعة ، قد يجعل الشرق أبداً تابعاً للغرب فى مدنيته ، أسيراً له فى حضارته .

لكنى أحسب هذه النظرة الأولى لا تلبث أن يتغير رأى صاحبها إذا هى دامت إلى زمن يسمح بتفكير أعمق من التفكير السطحى ؛ فالشرق يستعير اليوم حضارة الغرب ويندفع فى استعارته إياها لأن الحضارة الشرقية التى كانت زاهرة فى عصور كثيرة قد تدثرت فى القرنين الأخيرين بنوع خاص بدثر ثقيلة من أوهام الماضى التى لا غنى عنها لسعادة السواد حتى فى أبهى أيام الحضارة ، والتى لا تتصل بهذه الحضارة إلا كما تتصل الألياف الذابلة بالشجرة القوية ، فإذا ذبلت الشجرة نفسها رأيت الألياف تتكاثر حولها وتتماسك وتصبح غطاء كثيفاً يحجب عن الجذع مقومات الحياة ويحجب عن الناس ما يبقى فى الجذع من حياة . وليست حضارة

الشرق فيما أصيبت به من هذه الدثر إلا خاضعة لما خضعت من قبل له مدنيات سبقتها . فالحضارة المصرية القديمة والحضارة الإغريقية القديمة وما اتصل بهاتين الحضارتين فى روما وفينيقيا قد عدت عليها عوادى الأيام كما فعلت بحضارة الشرق فى آخر عصوره . لكن ذلك لم يكن معناه أن هذه الحضارات القديمة قد قبرت إلى غير عودة . وإنما معناه أنها يوم تبعث تبعث متأثرة بحياة العصر الذى تقوم فيه بعد رقدتها الطويلة ، متأثرة كذلك بالمدنيات التى تجاورها ، والتى قد تندمج وإياها فى حضارة أوسع نطاقاً وأبعد فى حياة الإنسانية أثراً .

والحضارة ليس قوامها هذه المظاهر التى تراها العين فى الملبس أو حياة الأسرة وما إليها مما نستعيرها نحن بنى الشرق مما فى الغرب . كلا . فهذه المظاهر ليست إلا آثاراً تتفق وتختلف بين أمة وأخرى وطائفة من الناس وطائفة غيرها فى الأمة الواحدة . إنما الحضارة روح وإيمان . فإذا قلت الحضارة الإسلامية ، أوالحضارة المسيحية ، فأنت لم تقصد إلى الغزو الذى غزاه المسلمون وإلى ما فتحوا من أمصار ، ولم تقصد كذلك إلى ما استحدثوا فى اللباس وفى حياة الأسرة ، وإنما أنت تقصد إلى أصل أعمق من هذا ، أن تقصد إلى تصور الناس لعلاقة الفرد ولعلاقة الجماعة الإنسانية بالوجود كله . فهذا التوحيد الذى قام النبى « محمد » بالدعوة له هو أساس الحضارة الإسلامية كلها . ولهذه الفكرة خضعت ألوان التفكير والإحساس فى الأمم المختلفة التى انتشر الإسلام فيها . ولأفكار معدودة متصلة اتصالاً وثيقاً بفكرة التوحيد يرجع الفضل فى تطورات العالم الإسلامى العظيمة فى أيام مجده وفخاره . وفى طليعة هذه الأفكار المتصلة بالتوحيد فكرتا العدل والقصاص . كذلك الحضارة المسيحية تقوم على

أساس من فكرة التضحية – تضحية « عيسى » بنفسه لنجاة بنى الإنسان ، وفكرة الحب المتصلة فى الحضارة النصرانية بفكرة التضحية اتصالاً وثيقاً . لكن المتكلمين من المسلمين ومن النصارى قد أضافوا إلى هذه الأسس من استنتاجاتهم ومنطقهم ما كدس حولها الشيء الكثير من نظم وعقائد . ولما آن لهذه الحضارة الإسلامية وتلك الحضارة النصرانية أن يستريحا الزمن الكافى من الأوهام التى علقت بهما ، قامت الحضارة الأوربية الحاضرة ، والتى يمكنك أن تسميها حضارة العلم ، أو الحضارة الصناعية .

قامت هذه الحضارة العلمية أول قيامها على أساس من هدم قواعد الحضارات التى نشأت بينها . وإذ كان منشؤها فى أحضان الحضارة النصرانية ؛ فقد جدت أكبر الجد فى محاربة النصرانية ، وحاولت أن تحل محلها . وكانت هذه المحاولات بادئ الرأى بتأييدها الأساس الأول الذى تقوم عليه النصرانية . أساس الألوهية . فسخر « ديكارت » و « كانت » وغيرهما قواعد العلم والبحث الجديد لإثبات ما اعتمدت المسيحية على الوحى وعلى المعجزة فى إثباته . ثم كان الملحدون والعدميون وكان آخر الأمر المتشككون الذين قصروا العلم على ما نعلم وما نستطيع علمه من طريق البحث والملاحظة والاستقراء . فأما ما لا نعلم فقد وضع جانباً إلى أن تتاح فرصة لإثباته . وكان الكثيرون فى القرن التاسع عشر يؤمنون بأن هذه الفرصة آتية لا محالة ، وإنك إذ تقرأ الفيلسوفين الفرنسيين : « تين » و « رينان » لتشعر بأنهما يريان بعين الإلهام يوم يحل العلم طلاسم ما فى الأرض والسماء ويكشف عن لغز الوجود بوسائله التى لا تقبل الشك ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . على أن هذا الإيمان بقدرة العلم المطلقة قد بدأ يتراجع شيئاً فشيئاً بما ظهر من مذاهب جديدة تهدم

مذاهب علمية قديمة ، وبما شعر به الكثيرون من العلماء أنفسهم بأن كل حضارة يجب أن يكون لها روح وإيمان . ولعل «كومت» العالم والفيلسوف الفرنسى كان فى مقدمة العلماء الذين قدروا هذا . لذلك قرن بفلسفته العلمية ديانته الإنسانية لتكون روح حياة السواد وإيمانهم . وها هو ذا « برجسن » والروحانيون يشعرون اليوم بأن العلم – على ما أحسن للإنسانية ومد فى أسباب الرخاء والسعادة المادية – قد اعترف بقصره عن أن يجد حلا علمياً لصلة ما بين الفرد والجماعة الإنسانية بالوجود كله ، وبأنه لا مفر من الالتجاء للإلهام إذا أريد الوصول إلى هذا الحل ، ولابد من أن يكون حلاً يجمع إلى الحقيقة البساطة لتتمثله روح السواد والجماهير كى يكون لها أساس حضارة جديدة .

وليس هذا النوع من التفكير مقصوراً على العلماء والفلاسفة . بل إن موجة التفكير العام الأخيرة فى أوربا لتذهب إلى أن العلم قد عجز عن أن يعد غذاء نفسياً للشعوب الغربية ، وأنه لا مفر إذن من الالتجاء للشرق ومذاهبه وأديانه علّ الغرب يجد فيها هذا الغذاء . وإنا نجد هذا التفكير فى أمريكا وأوربا واضحاً قوياً : نجده فى أمريكا حيث تعددت المذاهب الدينية إلى غير حد ، وحيث جعل الناس يأخذون عن المذاهب الشرقية كالبهائية وغير البهائية . ونجد فى أوربا حيث يبحث الأوربيون فى مذاهب الهند القديمة يريدون أن يقيموا وحدة الوجود على أساس من إلهام أبناء « بوذا » و « برهمة » بعد أن رأوا الملاحظة والاستنتاج والاستقراء عاجزة عن إقامة هذه الوحدة . والتيوزوفية وغير التيوزوفية من المذاهب ليست إلا بعض آثار التعطش النفسانى وبعض مظاهر موجة التفكير هذه . فهل ترى يلهم الغرب الوصول إلى كلمة جامعة تكون للسواد روحاً وإيماناً

وتكون بذلك قاعدة حضارة جديدة يضطر الشرق إلى الأخذ بها فتكون مدنية غربية ؟ أم أن الغرب سيظل يضطرب بين موج من إلهامات الشرق الكثيرة القوية حتى يقوم فى الشرق مناد بكلمة الحق فإذا الغرب وعلمه يتبعانه طائعين لأنهما يجدان فى كلمته صلة الإنسانية بالوجود ، ويجدان لذلك فيها سبيل السعادة ؟

إذا صح لنا أن نتخذ التاريخ هادياً للجواب عن سؤالنا هذا ، أحسب جواب التاريخ أوضح من أن يحتاج إلى بحث بعيد ؛ فالكلمات الجامعة التى تفسر صلة الإنسان بالوجود تفسيراً يأخذ الناس به طائعين كان مصدر الوحى بها فى الشرق دائماً . فالإسلام والمسيحية واليهودية والبوذية والبرهمية وديانة « كونفشيوس » بشر بها كلها رسل من أهل الشرق ولم يعرف التاريخ فى الغرب أحدًا نادى بكلمة جامعة كالتى نادى بها أى واحد من أصحاب هذه الأديان . هذا مع أن الغرب كان دائماً موضع نشاط عظيم ، وكانت اليونان منبع الحكمة والفلسفة الأولى التى تعتبر أساس الفلسفة الأوربية الحاضرة ما تزال . فإذا كان هذا جواب التاريخ كان لنا أن ننتظر صاحب كلمة الحق التى تفسر الوجود فى الشرق . وكانت مدنية الشرق الروحية هى التى ستعم العالم بعد أن تربط أواصر العلم وصلات الميكانيكا العالم كله وتجعل منه بقعة ضيقة . ويومئذ يكون التعاون بين حكمة الشرق ونشاط الغرب تعاوناً يجمع إلى الرخاء السعادة ، وإلى الحكمة السامية الطمأنينة الروحية .

قد يذهب بعضهم إلى أن عصور الإلهام قد انتهت ، وإلى أن العلم وامتداد سلطانه إلى مختلف نواحى الحياة يجعل الكلمة الشعرية التى تستريح لها النفوس جميعاً أمنية عزيزة المنال . وأصحاب هذا المذهب على

حتى إذا أنت نظرت للمستقبل القريب جداً . أو إذا أنت قدرت أن العلم سيصل من سعيه المتواصل إلى حل لغز الوجود . وأحسب أن الظن بمقدرة العلم هذه لا يبرره الآن ما كان يبرر الإيمان بالعلم فى أيام « تين » و« رينان » . يومئذ كان العلم ما يزال فى فتوة نشاطه ، وما يزال بذلك يكشف كل يوم عن جديد . فكان المؤمنون بالعلم يحسبون أن العلم أصبح وحدة قائمة بذاتها ، سامية فوق الطبيعة الإنسانية لا تعرف الوقوف ولا الاستجمام . أما اليوم فقد أصبحت خطى العلم أبطأ بكثير عما كانت من قبل وأصبح العلم التطبيقى يبهر الأنظار أكثر مما يبهرها الكشف عن قوانين علمية جديدة . بل إن القوانين التى اعتبرت ثابتة زمناً ما ، قد وضعت اليوم موضع النقد والتحليل . فالمرحلة الحاضرة من مراحل العلم فى جانبه النظرى مرحلة تحقيق وتمحيص ، وليست مرحلة كشف جديد .

فأما العلم التطبيقى ، وأما اختراع السيارات والطيارات وزيادة أسباب الرخاء ، فليست فى شىء من قواعد الحياة الجديدة . إنما هى استخدام لقوى اكتشفت استخداماً واسع النطاق . وسيكون ثمة يوم قريب أو بعيد يقف فيه هذا النشاط التطبيقى عن الجديد من الاختراع ليعنى بكمال المخترعات وإسباغ الكمال الفنى عليها . ويومئذ يدخل العلم التطبيقى هو الآخر فى دور النقد . ويومئذ تتمخض الحركة العلمية العظيمة التى شهد العالم فى القرن الأخير والتى ما تزال تهزه اليوم من جهتها التطبيقية عن صور فنية تبعث إلى النفوس شعراً أكثر مما تبعث إليها علماً ، وتدعو الناس للتفكير من جديد فى الوجود كله كمجموع ، وفى الفرد الإنسانى محاطاً بكل أسباب الرخاء وعلاقته بهذا المجموع .

قد يكون هذا اليوم قريباً وقد يكون بعيداً . على أنه وإن بعد فلن يتخطى

بعدنا جيلاً أوجيلين . وفى هذا الجيل أوالجيلين سيندفع الشرق فى اقتراض مدنية الغرب اندفاع تركيا وفارس والأفغان اليوم وسيعقب حركات الاقتراض هذه حركات رد فعل وثورات كالتى تجىء منذ اليوم بها الأنباء من مختلف أنحاء هذه البلاد . خلال ذلك تثير هذه الحركات خوف الشرق وتحرك حضارته القديمة المتدثرة اليوم بدثر كثيفة من الأوهام . وتقوى نزعات هذه الحضارة القديمة فى نفس امتلأت بآثار علم الغرب وحضارته ووهبت من لدن القدر شاعرية ذات قوة ليست فى متعارف الناس . ومن هذا الاحتكاك بين القديم الموروث والحديث المستعار تكون شرارة إلهام تتجلى خلالها كلمة الحق التى تفسر لغز الوجود لأهل الجيل الذى تقال فيه ، كلمة الحق التى تجتمع فيها مظاهر الحضارة الغربية المستعارة وهذا الأصل القوى الثابت من حضارة الشرق التى كانت دائمة الطموح لمعرفة كلمة الحق .

يومئذ ينفخ الشرق فى حضارة الغرب بعض آثار هذه الروح ، وإذا أهل الغرب يدخلون فى حضارة الشرق أفواجاً مؤصّلين لا مستعيرين . وإذا الشرق والغرب يتعاونان للخير والحق . وإذا ضياء باهر يفتح أبواب عصر جديد . وإذا الغرب ينادى مقدساً : المجد للشرق الذى قد أمدنا بروح قضينا الأجيال نلتمسه فلا نجده . والمجد للروح روح الخير والسعادة .

أحسبنى أرى هذه التطورات التى أشرت إليها والتى أومن بها رأى العين ، وأحسب الذين تبهرهم اليوم مدنية الغرب يرونها مثلى إذا هم أطالوا التفكير فيها ، وبحسبهم أن يفكروا فى مبلغ شعور أهل الغرب اليوم بما ينقص مدنيتهم من روح يسمو فوق المادة ولا يخضع الخضوع الأعمى

لمذاهب الاقتصاد ليوقنوا يقيناً بأن العالم تضطرم اليوم بين أحشائه حياة جديدة لا سبيل لها إلى أن تبدو إلا أن ينبعث فى العالم نور جديد غير نور العدمية وهذا النور الجديد عما قريب سيضىء ، ومن الشرق سيكون مطلعه .

الفصل الثالث

البوذيّة *

١ – الأصول

كان الآريون حين انحدروا من مضايق كابول إلى بنجاب أشبه الناس بالعجم ، على ما يصفهم « هيرودوتس » ، أو بالجرمان على ما يصفهم تاسيت : قبائل بين البدو والحضر معظم مدرار ثروتهم قطعان الثيران والبقر ، ولهم قرى ومنازل ، وهم على علم بالزراعة ، فكانوا كما كانت شعوب الأرمن والسيروس على حدود ما بين حياة الترحال وحياة السكن يحكم كل أسرة أبوها ، ويقود كل قبيلة ملك أو رئيس حرب . ولم يكن عندهم فرق ولا طوائف إكليروس ، بل كان كل أب يقوم بالوظيفة التعبدية فى بيته ، وكانوا ذوى أخلاق ساذجة حرة صحيحة كتلك الأخلاق التى يجدها الإنسان فى أصول كل شعوب ذلك الجنس الآرى . ولم يكن للأوهام الصوفية المريضة أى أثر فيهم ، بل كانوا على العكس من ذلك ذوى عواطف كلها رجولة وشرف ، تنصرف عبادتهم للآلهة إلى طلب القوة والمجد والنصر والغنيمة .

---

* هذا الفصل تلخيص للترجمة الفرنسية التى قام بها الكاتب الفيلسوف هيبوليت تين لكتاب البوذية للكاتب الألمانى الشهير كوبين .

فإن بحثنا عن الصفة الخاصة التى كانوا يمتازون بها عن باقى الأجناس التى ترجع إلى الأصل الآرى وجدناها متجلية فى تخيلهم البالغ أبعد حدود الدقة ، وأعجب مظاهر النماء – فعندهم وحدهم توجد الأساطير فى هذا الصفاء وذلك الامتداد ، حتى لكأنما خلق هذا الشعب ليرى آلهة فى كل الأشياء ، وأشياء فى كل الآلهة . يعبدون السماء المضيئة ، والنور اللألاء الذى يعم الأشياء وينفخ فيهاالحياة . ويعبدون الصاعقة الرائعة ، والرعد المحسن الذى يشق السحب فيفك الأمطار المخصبة من إسارها . ويعبدون الشعاعين التوأمين ينبعثان من شواطئ الآفاق بشيرين بعودة الضياء . ويعبدون حمرة الأفق . والفجر الأبيض ينسل من خلال الظلام قبيل مطلع الشمس ليكشف صدره أمامها كشف العروس عن صدرها أمام زوجها . ويعبدون « آنى » – وهى النار التى يثيرها احتكاك العصى بعضها ببعض – آنى « اللابسة ثياب الإبداع ، مختلفة ألوانها متعددة أشكالها بديعة تعم الأرض ، تخمد وتشب وكثيراً ما تهرم ثم يعود إليها شبابها » ويعبدون الرياح والأنهار ومختلف مظاهر الشمس . وبالجملة فهم يعبدون كل ظواهر الطبيعة على حالها فى نقائها وصفائها . لا على صور الإنسان كما جعلها « هوميروس » . ولن يستطيع الإنسان أن يتخيل مبلغ ذلك النقاء والصفاء قبل أن يقرأ الفيدياس ، فليست الأساطير عندهم سراً خفياً ، وانما هى أشياء واضحة جلية . بل هى تعبير وإيضاح . ولن ترى لغة أبلغ ولا أسلس من لغتهم . تعطيك صور السحاب وموج الهواء وانتقال الفصول وكل ما للسماء والنار والعواصف من أحداث . ولم تلق الطبيعة وسطاً ألين مرونة ولا أحسن ملاءمة لتظهر فيه بمختلف مظاهرها غير المنتهية ما لاقت فى هذا الحيز . ومهما يكن للطبيعة من استحالات ومظاهر فإن الخيال البوذى ليس أقل

منها فى ذلك . فليست له آلهة ذات شخصية ثابتة ، ولكنها تستحيل ويمتزج بعضها ببعض . ففارونا [1] هى « أندرا » ، لأن الرعد هو السماء الصاعقة وأندرا [2] هى « آنى » لأن الصاعقة هى النار السماوية . وكل واحد من هؤلاء الآلهة هو الإله الأعلى . وليس لأحد منهم شخصية معينة ؛ إذ كل واحد ليس إلا لحظة من لحظات الطبيعة قدّر حسب حال التصور أن يشتمل صاحبه أوأن يشتمله صاحبه . لذلك كانت الآلهة متعددة بالغة فى الكثرة . فكل لحظة من لحظات الطبيعة ، وكل حال من أحوال التصور قد تنتج إلهاً هى الأخرى . والشراب الذى يقدم للآلهة والصلوات والأدعية وكل طقوس العبادة تنتهى بها الحال لتكون قوى وآلهة تنادى وتوقر ، وحيثما وجدت قوة – والقوى توجد فى كل مكان – فالآرى يقيم إلهاً لا على أنه شخص ، ولكن على أنه قوة . وهذا العمرى جمع عجيب بين التعمق التجريدى والإحساس الشعرى ، بل بين الصلاحية لفهم الطبيعة والميل لتمثيلها وتصورها . ولم يثبت جنس من الأجناس أول قيامه ما أثبته الجنس الآرى من هذا الذكاء الدقيق الحساس المتحفز لإبداع خلائق محيطة غير متناهية المستعد للانثناء والاختفاء تحت النماء الخصيب الذى تنموه آلهته .

ليسمح القارئ بالتدقيق فى ملاحظة هذه الصورة من صور الذهن القديم . فإذا أضيف إليها المركز الجديد الذى أعده الغزو والطقس للشعوب الآرية إذن لأحطت بالسببين الشاملين كل ما سواهما الحاويين

---

(١) وهو الرعد

(٢) وهو السماء

موجز شأن الجنس الهندى وفكرته ، وإذن للمست القوى التى لن تزول ، والتى توجه زوبعة الحوادث الإنسانية والإرادات الصناعية البشرية والتى تقيم النظامات وتبعث الديانات وتنشر الأفكار وتقرر الأخلاق فلا يستطيع حادث وقفها ولا يقدر مجهود شخصى على قهرها ،والتى تقضى على مئات الملايين من الخلائق بالذل وفساد الخلق والخيال واليأس ، وإذن يحيط الإنسان بواقع الحياة الهندية العظيمة الفظيعة . وما كان لنا أن نبتهج هنا ابتهاج سيبيون بمنظر المذبحة التى خلطت ما بين أشلاء جيشى ماسينا وقرطاجنة ، فلسنا من الرومان ، بل نحن رجال يأخذنا الإشفاق كلما فكرنا فى مصيرنا وفيما قدر لنا . ولو أن شيئاً بالغاً فى العظمة يدعونا للتفكير فيما قدر لجنسنا أن يحتمله لكانت تلك المآسى الصحيحة غير الملفقة مسرحها نصف قارة ، ومداها ثلاثون قرناً ، وأشخاصها قوى القدر المحتوم تتطاحن أرزاؤها خلال بؤس تسعين جيلاً من الأجيال الإنسانية ، ودموعها تنهمر من غير أن تهدأ إلى غاية .

تقدم الآريون على مهل من السند إلى الجنج وجعلوا يخضعون لحكمهم السكان السود ذوى الشعر المسطوح . ولما كان هؤلاء الهمج الذين أحتلوا شبه الجزيرة عرضة لأمراض جلدية فظيعة ، وكانوا يعبدون الثعابين وشياطين الهواء ، فقد عاملهم الغزاة كأنهم قطيع من الحيوانات الخسيسة وظلت الحروب أزمنة طويلة استقر بعدها القادمون إلى عصر يشبه عصور أوربا المتوسطة التى أعقبت غزو قوط الأربك ولبارودى البرات وأفرنجة كلوفيس ، وأحلت بينهم حياة الاستقرار محل حياة الترحال ، وقام النظام البطركى (الأبوى) مقام الإمارات الحربية وتميـــز الطبقات . فجاء فيما بعد طبقة الأشراف والغالبين طبقة الجنس الخسيس المغلوب من (الكودرا) —

وهم جماعة العبيد من الزراع والصناع والعمال الذين خضعوا للغلب . وجاء من دون هؤلاء الأجناس المطرودون والهمج المتوحشون الذين أمتنعوا على الجمعية الجديدة واحتموا منها بالمغائر والجبال والمستنقعات ، ثم انقسم الجنس الغالب بعد ذلك بقوة الظروف وانحط مجموع الأمة من العاملين إلى مركز دون مركز الأسر المحاربة التى لزمت التمرن على الأسلحة ، ودون مركز الأسر الدينية التى أخذت على عاتقها الأحتفاظ بطقوس العادات وأدائها . وقد أدى هذا النظام إلى انفصال الأعمال ، كما أدى الغلب إلى انفصال الأجناس وبدأت الفرق تتكون وجعلت الفوارق بينها تقوى وتعظم . ثم حدث من بعد ذلك حادث حاسم أدى إلى تقديسها وبالتالى إلى تخليدها . فقد قامت بين الفرقتين الرئيستين : فرقة البراهمة وفرقة الشاترية ، حرب استعلاء كالحرب التى قامت بين الجلف والجيلان ، ثم انتصر فيها البراهمة بسبب استنادهم إلى الطبقات الوضيعة . وكان نصراً أتم مما حازه البابوات ضد الهوهنستوفن . وقد ترتب على ذلك استئصال الشاترية لولا أن التجأ القساوسة لاستبقاء فرع عقيم منهم مخافة أن يبتلعهم الفناء بعد إذ وقفت جمعيتهم المتداعية على حافة مائلة لتنهار فيه . وقد أصبح أهم ما للملوك والشاترية من وظيفة أن يباركوا البراهمة حماية لهم ، وبذلك طبعت الجمعية بالطابع الدينى وأصبح انفصال الفرق أمراً مقرراً ، وانقلبت الأنظمة المدنية قواعد دينية ، وأخذت الحكومة الشكل الدينى ، والعقل الدينى كذلك ، وظلا محتفظين به إلى وقتنا هذا .

ولتفوق البراهمة هذا أسباب مختلفة ، منها : تغير الخلق الآرى تحت تأثير الطقس . فإن شمس الهند قاسية فظيعة لا يطيقها أحد ورأسه عار إلا السكان الأهالى سود الجلود . فإذا جاء تحت هذه السماء المحرقة شعب

أجنبي آت من بلاد معتدلة ، بل باردة رأيته لا يطيق المرانة الجسمية ، بل يبدأ عنده الميل للراحة والكسل ، وتتلاشى عنده حاجات البطن والمعدة وتفتر عضلاته وتصبح أعصابه سريعة إلى التهيج ، وذهنه أميل إلى التأمل والحلم . ينتهي ذلك بتكوين هذا الشعب الغريب الذى يصفه السائحون اليوم لنا : حساسية إنسانية مرتعشة ودقة فى التصور عجيبة ، وروح واقفة عند حدود الجنون ، قادرة على كل اضطراب وكل ضعف وكل إغراق ، مهيأة أن تنقلب أمام أتفه الصدمات ، مجاورة للأفن والهوس ونوبات الجنون ، وخيال يموج بأحلام فظيعة تنشر الرجل وتطويه على نحو ما يطأ الرجل الضخم الدودة الحقيرة . ولم يجد الدين فى الطبائع الإنسانية مثل ما وجد من الصلاحية فى هذه الروح لينمو ويترعرع . لذلك نما غراسه وتأصلت جذوره وامتدت فروعه وانقلب الطبع الشعرى إلى نظر باطنى أساسه وحدة الوجود ، فتضامت الآلهة الكثيرة المتفرقة تحت حكم ثلاثة آلهة ذوى سلطان هم : « فارونا » فى السماء ، « وأندرا » فى الهواء ، « وآنى » على الأرض . ومن وراء هذه الآلهة الثلاثة ظهرت الروح الكبرى التى تعمل بواسطتها لإحياء الأشياء . وتلك هى الشمس . ثم يستمر التفكير التجريدى العميق فى سبيل تقوية الطبيعة الحارة الدائمة التجدد والسيولة حتى يستبعد هذه الشمس المحسوسة ويستظهر القوة العليا من خلال الأشكال المتغيرة ويقرر : أنه لم يكن فى البدء إلا الموجود غير المحدود ، الموجود النقى غير ذى الشكل ، وأن كل شىء كان مختلطاً به وأنه كان مطمئناً فى الفراغ ، وأن هذا العالم نتج بقوة فكرته . أما عن ماهية هذا الموجود فقد وصلت المثابرة والجد بالأبحاث الفلسفية لا نتزاعه من دائرة الطبيعة المحسوسة ووضعه فى سلطان القساوسة . فقد كانت النار التى

أوقدها البراهمة واستبقوا عقيدتها من بين الآلهة القديمة أيضاً ، لكن هذه النار بالرغم من عظمتها كانت محسوسة بحيث لا يمكن أن تكون الموجود العام النقى الطاهر . لذلك أخذ أحد أسمائها – البرامانسپائى ، أى ملك العادة – فصار إلهاً مستقلاً غير مادى ، وصار يزداد أهمية شيئاً فشيئاً حتى اشتمل كل ما سواه . ثم بتر من هذا الإله برهمة جديد أبعد عن المادة وأغرق فى جوهر العبادة التى أصبحت الموجود الأول لاشكل له وهو لكل شيء مشتمل . وكذلك اختلطت العبادة بمبدأ العوالم وبالإله الأعلى . وسبب ذلك أن التضحية والكلمة المقدسة والعبادة لم تكن عند هذه الأذهان المهتاجة مجرد دعوة والتماس ، بل كانت قوة ظاهرة متسلطة . وقديماً اعتقد هؤلاء الناس أنهم يلزمون الآلهة الطاعة بواسطة هذه العبادات ، وبالغوا فى تصورهم لذلك حتى حسبوا أن ليس للعبادة دافع . لذلك ألهوا « مونة » البناء والعصى ، كما ألهوا كل لحظة من لحظات التضحية ، ووصلوا فى تصورهم إلى جعل القوة التى يخضع لها العالم بأسره ماثلة فى الفكرة المتواترة . وقد جاء على لسان الملكة فى إحدى أغانى ربج : « إننى أنا الملكة وأول من يستحق التكريم . ففى مترا وأندرا وآنى والإسفانيين وكل من سواهم وأنا الحالَّة بالآلهة فى كل شيء ، والنافذة إلى كل شيء . بل أنا مبدأ كل الموجودات وكالريح أهب من كل مكان » . أما سادة هذه الكلمة وتلك العبادة فهم البراهمة ، وهم بذلك الآلهة على الأرض . ولقد قال برهمة فى إحدى بوراناته : Pourans : إنه يأكل بفمهم وأن لا أحد يعدلهم ، وأنهم الآلهة ، لذلك هم فى الذروة من كل الأشياء . وظاهر أن سلطانهم بين مثل تلك العقائد سلطان باق إلى الأبد .

والآن فلننظر لمـــا فى مجموع مذهبهم من أفكار ونظم ، حتى نرى

ماذا تكون الحيـــاة تحت تأثيرها . فبرهمة الـذى هو روح الأشياء والموجود غير المحدود ينمو ، ونموه هو العالم . وهذا النمو ليس منفصلاً عنه ، بل إن برهمة نفسه يسيل وينتشر ويخرج من نفسه خروج الجدول من النبع ، والشجرة من البذر ، والنسيج من العنكبوت . لكن هٰذا العالم الذى هو بالذات برهمة ليس إلا ذاته منقوصة مشوهة ؛ لأن ابتعاد المادة الأصلية عن أصلها أفسدها حتى صارت درجات تحولها المستمرة درجات إلى تزايد الفساد ، فبينا ترى الآلهة والنور فى الصف الأول إذا الصف الثانى فيه الناس والشهوات ، وفى الصف الثالث الحيوانات والنباتات والظلمة والمادة . وهذه المظاهر المتعاقبة من برهمة ليست إلا برهمة مهدوداً مضطرباً ساقطاً مستمرًّا مع تحوله فى سقوطه وتدركه . فالعالم إذن فساد ، والحياة شر ، والأرض قرارة بؤس وتعس . ولا كمال ولا سعادة إلا فى الوجود الجامد الخالى . وخير الخير لكل مخلوق أن يعود فينغمس فى برهمة الجامد Immutable الذى خرج منه .

هذه العقيدة تبعث بلا شك على اليأس المبرح وتدفع إلى النفس التقزز العام من الحياة ، وتدعو إلى إفناء الشخصية الإنسانية إفناء تامًّا . وقد كان ذلك هو الشأن فى أوربا حينما قامت مثل هذه العقيدة عند الإسكندريين والأغنوطيين وما سواهما من الطوائف المتصوفة وليدة الضغط الرومانى . على أن الذى زاد الطين بلة أن امتزجت بهذه العقيدة الهندية عقيدة شر منها . تلك هى أن الحياة ليست شرًّا وحدها ، بل هى شر يهوى الإنسان إليه من جديد بعد موته . فإن الأرواح تتنقل من جسم إلى آخر وفى مختلف أنواع الأجسام من حجر ونبات وحيوانات وآلهة ورجال بلا انقطاع ولا سكون مدى ملايين القرون من أرقى الدرجات إلى

أسفل الدركات تقذف بها خفاياها ، على مقدار دركات تلك الخطايا والتى تصل فى أتعس الأحوال وأدنئها إلى ثمان وعشرين جهنم تشق فيها بصنوف من العذاب رتبتها وهذبتها وأطالتها أوهام أشقياء وجلادين . ففكرة الشر الكائن المغروس فى أعماق قلب الأشياء ، المتضاعف المنتشر فى كل ما هنا لك مما يحيط بالحياة الإنسانية ، المتعاظم إلى ما وراء كل الحدود مما أبدع له الخيال الهائج المضطرب من مبتكرات الفظائع ، تلك هى الفكرة السائدة التى تثقل كاهلهم فى الحياة النظرية وتودى بهم فى الحياة العملية إلى شرور تتوارث معها جسامة وعظماً .

وسبب هذه الفكرة أن الاستبداد هناك تام شامل يحول من كل النواحى دون العمل ، ويشل الإرادة . وقد انقلبت الملكات الحربية أثناء هذا التوتر العصبى العام إلى استبدادات مطلقة ، وأدخلت صنوف التعذيب والإلزام والتخريب وكل ما إلى ذلك من مفاسد الحكومات الشرقية . وقامت الفوارق بين الطوائف منيعة لا يمكن تخطيها ، وارتبط كل بحظه ونصيبه وكأنما شد إليه بأغلال من حديد . زد على ذلك أن كل لحظة من لحظات الحياة وكل جزئية من جزئياتها نظمت حتى لم يبق للإنسان حرية فى حركاته لشدة ما قيده الاستبداد الدينى وغلله . وهذا الاستبداد أضيق خناقاً من الاستبداد غير الدينى . قطعت المخاوف الناعسة الأوامر والنواهى التى لا عدد لها والمقدسة كلها فى النفس المضطربة . ومن هذه الأوامر ما يرتب دقائق العقيدة وطقوسها ، ومنها ما ينظم الأدعية والصلوات والقرابين والغسل والوضوء والرغبات والبخور ، ومنها ما يعين ملبس وأخلاق كل طائفة . ومنها ما يرسم الذهاب والجيئة والنوم والملبس وخلعه والاستحمام والتطيب وسائر الوظائف الجسدية . فهذا كله يذكرنا بالأعمال الكثيرة

التى كانت تشغل القسيس فى ديره كل نهار أيام القرون الوسطى حين كان من الخطيئة أن يسرع الإنسان السير أو أن يرفع بصره إلى الكنيسة . وقد كان هذا الضغط لدى البراهمة مضاعفاً مئات المرات حتى لايعدله شيء . وما كان لذاكرة أن تعى مختلف الأوامر التى لا حصر لها ثم كان كل ترك لأى من هذه الأوامر خطيئة . وما كان لأحد مهما يبلغ من دقة انتباهه أن يجتنب موجبات الدنس . وكان كل دنس خطيئة . فلم تك ملامسة جثة الميت هى وحدها التى تدنس المؤمن ، بل كان يدنسه كذلك مجرد الاقتراب من أى مكان وضعت فيه أشلاء إنسان أو بقايا حيوان أو عظام أو شعر أو أظافر أو قذر ، كما كان يدنسه استعمال إناء غير طاهر وتنفس من شرب الخمر أو أكل الثوم . ويقابل كل خطيئة تكفير ووجوب الطهر بالماء وبروث البقر وتلاوة الأدعية وأنواع من تعذيب الجسد تبلغ أحياناً من الفظاعة أكثر مما بلغه تمثيل قسسنا أنفسهم . فمن قتل بقرة خطأً لزمه ارتداء جلدها والبقاء ملتحفاً إياه والإقامة فى آخر مرعى رعت فيه مدى ثلاثة أشهر ليل نهار . ومن شرب العرق عمداً لزمه أن يشرب من سائل يغلى حتى تحترق أحشاؤه وحتى يموت . فلعلك تستطيع وقد رأيت ذلك أن تحكم على مبلغ ما كان ثبت من الفظائع الدينية . فإذا ذكرت إلى جانب ذلك أن عندهم ثمانية وعشرين جحيماً مفزعة يهوى إليها كل من وقع فى خطيئة أو أهمل أمراً أو لم يتب توبة كاملة أو نسى أن يكفّر . ثم هو لا يخرج منها إلا ليتنقل تنقلا متعوساً طوال الدهر من جسم إلى جسم ليكون يوماً دودة وآخر ثعباناً أو حشرة أو رجلا زنيماً . وإذا ذكرت المخاوف الدائمة التجدد وآلام تلك الأوهام الهائمة المحتشدة إذن لفهمت الرغبة العظيمة فى الخلاص الأخير تدفعها

ثورة اليأس واندفاع الصيحة المضغوطة الثائرة .

وكيف السبيل إلى هذا الخلاص ؟ لقد بلغ من مسيس الحاجة إليه أن تعلق به رؤساء تلك الجمعية وأن أوضح القانون طريقه . قال ماتو : على البرهمى متى لاحظ أن عضله ضعف ، وأن البياض قد انسل إلى شعره ، وكان قد رأى حفيداً له ، أن يهرع إلى الوحدة هو وزوجته . ثم ليرُض نفسه على الحرمان وتعذيب الجسم وليلزم العبادة والصوم والسهر وليعرّض جسده عارياً إلى قوارس الطقس إبان فصل الأمطار ، وليقف بين أربع نيران تحت الشمس المحرقة أثناء الفصل الحار ، ثم ليعدم فى نفسه كل شهوة وكل شهية . فإذا تم له ذلك ترك زوجته وعاف صحبتها ولم يأكل إلا مرة كل يوم وعاش من إحسان المحسنين ومحا من ذهنه كل إرادة وكل فكرة محسوسة . ومتى صار كذلك بسيطاً نقياً طاهراً أصبح خالصاً من الشر . وذلك لا شك دواء يعالج به المرء نفسه . فإن الإمعان فى الجمود يقتل الحس ، والإمعان فى التلاشى يقطع على الإنسان سبيل الألم . بعد ذلك ولما تدعو إليه الوحدة من التأمل ينفتح طريق جديد تقوم عنده المبادئ التجريدية على أساس من النظر الفلسفى ، فينقلب المتصوفون فلاسفة وتتصادم فرق المتكلمين فيذهب بعض ، تمشياً مع العقائد القائمة إلى أنه ليس إلا موجود واحد هو برهمة ، وأنه غير محدود وأنه طاهر وأنه لا صفة له ولا شكل وأن الخلائق المختلفة ليست إلا تقلباته وتدرجاته . ثم يتخطون العقائد إلى أن العالم وهم ولا شيء موجود أصلاً خارج برهمة . وإلى أن العلم إنما هو معرفة العدم فى الأشياء ، وإنما ينتهى بالعاقل تأمله إلى عدم الاعتقاد بوجود خاص له ثم لا يرى إلا الموجود الخالى لا شيء وراءه ولا شيء خارجاً عنه . ويقوم إلى جانب

هؤلاء المفكرين « السنيين » مفكرون أحرار يتفقون معهم فى أن الخلاص هو الغاية . وأن الوسيلة إليه هى معرفة الوهم . لكن الأولين يحررون الإنسان من نير الطبيعة بتقريرهم أن الطبيعة لا وجود لها ، فى حين يحرره الآخرون بتقريرهم أن الروح جوهر بسيط نقى لا سبيل للطبيعة عليه . فالأولون يعدمون الشر بإنكار مسبباته فى حين يعدمه الآخرون بإنكار المجرى الذى يصل هو إلينا عن طريقه . لذلك كان خلاص الروح عند (الفدنتا) انغماسها فى الوجود المتشابه وعند (السنخيا) برجوعها إلى نفسها — هذه هى التأملات التى نزع إليها المعتزلة قبل مجىء بوذا . وإن السائح الذى يرى هؤلاء الناس على ما يصفهم الشعراء وقوفاً تحت شجرة من أشجار الموز ناحلة أبدانهم منقطعة حركتهم ثابتة عيونهم محتبسة أنفاسهم ليرى مشهداً فذًّا لا مثال له . فالفلسفة لم تكن هنا مثلما كانت عند اليونان ترويحاً عن الذهن وتسريحاً للفكر المطلق المنظم . بل كانت على خصبها وسعتها فى التفصيلات والتحليلات وفى دقة النظر ذات غاية ترمى إلى عمل من شأنه تحويل الإنسان نفسه بنفسه والجهاد لذلك جهاداً عظيماً يصل بالذهن إلى حدود الخيال والهوس لتمركزه وثباته عند نقطة واحدة معينة ودوام العودة إليها مدى الشهور والسنين . وإنك لتجد عند المتصوفة وسائل ميكانيكية لإثارة صور الهوس فى النفس . ولا عجب فتلك نتيجة المواقف العنيفة الطويلة المدى . فإن الإنسان يفر من الألم كما يسيل الماء من فوق المنحدر ، فإذا زاد به الألم وبلغ منتهاه استعاذ منه إلى كل ملجأ ولو كان قتل الحس بإتلاف الأعضاء إتلافاً منظماً ، أو كان الجنون بإتلاف عقله كذلك . ولقد كان من واجب كل من ارتفع بعض الشىء عن سواد الرهط الذى يعيش فيه أن يبحث عن ملجأ يحتمى به . وكان كل

حكيم راجح العقل يخلق لنفسه ملجأ ويدعو الناس إليه . وبذلك تكونت طائفة كبيرة من الفلسفات والديانات والأنظمة والنظريات حتى ظهر أخيراً من جمع الكل ووجههم وجهة الطريق الحق : إلى السلام .

٢ – مميزات البوذية

لا يحرك الإنسانُ الناس بفكرة ولكن بعاطفة . وقد تدعهم أعمق النظريات وأدقها ثقالا ثم تخرجهم عن طوقهم نصيحة مبتذلة . وبعض العبارات المتداولة التى صرنا لا نهتم اليوم لها ظهرت فى الماضى اكتشافاً معجزاً قدس صاحب الوحى به . والجماعة المتألمة الطامحة كالرجل الطامح المتألم ، تأتيه بما شئت من نظريات متماسكة وأنسجة بديعة من المضاربات الفلسفية فتنزلق هذه الشروح عن ذهنه دون أن تخترق حجب نفسه وتراه يستمع إليك لحظة ثم يحييك تحية الرجل الكيس ليعود فينغمس فى أله ، على حين ترى كلمة متداولة تقال بلهجة مؤثرة تستدر دمعه وتدفع به إلى أحضانك مسلماً زمامه وإرادته . وكذلك الشأن فى أزمات الجنس البشرى . ترى الناس جميعاً ينتظرون كلمة معينة هى وحدها التى يستطيعون فهمها . أما الكلمات الأخر فتمر بهم وكأنها جلبة سخيفة تطن مضطربة حول آذانهم ، ثم لا يكاد يهمس بالكلمة المنتظرة هامس حتى ترى الناس جميعاً وقد أصاخوا لها وتلقوها وتناقلوها وأكبروها باجتماع أصواتهم جميعاً ، ذلك بأنها المقابل لحاجة عظيمة متغلغلة فى نفوسهم ، والأثر لتطور عام خفى ، ومظهر مجموعة ضخمة من التصورات والجهود المتسللة خلال قرون عدة

فى مختلف طبقات الجمعية وضيعها ورفيعها ، والآخذة بالأفكار المختلفة . . . فهى فى ظهورها كالنبع يثور متى لاقت ضربة المجلس طبقات الماء المضغوط . ولقد زعم الزاعمون أن « محمداً » كان ملفقاً —وحاشاه— ألف ما بين الإنجيل وآراء الفرق التى عاصرته . وأن « لوثر » إنما كرر بعبارات ضخمة ما سبقه إليه « جان هس » و « فيكلف » ، لكن الحقيقة أن هؤلاء إنما نطقوا فى عصرهم وأمتهم بالكلمة الفذة ونطقوا بها لا بشفاههم ولكن بكل قلبهم وبكل كيانهم ووجودهم . وذلك ما جعل لكلامهم قوة ولإصلاحهم قيمة . وذلك هو ما يجب أن يبحث عنه فى أحاديث « ساكيا مونى » وإصلاحه .

تنقل الأساطير أنه كان فى السموات بين الآلهة ، وأنه اشتمل على منتهى الفضائل برحمته وإخلاصه وتقواه ، وأنه جمعها فى متعاقب حيواته [1] ثم إنه اعتزم آخر الأمر لخلاص الموجودات الحية أن يهبط فى أحشاء امرأة فأجال طرفه فى العالم ثم اختار مياديفى وهبط إليها — ولم يمسسها رجل — فى شعاع مضىء ذى خمسة ألوان . ولما حان الحين ولد وتربى وزوج فى حجر المليك الذى كانت مياديفى زوجته . لكنه لما بلغ التاسعة والعشرين — وكان قد ذاق كل لذائذ الحياة — اختمرت أفكاره العظيمة فشعر بعطف على الخلائق وفكر فى خلاصها . وسبب ذلك أنه رأى يوماً فى طريقه وقد خرج من القصر إلى إحدى الحدائق هرماً مقوس الجسم أصلع الرأس مجعد الوجه مرتعش الأطراف . ورأى فى مرة أخرى مريضاً لا يرجى برؤه مهملا أمره مغطى جسمه . ثم رأى فى مرة ثالثة جثة بالية قد أكلها الدود ، فأنعم النظر فى هذه الأرزاء وخرج من تفكيره إلى أن الشباب والصحة

(١) جمع حياة .

فى الحياة ليست شيئاً مادام يأتى عليها الهرم والمرض والموت فأخذ ته الرأفة بحال الإنسان وجعل يبحث عن دواء لهذه الأمراض العضال . فلما خرج مرة رابعة رأى متسولا متديناً دله جد مظهره وبادى كرامته على طمأنينة نفسه . فاعتزم للحال أمام هذا المنظر أن يعتزل العالم . ولقد وضع أبوه حراساً حول القصر ليحولوا دون تركه إياه لكنه أفلت منهم واحتمى بالوحدة وظل سبع سنوات يعالج أقسى أنواع التوبة ويعانى الجوع والعطش والحر والقر والمطر ولا يطعم كل يوم إلا حبة من سمسم . ثم رأى آخر هذا الزمن أن الاستماتة تغشى على الذهن بدل أن تربيه ، فطعم حتى عاد قوياً جميلا وذهب إلى مكان نذر أن لا يخرج منه حتى يصير (بوذا) . هنالك جاء إليه « مارا » أمير هذا العالم وإله الحب والخطيئة والموت فهاجمه بكل أنواع الغواية مزعجاً إياه بدعوة سلاحه ، ومغوياً إياه بحسن فتياته ، لكن القديس ظل مطمئناً فلم تزعجه المخاوف « لأنه يرى كل الأمور حلماً ووهماً » ولم يستغوه الجمال ، لأن أجمل الأجسام لم تكن فى نظره إلا بعض فقاقيع الماء والخيالات الزائلة . عند ذلك انهزمت الشياطين وبدأ النور الداخلى ، فذكر تعدد ميلاده السابق وميلاد كل الخلائق فأحاط فى نظرة بالعوالم الهائلة التى لا عدد لها ووقف على السر الأبدى لكل الأسباب وكل النتائج ، واخترق حجب مظاهر التطور والتغير وعرف العدم الذى هو حقيقة مادة الأشياء ، ووصل إلى المبدأ الأسمى المؤدى إلى السلام .

ويتكون هذا المذهب من حقائق أربع : فالوجود ألم لا يستدعى الهرم والمرض والحرمان والموت . وإنما يجعل الوجود ألماً تلك الرغبة الدائمة المتجددة والتى تجد أبداً ما يحول دون ما ترمى إليه من الاتصال بالأشياء والتعلق بالشباب وبالصحة وبالحياة . إذن فيجب إعدام الرغبة لإعدام الألم .

ولإعدام الرغبة يجب أن نتخلى عن أنفسنا وأن نتخلص من ظمئنا الموجود وأن لا نشعر بانجذاب نحو أى شيء ولا لأى موجود ، تلك هى النظرية الأولى التى لم يتعدها « ساكيا مونى » على الأغلب . لكن التعمق فى البحث يكشف لنا عن فكرة تجريدية عميقة كانت أساس ما تلاها ، ولم يفت المفكرين الجادين الذين جاءوا فيما بعد استخلاصها . تلك الفكرة هى أن الحكيم يصل إلى التخلى والجمود حين يرى أن كل موجود يهلك لأنه مركب وأن هلاكه دليل على أنه ليس إلا مظهراً لا قوام له ولا قوة ، وظاهرة سائرة إلى العدم كالزبد يكون على سطح الماء ثم يفنى ، أو كالصورة التى تبدو فى المرآة . ومن ثم يصل إلى الاقتناع بأن الأشياء لا وجود لها وما دام الموجود لا وجود له فالميلاد لا وجود له . وبإعدام الميلاد ينعدم الهرم والموت والبؤس والآلام والأحزان والقلق والمشقة ، وبهذه الوسيلة تنعدم كومة الأحزان المكدسة . فإذا وصل الإنسان إلى هذا الشعور بعدمه تعداه الألم ، لأن الألم ليس إلا دخاناً كالوجود فى التلاشى العام . وعندئذ يتحور الإنسان ويصبح ولا حكم للحوادث عليه ، ويطمئن الطمأنينة الخالدة إلى فكرة الفراغ الذى هو أساس كل شيء وكنهه . وبذلك يصل إلى النرفانا ويصبح « بوذا » .

ذلك هو الطريق الفلسفى . لكن ثمة طريقاً آخر عاماً وجد التعساء فى بابه الواسع مدخلا للاحتماء بالديانة الجديدة التى كانت أكثر الأشياء ملاءمة للأرواح يومئذ ، فإن تخلى الإنسان عن نفسه خلق لضيق بالنفس إذا جمدت ، وعندئذ تفنى الأنفة والأطماع والشهوات الشديدة المتحاربة أو الآخذة المرء عن نفسه حتى لتدوس الرجل بقدمك فلا يغضب ولا يفكر فى القيام ، ويحسب طبيعياً بعدماسقط أن يبقى فى الأرض . فإذا حدثه

محدث عن نفسه خيل إليه أنه إنما يحدثه عن سواه لأنه لا يعبأ بذاته. ثم هو لا يهتم بالأشياء الجميلة أو البراقة ، بل يبقى أمامها فى جموده وهموده بسبب ما أصاب إحساسه من البلى وكذلك تراه على أتم استعداد لقبول مبدأ نكران الذات العام . فإذا قال « بوذا » : « اقتل الشهوة فى نفسك » كانت الشهوة وقد انعدم من قبل جلها . وإن قال : « اقطع تلك الصلة الأنانية الملتهبة التى تدفعك للتمسك بالأشياء » ، فإذا البؤس وقد جاء على آخر خيوط تلك الصلة . ولا عجب – والإنسان فى تلك الحال يوصى بالجمود والاستكانة – أن يستمع لمثل هذه النصائح : أمح من نفسك الكبرياء والحسد والغضب وابعد عن ملاذ الحس واقمع فكرك ، وخير أن يقمع الإنسان نفسه من أن يقمع نفسه ألف مرة ألف رجل آخر ، وكما تثبت الصخرة أمام العاصفة ، يجب أن لا يتأثر الحكيم بالمدح أو بالذم ، واحكم نفسك ولا تقاوم ولا تدافع عن نفسك ودع نفسك لتصاريف القدر وتخل عن نفسك ولا تهتم أبداً لما يثيرها . وقد التف ثعبان حول أحد العمال فأمسك العامل مسلته ليدفع عن نفسه ثم ذكر أن القتل محرم عليه وألقى سلاحه . ووهب ابن المليك فسانتارا كل ما يملك لأول سائل غير مستبق ذهباً ولا عبيداً ، بل ولا أولاده الذين غذاهم من دمه ، فلما فر الأولاد وعادوا إليه وهبهم ثانية ثم رآهم بعينى رأسه على أثر ذلك يجلدون بالسياط . وتلك هى الأمثال التى يخطب بها من أعلى المنابر إلى اليوم من يدعون لتقليد البوذيين . وجدير بالإنسان إذا وصل لمثل هذه الحال ألا يكون إنساناً وأن يكون حجراً يستطيع احتمال كل شيء ولكنه يعجز عن أن يحب شيئاً .

وفى هذا الاعتزال التام يجسد الإنسان منيته . لذلك لم يكن الخلاص الذى سعى إليه « ساكيا مونى » هو خلاص نفسه وحدها بل خلاص

الموجودات طرًّا . وقد كان يفكر فى أمرها مثلما كان يفكر فى أمر نفسه . وإنما هو خلاصها الذى أدى به ليعود بعد اتجاهه بكل نفسه مخلصاً للسماء فينغمس فى قرارة تعاساتنا وشقوتنا . بلى « أنت يا من أحطت الناس بالنعيم وشملتهم بالعناية ثم أصبحوا لك جلادين وقتلة فغفرت لهم . إيه سيدنا . لقد عطفت حينا كنت دبًّا على رجل ملأه اندفاع ماء الثلوج فزعاً فأخذته وأغدقت عليه من جذور الشجرة وفاكهتها وأحطته بكل صنوف العناية ثم ما لبث أن عاد ومعه رجال يريدون قتلك فغفرت له » . فإذا كان « ساكيا مونى » يسعى فى هذه الساعة كذلك لسلامه فما ذلك إلا ليرينا طريق السلام . ففكرته فى الألم تشمل آلام سائر الناس وفى قرارة حزنه يستكن العطف على من سواه . والعطف على الغير هو الكلمة المرجوة . هو آية الوقت والنبأ العظيم الذى سيرفع أولئك البؤساء من كبوتهم ويعزيهم عن مصائبهم . وهو الذى كانت تنتظره كل تلك القلوب الكبيرة أو البائسة . فإن الإنسان إذا وصل من الألم المبرح إلى أقصى غاياته وسقط إلى الدرك الذى لا صعدة منه فخمد نشاطه وتلاشت فيه شهوات الرجولة ، وهبطت روحه الرقيقة ونظامه العصبى إلى مواضع الاستسلام وعدم المقاومة بسبب ما أصابهما من المهانة ونضب دمعه لكثرة ما أريق منه وهامت على شفاهه المصفرة ابتسامة ضعيفة مكتئبة ثم أصبح لكثرة ما تألم فلا يفكر فى الألم فنسى نفسه وأهملها ، هنالك تراه وكثيراً ما يصعد إلى قلبه صوت رقيق عذب مؤثر وترى ذراعيه وقد هجرتهما قوة النضال يجدان بقية من القوة يمتدان بها نحو البؤساء الذين يبكون إلى جانبه . وهذه الحركة هى التى تهز القلوب وتحتكم فى الأفئدة وتبلغ بالنفس مكان النجاة : ولعمرك ماذا تهمنى الحقيقة المجردة أو الحجج الدامغة بعد ما انقطعت عن الرغبة وعن الأمل ، ثم

ماذا تهمني المضاربات النظرية العالية ، أو كيف لي أن أجاهد مع الجماعات النشيطة بعد ما أصبحت عاجزاً عن الوصول إلى فكرة وعن القيام بعمل ؟ كل هذا إنما هو للأقوياء لا لأمثالي العجزة الضعفاء . وكل هذا شديد وشخصي ضعيف فلا أطيقه بعد أن برحت بي الآلام حتى تركت العناية بنفسي . ولن أجد ضماداً لجراحي في تطبيق مذهب معقد رواقي تطبيقاً دقيقاً ، وإنما ضمادي أن تمر بي يد إنسانية مراً رفيقاً يجعلني أعتقد أن ثمة من بين سائر إخواني من يهتم بي ويرجو دوائي . وأن أرى معونة إخواني وتعزيتهم من واجباتي . فالشعور بهذا الإشفاق وتلك المودة ، وبهذه المراهم المشتركة المجتمعة ، هو الذي يسير بالناس وبالخلائق طراً نحو الطمأنينة والسلام ، وذلك هو الضماد الشافي . ولقد نشرت أنانية البرهمي والرواقي حول الحياة الإنسانية جواً بارداً محملا بثلوج الشتاء فجاءت هذه الريح الدافئة فأذابت الثلج في ألف موضع منه وأعادت إلى أعضائي المتجمدة المألومة حركتها . ففي لحظة ميلاد « بوذا » قامت بنفس كل الموجودات أفكار المحبة والتعاون وشعر بعضها نحو البعض الآخر بعواطف الأبوة والأمومة . ثم انقلبت الحوائل القائمة ما بين الفِرَق والطوائف والأمم رأساً على عقب ، ونادى « بوذا » إلى سلام الناس جميعاً من ملوك وعبيد وبراهمة وبغايا وطهر وأرجاس ومواطنين وأجانب رجالا ونساء . وانبثت رسله في التبت ومنغوليا وفي آسيا كلها لهداية عباد الوثن ، وكان الفقراء والوضعاء أفضل عند برهمة بدليل ما جاء في نصوص قديمة : « ليس هيناً أن يصل الكبراء والأصاغر إلى حظيرة السلام » . ولكن هذا الوصول أكثر مشقة على الكبراء منه على كل من سواهم . ولقد نادى صاحبه المفضل بغياً وأراد أن يشرب من يدها غير معتبر في لمسها ما ينجسه . وكان من بين المستمعين إلى « بوذا » كناسو الشوارع والمفلسون

والشحاذون والشيوخ الذين هجرهم أقرباؤهم وضعاف العقول والمقطعة أيديهم وأرجلهم والبغايا والغانيات والبنات اللاتى ينمن فى القذر ، بله اللصوص والقتلة . وكذلك كانت كل الرءوس الشقية أو المستبد بها تنحنى بين يديه رجاء نفحة روحية تنالها — وكانت تعاليمه توافق مزاج هؤلاء السامعين . فكان يعلم فى الطريق ويكلم أتباعه فى الأمكنة العامة ويقص قصص الحياة السابقة بلغة سهلة بسيطة ، ويحدث عن الخطايا وعن جزائها وعن أعمال الخير وعن مثوبتها . كل ذلك بلا نظريات ولا فلسفة ولا تمذهب ، ومن غير مطالبة بأى بحث أو تقرير أى عمل . بل كان كل ما يطلبه طمأنينة القلب وسكينته وأن يفكر الإنسان فى نقائص نفسه لا فى نقائص سواه ، وأن يقابل المساءة باللين ، وأن لا يقتل أحداً أو حيواناً ولا عدوًّا ولا مجرماً وأن يحتمل الشر ولا يرده ، وأن يتسامح مع كل مغايريه فى العقيدة حتى الهراطقة ، وأن يكون برًّا محسناً حتى إلى الأنعام — وبديهى أن فى هذه التعاليم ثورة تامة على العوائد والأخلاق أقامت على أنقاض شهوات الناس القديمة التى لم تترك أمامهم إلا الهمود والفراغ ، أملا أحيا فى أعماق نفوسهم قوة دافعة نحو العمل .

بعد خمسة قرون من ذلك العهد قام فى الغرب إخوان غزاة الهند بمجهود يشبه مجهود هؤلاء الغزاة ، جددوا على أثره مذهباً يشابه مذهبهم مشابهة لا تجد فى حوادث التاريخ أتم منها . وقد كان ما بين الفرعين القائمين على الجذع القديم من فروق ضئيلة راجعاً إلى ما كان عليه آريو الغرب من خيال أكثر توازناً وأقل عظمة ، ولما لقوه من طقس أكثر اعتدالا وأشد ملاءمة لمرانة العقل . أما فيما سوى هذا فكانت المظاهر العامة لمنتجات الفرعين متشابهة كل التشابه . وظلت أخلاق الرجولة وعوائدها حاكمة

مدى ألف سنة وخمسمائة على شواطىء البحر الأبيض حكمها فى شبه جزيرة الهند . فملّك الإنسان القوى المسلح الأرض وحرثها وأقام المدائن واستأصل الأجناس الوضيعة أو استعبدها ، وأنشأ القصائد والأساطير والعلوم والأخلاق والفلسفات ثم تربع معجباً بنفسه يشاهد مثالها فى قصص أبطاله وآلهته متصوراً كمال نعمته فى تكميل ملكاته وزيادة سلطانه . وكما طمح البرهمى ليكون إلهاً فى السماء فقد أراد اليونانى والرومانى أن يكونا إلهين على الأرض . ثم انهار عملهم جميعاً بالتغالى فى العواطف التى كانت سبب قيامه . فأصبح الإغريقى الشهم الكريم متكلماً سفسطائياً وتطاحنت المدائن الجميلة فيما بينها حتى ضعفت وسقطت فى قبضة البرابرة الهمج المحيطين بها . وأصبح الرومانى النشيط جندياً ثم عبداً لرؤسائه فانقلبت الإمبراطورية العظيمة التى امتد سلطانها بقوة ذراعه على عدد عظيم من الشعوب ، وصارت آلة استبداد منظم وقع هو كما وقع غيره بين عجلاتها ، وقد أهلك الاستبداد الأشراف بعد ما أهلك العامة وقامت القوة التى أعدتها الملكية العسكرية بين هذه النفوس الأسيرة حائلا حديدياً صلباً لا يفلح مجهود فى تحريكه . فلم يعد ممكناً أن يطالب الرجل بعمل ما كان يقوم به من قبل أو أن يكون قوياً جريئاً أو أن يدفع عن نفسه أو أن يرد بالعدوان عدواناً . ذلك بأنه وقع فى الفخ فتعطلت فيه تلك الجرأة القديمة المعروفة فى هذه الأجناس المحاربة الأنوفة — وقد بحث الباحثون يرجون علاجاً لهذه الحال فى البهر وفى الإنزلاق إلى الشهوات وفى الاستسلام المطمئن وفى الباطنية المشوشة وفى أحلام خلق الوجود وفى التأملات الفلسفية وفى سحر المشعوذين وفى نبوءة المرضى ، فلم يحرك ذلك كله إلا الذهن والعصب بينما كان هو القلب الذى يجب هزه بمس محرك جديد دافع للعمل . ولقد

تم ذلك فيما بعد على نحو ما تم فى الهند فأخذت الأخلاق وجهة جديدة كالوجهة التى أخذتها فى الهند « إذا ضربك أحد فلا تُجزِه جرحاً بجرح ، كأمر القانون القديم الذى يحتكم فى الناس من ألف وخمسمائة سنة والذى لم يخلق منهم إلا محاربين وغالباً ومغلوباً . فكذلك ليس يكفى أن تطرح الغضب وأن تنزل عن التأثر وأن تحقر المهانة وأن تحتمل الظلم صابراً على نحو ما يدعو إليه حكماء العصر . بل تلق برفق بين ذراعيك من ضربك وأدر له خدك الآخر ودعه يأخذ مالك وأعطه ما لم يأخذه وأحببه لأنه أخوك . فإن ثمة فوق هذه الممالك المنظورة ملكوت الله ، ملكوت الأمل الأسمى حيث لا ترى إلا رقة وتفانياً فى الغير مخلصاً ، وإلا قلباً واحداً هو قلب الآب الذى يحبكم ويحميكم . » وهذه هى العاطفة الكبرى التى أحيت الإرادة الإنسانية فى أوربا . وهى أكثر تحديداً وأقل تجريداً من العاطفة الهندية . فهى لا تمتد إلى الحيوانات ولا تعتمد على فكرة العدم العام . ولكنها أضبط وأصح من العاطفة الهندية لأنها تدع للعمل والأمل مجالاً أوسع ، كما لا تصل بالإنسان إلى السكينة الجامدة ولا للاستسلام الحسير والعدم الأخير ، لذلك كانت أشد ملاءمة لأذهان أكثر عملية من تلك الأذهان ، ولأرواح أقل من تلك الأرواح مرضاً ، ولخيالات أكثر اعتدالاً ، فهى أوربية وليست آسيوية . على أنها فى أوربا وفى الهند هى على كل حال مركز التقدم الإنسانى ، وعلامة الساعة التى يصبح فيها الإنسان وكأنه حيوان هذبه الألم وقهرته القوة بعد ما أسرف من قوته فيترك عبادة القوى الطبيعية ويستبدل بها إجلال القوى الأخلاقية ، ويتخطى فكرة الطوائف والفرق والامتيازات ليصور أمامه صورة إخاء بنى الإنسان .

٣ – النظـــر

إذا بذرت حبة نمت متأثرة فى نموها بعاملين مستقل كل منهما عن الآخر ، عامل القوى الداخلية التى تتكون منها البذرة ، وعامل القوى الخارجية المحيطة بها . فى دخيلة البذرة شجرة وجهتها النماء . لكن شأن الأرض والجو الخارجين عنها أن يعينا طريق نموها أو يفسداه . كذلك ترى فى كل دين فكرة جديدة لتصور الطبيعة ولتصور خطة سير الإنسان فى الحياة . وهذه الفكرة الجديدة تنمى نفسها بمجهودها الخاص . لكنها فى نمائها تتجه وجهة خاصة بتأثير الظروف المحيطة بها . فالإصلاح الأخلاقى يصبح رويداً رويداً لاهوتاً منظماً يسهل على الإنسان أن يميز خلال فروع شجرته الضخمة التى خرجت من البذرة الصغيرة بين ما نشأ عن البذرة وما جاء عن طريق الوسط .

فأما ما يرجع إلى البذرة فى النظر البوذى فاعتبار فكرة العدم مادة الأشياء وفكرة الخلاء (الفراغ) منشأ الأشياء وغايتها . وأما ما يرجع إلى الوسط فضخامة وتهتك الخيال الوفير الخصب الذى يكدس الأعداد والعوالم حتى يعتريه الذهول بين مضطربَ خلائقه .

وقد خلف « ساكيامونى » مبادئ أخلاقية وقصصاً مطمئنة كما خلف مبدأ التخلى قائماً على فكرة الخلاء . أما أتباعه الدينيون الذين أقاموا بعد الوحدة فى صوامعهم مسلحين بالفلسفة المحيطة بهم ومندفعين وراء ما يبدعه الخيال الباطنى فى تضخمه وانتفاخه فقد أقاموا مذهباً كالذى أقامه «دوريجين» و « دنيس » الأوريوباجى ومجموعة من الأساطير أشبه بأساطير « دانت » و « دفوارجين » .

ويرى أتباع « بوذا » أن ليس ثمة مادة أولى ولا مبدأ يتكون ولا إله خالق سبق الخلق . بل « إن القطع بوجود موجود أعلى خلق العالم وما يحتويه إنما هى من هرتقة المناقضين الست . ففكرة الموجود الثابت القائم بذاته تتنافى ومذهبهم تنافياً تاماً . وليس ثمة سبب أولى وإنما الطبيعة سلسلة لا تتناهى من الميلاد والهلاك واتصال لا نهائى بين أسباب هى النتائج ونتائج هى الأسباب وانحلال وتكون أزلى أبدى خالد . تلك هى وجهة نظرهم العامة التى وصلوا إليها مسوقين من جهة بفكرتهم الرئيسية ؛ فكرة العدم العام ومن الأخرى بمشهد الأشياء الدائمة التغير . ذلك بأنهم قد أطرحوا الأسباب الثابتة فلم يبق لهم إلا سلسلة النتائج المتغيرة وقد سار خيالهم فى هذا الميدان شوطاً سيرى القارئ الآن مداه .

فى الحيز اللامتناهى عدد غير متناه من العوالم . ولو أن الإنسان أقام جداراً حول حيز يمكن أن يسع مائة ألف مرة عشرة ملايين من هذه العوالم ثم رفع هذا الجدار إلى أعلى قمة السموات وملأ هذا المخزن العظيم بحب الفلفل لما ساوى عدد هذه الحبات نصف عدد العوالم التى توجد فى إحدى ممالك السماء . ويقوم فى وسط كل عالم جبل ضخم ذو سفوح أربعة : سفح من ذهب ، وسفح من بلور ، وسفح من فضة وسفح من زمرد . وهذا الجبل هو جبل (ميرو) الذى يرتفع تماماً أربعاً وثمانين ألف (يودشانا) فوق سطح ماء البحر وينزل مثلها فى جوفه . ويحيط بهذا البحر إطار من صخور مرتفعة يمتد وراءها بحر ثان تحيطه الصخور كذلك وتمتد بعدها بحار تحيطها صخور . ولكن البحار يقل عمقها والصخور يقل ارتفاعها حتى إذا كان البحر السابع والأرض السابعة التى هى أرضنا لم ترتفع الجبال أكثر من ست وسبعمائة (يودشانا) فوق سطح البحر . وهذه الأرض تشمل أربع قارات : القارة الشرقية وفيها يعيش

الناس مائتى عام وطول كل منهم ثمانى أذرع ، والقارة الغربية وفيها يعيش الناس خمسمائة سنة وطول كل منهم ست عشرة ذراعاً ، والقارة الشمالية وفيها يعيش الناس ألف سنة وطول كل منهم اثنتان وثلاثون ذراعاً . والقارة القبلية وفيها يعيش الناس مائة سنة وطول كل منهم ثلاث أذرع ويحيط بهذه المنطقة جدار شيد من الحديد تسطع من ورائه شمس أخرى ويمتد بعده عالم آخر . وتقوم فى وسط جبل ميرو من أسفل صخوة ضخمة نحتت فيها . ثمانى (جهنمات) . وفى وسطه من أعلى تبدأ السماء بعالم الرغبة مقام الآلهة الشامل لست سموات ماخلا الأرض ، ويجىء من فوقه عالم فيه أربع مناطق قسمت حسب مناطق الإلهام الأربع . ثم يجىء من فوق ذلك العالم الذى لا شكل له شاملاً أربع سموات كذلك . ويصل الخيال البوذى فى هذه العوالم الأخيرة حداً يكدس معه الملايين منها فوق ألوف الملايين حتى يبلغ جموعاً مدهشة يجعلها بعد ذلك أساساً يصدر عنه لتكديس ما هو أعظم وأضخم . ثم تراه يستمر على هذه الحال بلا انقطاع ولا رؤية حتى يضطرب الذهن ثم لا يدرك شيئاً .

كل هذه العوالم من أسفلها إلى أعلاها مأهولة بالخلائق . وفى أعمق دركاتها أهل (الجهنمات) الثمانى فى طبقات بعضها فوق بعض ويحد أحسنهم حالاً السكاكين والحراب مدى خمسمائة سنة . أما ما ينال الآخرين من فظاعة العذاب وطول مدته فمزعج مخيف . على أن الخلود فى العذاب للتكفير عن الذنوب ليس مقرراً إلا عند سكان الجنوب من البوذيين الذين يحكمون على المتشككة والكفار بالبقاء خالدين حول حائط يمتد فى بحر يحتل خلايا العالم ويلتهم أعضاءهم ويبليها . فى مقابل ذلك ترى البوذيين من أهل الشمال يضيفون إلى (الجهنمات) الثمانى الملتهبة ثمانى (جهنمات)

أخرى من الصقيع يصعد أو يهبط من حل به الجزاء أثناء هذه الأتونات بحسب ما يستحق . ثم يجيء البروناس فى درجة من العذاب فوق درجات أولئك ، جميعاً . والبروناس قوم من العماليق ناشفة أبدانهم ، قبيحة مناظرهم ، واقفة شعورهم ، ذوو بطون عظيمة لا تشبع ، وحلوق أضيق من سم الخياط يتعذبون بأفظع الجوع وأقسى العطش .ولا يكادون يسمعون « اسم الماء مرة فى كل مائة سنة » ويأكلون جثث الموتى أو ينهشون لحم أنفسهم . والبخلاء الذين لا يتقدمون لرجال الدين بإحسان هم الذين يصلون إلى هذه الحال التعسة . وتجيء الحيوانات فى درجة ما فوق البروناس ثم تجيء من فوقها الآزوراس وهى الأرواح الخبيثة عدوة الآلهة . وإلى جانب هؤلاء يجيء مختلف أنواع الشياطين من عمالقة غلاظ وقصار وثعابين ضخمة وزواحف لها رأس إنسان وغيلان لها رأس فرسْ وحيات وطيور وهى تغوص فى الماء أو تطير فى الهواء أو تسعى على الأرض أو تجاور الآلهة أو تقوم على سفوح ميرو . ولكل جنس منها مملكة ولكل مملكة ملك .
ثم يجيء الناس فى درجة ما فوق الشياطين وتجيء الآلهة على طوائف وأدنأ هذه الطوائف أندرا وإخوانه من الآلهة العاديين للبرهمة . وآلهة هذه الطوائف يقيمون مسلحين فوق قمة الميرو ويدفعون الشياطين السفلى من غير انقطاع .
أما السموات الأربع التى فوق ذلك فلا تمس عالمنا ولا تستضىء بشمس أو قمر بل بنورها هى . وفى هذه السموات توجد البوذات المقبلة التى تنتظر الساعة التى تتقمص فيها للمرة الأخيرة جسماً لتقوم بنجاة العوالم . وهذه المنطقة هى الأخرى واقعة تحت حكم « مارا » أمير الشهوات ومستغوى البوذات .
ولا سبيل للخلاص منه إلا بالارتفاع إلى المنطقة التى فوقها والدخول فى عالم الأشكال النقية . وفى هذا العالم وجد البرهمات ثم آلهة النور الصراح وهم

يغوصون فى بحر الإلهام الأسمى معفون من نير التفكير ، ويتخيلون من غير أن تتعاقب عندهم التصورات ، وفوق هذا العالم توجد الكائنات الطاهرة الفاضلة ومن فوقهم المخلصون الذين خلوا عن التحول وصاروا بمنجاة من الإحساس والألم . وفى الدرجة العليا تنفتح المناطق الأربع للعالم غير ذى اللون أو الشكل حيث تخفى الأجسام الأثيرة تعسها وتلك هى سماء البوذات .

وكل مادون هذه السماء الخالدة فى سكينتها واقع تحت حكم قانون التحول والتغير .

هذا ولم تطبق ديانة من هذه الديانات أثناء هذياناتها الشعرية مبدأها الأساسى من عدم ثبات الكائن بمثل ما طبقته الديانة البوذية من القوة ، ولا شرحت فكرتها المبدئية من أن كل كائن حى يحمل فى وجوده بذور موته بمثل دقتها . فهذا العالم ينشأ ويفنى ليحل محله سواه ليفنى هو الآخر ويجىء من بعده غيره ثم يفنى كذلك وهكذا بلا انقطاع ولا غاية . وكل نشوء وكل فناء يمتد إلى أجل من الزمان ما أعظمه . والدهر (الكالبا) هو الزمن الذى ينقضى بين إحدى تلك البدايات وإحدى تلك اللانهايات . وهذا الدهر بالغ من الطول حتى لو أنك أمررت قطعة من أرق حرائر برانس مرة كل مائة سنة على صخرة طولها وعرضها وارتفاعها ستة عشر ميلا وظللت تكرر ذلك حتى تصبح الصخرة وحجمها حجم بذر الأمبة « المنجو » لما انقضى ربع مدى الدهر . وهذا الزمن الكبير يشمل أربعة أزمنة دنيا يتم الهلاك فى أثنائها ستا وخمسين مرة بالنار وسبع مرات بالماء ومرة بالرياح . وقبل وقوع كل هلاك بمائة ألف سنة ينذر الناس به ولىّ يدعوهم للتوبة والاستغفار ، وأعظم مرات الهلاك هى المرة الأخيرة التى

تسببها الرياح « فهى تصل من الفظاعة إلى حد أن لا تبقى من العالم كله ذرة واحدة متماسكة . ويبقى الفضاء إثر كل هلاك خالياً عبوساً . حتى إذا حانت الساعة قامت ريح فشقت سحاباً فسقط منه المطر فأصبحت المياه شلالات فامتلأ بها الفضاء حتى يصبح أقيانوساً تحمى الرياح شواطئه ثم تستقر الأجزاء الصلبة من بعد ذلك وتجمد بفعل الرياح . وتنحسر المياه عنها فتظهر المناطق العليا : مناطق المخلصين والبراهمة والآلهة واحدة بعد الأخرى . أما سائر العالم فيصبح آهلا بعد ذلك بالخلائق العليا التى بقيت بعيدة عن تلك الصدمات ولما يتم بعد نقاؤها وتدرج هذه الخلائق يكون فى مراتب شتى : فهى تتقمص بادئ الأمر صورة موجودات بريئة سعيدة غير ذات شكل ولا جنس وغير محتاجة إلى شىء ، بل هى ثورية هوائية . ثم تثقل الأجسام من بعد ذلك وتفسد من غير شعور منها وترتكس فى حكم الرغائب والشهوات فتتقاصر حياتها إلى أربع وثمانين ألف سنة بعد أن كانت غير ذات نهاية أو تكاد . وهنا يتزايد الفساد فتقوم دعامات الملكية والحكومات والطوائف ويتدهور آلاف من الأحياء تثقلهم خطيئاتهم فيصبحوا ومنهم الحيوانات وشياطين الجوع ومن صبت عليهم اللعنة . وعند ذلك يصبح العالم كما تراه اليوم ويبقى كذلك ربع دهر يتراوح بين درجات مختلفة من الهبوط والنهوض متروكاً لنفسه طوراً وتعينه البوذات طوراً آخر . وفى خلال هذا الزمن تتراوح الحياة الإنسانية ما بين عشر سنوات وثمانين ألف سنة بحسب درجات شرور الناس أو فضائلهم – ونحن فى هذا الزمن فى عصر من أقسى العصور – وكذلك تدور عجلة الوجود الكبرى .

ولو نظرنا – ونحن فى ذلك الركن الصغير الضيق الذى تشبث به قوم على برزخ – إلى هوتى الزمن عن جانبينا وإلى وهدة الفضاء الهائلة حولنا ،

إذن لما رأينا فى كل النواحى إلا إمعاناً فى تجدد التطور الخالد تجدداً يجل عن كل حد .

أى قوة تحفظ ذلك التجدد ؟ هنا تظهر الفكرة الخلقية التى يقوم عليها المذهب من جديد . فهذه القوة هى الفضل والنقص وهى الموجودة وحدها ، والموجودة حيث يكون الوجود . وليس فى هذه الفكرة شىء يشابه الأفكار اليونانية أو المحمدية أو المسيحية أو الحديثة . فليس ثمة قدر مستقل يحكم حياة الكائنات وإنما يصنع كل كائن قدر نفسه بفضيلته أو برذيلته . وليس ثمة قوانين طبيعية تربط الحوادث وإنما يربطها القانون الخلقى . وليس ثمة إله مستبد يوزع الخير والشر بقوانين تحميه ، ولا إله عادل يوزع الخير والشر مثوبة أو جزاء ، ولا إله يدخل بين الفضيلة والسعادة أو بين الشقاء والشر ليفرق بينهما أو ليجمعهما . وإنما تتصل السعادة بالفضيلة طبعاً ، والشقاء بالرذيلة طبعاً ، كما يتصل الظل بالجسم . وكل عمل فاضل ، وكل عمل قوة من قوى الطبيعة . ومجموع الأعمال من فاضلة ومرذولة هو وحده مجموع قوى الطبيعة . « والنقص العام الذى يثقل مجموع الأحياء هو السبب الحقيقى لهلاك العالم . والفضل العام الذى تمتاز به كل الأحياء هو السبب الحقيقى لتجدد كيانه » . ويتصل كل عمل بصاحبه اتصال الثقل أو ما يضاده . فالعمل السيئ يجر صاحبه لا محالة إلى الدرك الأسفل ، كما أن العمل الصالح يرتفع لا محالة بصاحبه إلى عليا درجات العوالم . وعلى نسبة هاتين القوتين يتحدد مكان صاحبهما على أثر كل ميلاد ويتكيف حظه عند كل تقمص كما يكون رجحان إحدى كفتى الميزان بنسبة ما يكون فى كل منهما من الأثقال . فما دامت الروح تحت سلطان الشهوة فهى تولد من جديد . وكلما ازداد سلطان الشهوة عليها كانت

عودتها للحياة أتعس حالا وأشق ، والتعلق بالأشياء وما يترتب عليه من سيئ الأعمال هو وحده سبب تجدد الميلاد ، ويكمن فيه ذلك الثقل الذى يدفعنا إلى دركات هوة الحياة السحيقة الأليمة بقوة . ولهذا كان فى مقدورنا أن نتخطى القدر العام بإعدام هذا التعلق فننجو من تجدد الميلاد ونصل إلى الخلاص الأخير . وهذا مقام من الرفعة فى العالم بمكان ولم يوضع الإنسان فيه أبداً . والإرادة عند البوذيين قوة لا حدَّ لها تسمح للإنسان أن يصل إلى الذروة من الأشياء وأن يدخل النرفانا وأن يسمو إلى ما فوق الآلهة .

أما تلك السماء البديعة وهذا العالم غير ذى اللون ولا الشكل ، حيث تقوم البوذات الكاملة وحيث تنهزم الطبيعة ويتم الخلاص ، ففيها مناطق أربع : منطقة فضاء لا حدود له حيث تمتد الحياة عشرة آلاف دهر كبير . ومنطقة الحكمة لا حدود لها حيث تمتد الحياة أربعين ألف دهر كبير . والمنطقة التى لم يبق فيها شىء مطلقاً وتمتد الحياة فيها ستين ألف دهر كبير . والمنطقة التى لم تبق فيها فكرة ولا لافكرة وتمتد الحياة فيها ثمانين ألف دهر كبير . ومن بعد ذلك تمتد النرفانا واللاشىء الصراح والفناء الكامل . وتدرج المناطق على هذه الصورة يبين لنا خطوات تقدم الصفاء الباطنى . فترى التأمل يتضاءل ويفنى شيئاً فشيئاً حتى يصل رجل الدين بعد تركيز فكره عند نقطة ثابتة وبعد وقفات عدة إلى أن يطرد من ذهنه أفكار « المقاومة والشكل والاختلاف » وإلى أن يقصر تصوره على الفضاء الفرد الذى لا حد له ثم لا يلبث هذا الفضاء على عظيم بساطته أن يفنى هو الآخر ولا يبقى منه أمام نظر المتدين إلا الفكرة غير المتناهية ، أو بالأحرى التصور غير المتناهى ، ثم يختفى ذلك كذلك ولا يبقى أمام نظر المتدين شىء مطلقاً .

وعند ذلك يقف تصوره ولكنه لا يزال قاصراً عن الجزم بأن ليس ثمة شيء ، وهذا الجزم شيء فى ذاته ، فيعدم الجزم أيضاً . وعند هذا المرتقى لا تبقى فكرة ولا نفى لفكرة « بل يقف الفكر والتصور » ويكون الذهن قد أحل الفضاء فى نفسه ملاشياً . واحداً بعد الآخر ، الأشياء المختلفة والأفكار المختلفة وكل شيء وكل فكرة حتى تتبخر مادته وحتى يصل تحت هذا الامتصاص الشديد إلى درجة العدم الصرف . وتلك هى الغاية والتمام والكمال الأعلى . فالخير الأعظم ليس فى الخروج من الحياة فحسب ولكن من الوجود كله . وإلى هذا الخروج تصبو البوذات خلال ملايين تطورات وجودها فتبلغه بعد تضحيات وأنواع من الزهد لا حد لها ، من ترك المال والحياة والجسد ، بل ومن ترك جسد وحياة أقرب من يحبون من زوج وولد .

ويجب لكى نفهم مثل هذا المذهب أن نقلب كل عاداتنا الغربية رأساً على عقب ، وأن نمحو كل الألوان المظلمة التى تحيط بها فكرة الفناء ، وأن لا نعبر بما عبر به باسكال من أنا نوضع أمام بؤسين متعادلين حينما ندعى إلى « الاختيار القاسى بين البؤس الخالد والفناء الخالد » فإنما تلك قواعد تصلح للأجناس القوية النشيطة المتحمسة فى التمسك بمطالبها والتى تحفز جودة طقسها أو قسوته نفوس أهلها وتدفعهم ريح القوة وروح الأمل إلى الأمام . أما أساس المذهب فى الهند فقائم على أن التغيير يدعو للألم وأن الرغبة أس الشقاء وأن الحياة شر وأن فكرة السعادة تقابل الخلاص والطمأنينة . لذلك كانت الصورة المرضية التى تدور فى نفس الإنسان أثناء أحلامه أن لا يزعجه مزعج ، وأن لا يحس شيئاً ، وأن يبقى أبداً فى طمأنينة متشابهة . صحيح أن الأذهان الغفل وعامة الشعب ، وبنوع

خاص من سكان آسيا الشمالية الخشنين . أولئك كلهم لا يتصورون هذه العقيدة فى صفتها التجريدية ويأبون إلا أن يروا فى الترف طمأنينة مادية ونوعاً من السرور المحسوس . ولم يعارضهم أحد فى هذا التصور قصداً وذلك لأن كل مبدأ يراد به أن يكون عاماً مضطر للتوافق والتلابس مع سواد الشعب . على أن الفكرة الأصلية باقية على الرغم مما يغشاها فى بعض المواضع من التغيرات ، وهى كما هى لا تزال ذات جمال يجذب قلب الإنسان ويجعله يحس لذة كبرى حين يصور لنفسه هذه المناطق الرفيعة المطمئنة البعيدة كل البعد عن أن تصل إليها الاضطرابات الأرضية . وهذه الأجسام الأثيرية التى ترتفع من سماء إلى سماء فتزداد أثناء ارتفاعها طهراً ونوراً وهؤلاء السعداء تظل فكرتهم ثابتة مطمئنة خلال آلاف آلاف القرون ويشعرون أثناء ارتقائهم بتساقط حواجز وجودهم لتفنى فى الفراغ الهائل . وهم فى ذلك كنقط الماء تبقى آلاف الملايين من السنين تثلج وتسيل وتملح وتضطرب باضطرابات أرضنا العظيمة ثم تنتهى بأن ترتفع بخاراً يتهادى بديعاً تحت الشمس التى تحيله ذهباً ثم تزداد ارتفاعاً وندرة حتى لا يظهر إلا كالحجاب الشفاف الناحل ويستمر فى ارتفاعه بعد ذلك حتى إذا وصل إلى المناطق التى لا تصلها الضجة والتى ينتهى فيها التغير وتنتهى فيها المادة تلاشى فى فضاء الجو العظيم من غير أن يحس بتلاشيه .

ولقد وصلوا إلى أبعد من هذا مدفوعين بما يمتاز به النظر الهندى من التعمق الذى يصل من كل مذهب إلى أقصى غاية يمكن الوصول إليها . وإنهم والحق يقال نوابغ فى العبقرية التجريدية حتى لترى اليونان إلى جانبهم ، على ما بلغوا من دقة ، على جانب من الاستحياء والحيطة . والإنسان لاشك فى حل من أن يقول غير مبالغ إن الذهن الإنسانى لم يخترق

أعماق الأشياء وجوهرها إلا على شاطئ الجنج والأسيرى ، فقد طرحت المسائل العليا هناك من غير مبالاة بما يترتب عليها من النتائج الطائشة . أما فيما سوى ما هناك فلم يفكر أحد فى إمكان عرض هذه المسائل . وقد أقدم الفلاسفة البوذيون على المساس بالغاية التى يرمى إليها مذهبهم ، ولو أنك عالجت طبيعياتهم المبتذلة ومناقشاتهم العوجاء ووصلت من ذلك إلى تبين آرائهم العامة إذن لرأيت أنهم ، على الرغم من أسلوبهم ، ومن ثرثرتهم التافهة ، لم يخشوا شيئاً وأنهم فهموا كل شىء : فهموا إمكان حدوث التغير وإمكان كون الموجود مع محتم انقطاعه عن الوجود أو إمكان ابتدائه إذا لم يفن . وكيفية انقلاب كل من الوجود والعدم فى لحظة معينة إلى ضده بدل بقاء كل منهما على طبعه . وكيف نفهم أن جوهر الشىء ينحصر فى مناقضته لنفسه وفى إعدامه إياها ؟ وهذه المسألة الأخيرة نتخطاها نحن اليوم ، بل ولا ترد ببال الأكثرين من مفكرينا الذين يدعونها جانباً فى عالم الإطلاقات العقيمة المجردة مع أنها هى أم كل المسائل . وفيها فصل البوذيون - بقوة منطقية تدل على مبلغ إحساسهم بصعوبتها - قصدهم أن الوجود وكل الشرور تنتج عن اثنى عشر مبدأ ، وأنه إذا أمكن إعدام أحدها انعدم ما يتبعه مثلما يقطع الرجل الشجرة عند ارتفاع معين منها فيأتى بذلك على كل الفروع الناشئة فوق هذا الارتفاع . والجهالة هى السبب الأساسى للشرور . ولا يقصد بالجهالة ما تعارف الناس عليه منها ولكنما يقصد بها ذلك الخطأ الأصيل الذى يجعلنا نعتبر أن ثمة شيئاً حقيقيًّا . فذلك هو الوهم القديم وهو أصل الوجود وكل بلاياه . إذ ليس ثمة شىء حقيقى ، وليس ثمة وجود ، وإنما الكل فراغ وفضاء .

وعلى هذه النظرية بنى مختلف فلاسفة البوذيين وشادوا طبقة بعد طبقة .

فقرر بعضهم أن الأشياء لا وجود لها إلا فى البرهة التى تراها فيها . وقرر آخرون أن الأشياء لا وجود لها البتة وأن ليس من شىء خارج عن الإحساسات الداخلية . وقرر غير هؤلاء أن هذه التصورات نفسها لا وجود لها وأن ليس فى داخلنا ولا خارجاً عنا إلا اللاشىء والعدم المطلق – وفوق هذا الفضاء تموج مظاهر غاية فى الغرابة يمتد فى أقصاها سواد عظيم ساكن تنتشر فوقه خزعبلات بأشكال وألوان مضطربة . فمن اخترق أعماق هذه الحقيقة وجد أن لا معنى لكلمات الشباب والموت والنور والظلام والشكل والحجم والزمان والمكان ورأى أن كل الصور وكل الأفكار العامة ليست إلا أحلاماً مضحكة . وإذ ذاك يصير شأنه شأن البرهمى الذى يرى العالم سراباً خداعاً يموج على سطح الموجود الثابت ، وآلا كاذباً يلمع فوق العدم الخالد فى سكينته فيحتقره وينأى عنه بجانبه . وبذلك يتم خلاصه وتتحقق نجاته ويرتفع فوق كل الأعمال ويمسك بيده الحقيقة العليا . وتلك هى غاية ارتفاع الحكمة « وشرع الشرائع » والمذهب الكمين فى النفس بحيث لا تعتبر القواعد المتعارفة إلا تحضيراً مبدئيًّا . وأنت ترى أن ليس هنا من شىء ناقص ، فلا البحث الصوفى الذى يحسب الوقت ويقيسه إلى حد يذهل البحث دون ما كرس من إعداده . ولا البحث الفلسفى الذى يستخلص المبدأ ويتبعه حتى يصل عند منتهى قواعده إلى الذهول وسط كل ما أنتج بسبب عظم المجهود الذى قام به .

٤ – العمـــل

توجد فى الأنظمة كما توجد فى المبادئ قوة كمينة هى السبب فى نموها ، فالرسول يتحول ويتكمل كما تتحول كلمته وتتكمل حتى ينتهى الأمر بأن تقوم الكنيسة إلى جانب اللاهوت (الكلام) . لذلك ، فبينما يقوم القائمون بجمع المذهب وترتيب أجزائه وبالتعليق عليه بمعونة المنطق والخيال والعلم العصرى وبتفخيمه بالشعر وبتثبيته بالقواعد وتعظيمه بالفلسفة ، وبينما تصبح الأقاصيص والنصائح والخطب التى يلقيها المعتزلة تحت الشجر مجموعاً ضخماً من مضاربات نظرية تشمل كل ما فى العالم من منظور وغير منظور ، يقوم من الجانب الآخر من يعنى بوضع النظام وبتحديد واجبات أعضائه ووظائفهم وبترتيب ذلك وتوسيعه حتى يرى العالم حكومة عظيمة تقوم رويداً رويداً مشتملة الجمعية بأسرها فى دوائرها المتباينة . وكذلك تنتهى الحال بأن يقوم البناء الكنائسى . وقد قام العمل المستمر على مر القرون إلى جانب البناء الروحى ، يتقدمان جميعاً إلى الإرادة وإلى الفكرة الإنسانية ويتحكمان فيهما ويصبحان للإنسان ملجأ وسجناً .

والطريف والجوهرى فى نظام « ساكيامونى » أنه أنشأ نظاماً جامعاً للمتدينين . فقد كان المتصوفة والمعتزلة موجودين من قبله ، لكنه كان أول من جمع هؤلاء المشتتين فى وحدتهم بأن نادى إليه كل ذوى العزم من الرجال بلا تمييز بين جنس أو طائفة . ثم أنشأ منهم نظام متسولة اعتزل أهله الملك والأسرة ونذروا الفقر والطهر ، فكانوا النواة التى أظهرت اتفاق النظام الأساسى مع المبدأ الأساسى اتفاقاً يجعل الأول يقتضى الثانى اقتضاء ويظهره

محسوساً وينبنى عليه بدقة لا تجعل محلا للاختلاف بينهما إلا بمثل ما يختلف الظاهر عن الباطن . إنما تتكون مثل هذه الجماعة لتنزع الإنسان من أثرته وأنانيته فتسلمه إلى التقشف والزهد . لذلك كان من زهد من الجماعة متسولا دينياً .

وفى تلك العصور القديمة سمح للناس من كل الطوائف والمراكز والأعمار كما سمح للأرجاس والمجرمين والشيوخ والمرضى أن ينضموا للجمعية الجديدة ماداموا يؤمنون ببوذا أو يهجرون العالم ، أما المتدينون فلم يسمح لهم أن يلبسوا إلا ملابس قذرة مكونة من رقع تجمع من المقابر ومن فوق أكوام القذر ويخاط بعضها إلى بعض . وقد أقام بعض هؤلاء المتدينين فى الغابات ، والتجأ بعضهم إلى جذوع الشجر ، وظل آخرون فى الفضاء ، ونزل البعض فى المقابر . ذلك أنه كان من واجب المؤمن الصحيح الإيمان أن يشابه حيوان الغاب فلا يستقر إلى مأوى ويطعم غذاء فى غير المكان الذى أطعم فيه اليوم وينام أنى وجد . ولكن المتدين كان يحيط نفسه دائماً بجماعة من الصحاب ليؤدى ما كان مكلفاً به من تعليم الناس الحقيقة ودعوتهم إلى الدين الجديد . ثم تطورت هذه الجماعات الصغيرة المتجولة من غير شعور منها وأصبحت جماعات كبيرة ذات مقام ثابت . ونزل المعتزلون الملتجئون إلى الغابات من عزلتهم وتضاموا احتماء من شرور البراهمة . ولما كانت النساء كالرجال مدعوات لاعتناق الحياة الروحية فقد كن مدفوعات بطبيعة جنسهن للاحتماء فى الجدران ، واضطر المتقشفة أيضاً للدخول إلى المدن إبان فصل الأمطار . وبذلك انتهى أمر الجماعات الدينية التى كانت تعمل لإقامة الدين فأصبحت لها مراكز ثابتة . وعلى هذا النحو تكونت الطوائف وقامت الكنيسة . ثم انتظمت الكنيسة رويداً رويداً فرسمت قوانينها ووضعت قواعدها وقررت شرائط الانتساب لها .

وغالب الأمر اليوم فى من يتقدم لهذه الكنيسة أن يكون طفلا قد حلق رأسه واغتسل ليحضر أمام القسيس الذى اختاره أباً روحيًّا له فيبدى إرادته فى التنصل من الأشياء فيلبسه القسيس الثوب الأصفر ويقص له مؤخرة شعره ويلقى عليه القواعد العشر لدراستها . ويبقى هذا الفتى إبان تمرينه تلميذ أبيه الروحى وخادمه . فإذا بلغ العشرين من العمر وتعلم عدداً معيناً من الطقوس والصلوات رقى متديناً ودفعت إليه المظلة وتسلم الوعاء المعد لتلقى الإحسان وارتدى صدرية وقميصاً ينزل إلى ركبتيه ومعطفاً يعلق على كتفه الأيسر ثم ذهب متسولا يأخذ فى وعائه الطعام الذى يدفع إليه ويأكله فى الوعاء نفسه ، وذلك كل ما له وما عليه ، لأن القاعدة المقرر عليه اتباعها تدفع به إلى التخلى عن كل شىء .

وهو — جرياً على هذه القاعدة — يترك أهله ويصبح ولا وطن له . ويحتم عليه أن لا يبكى موت أبيه ولا وفاة أمه . ويظل ولا زوجة له ولا ولد . فإن كان له زوجة أو ولد تحتم عليه تركه لأن الخطر على المتعلق بزوجة أو ولد أو مال أو بيت أكبر من الخطر المتعلق على رأس المسجون المغلل فى الأصفاد . فقد تصادف هذا الأخير فرصة سعيدة تخلصه من سجنه على حين يبقى الآخر كمن يكون بين فكى نمر . ثم إن أعمق أصول الشر اشتهاء المرأة ، ولو أن فى الإنسان شدة وقوة مثل ما فيه من شهوة ما كان لأحد إلى الخلاص من سبيل . فلا تنظر أيها المتدين إلى النساء ، وإن لاقيت امرأة فاغضض من طرفك ولا تخاطبها ، وإن أنت خاطبتها فاذكر دائماً فى دخيلة نفسك أنك متدين وأن من واجبك أن تكون فى هذا العالم الفاسد كالزهرة النقية البياض . ويجب أن تنظر إلى المرأة العجوز وكأنها أمك ، وإلى من هى أسن منك وكأنها أختك الكبرى ، وإلى من هى أصغر

منك سناً وكأنها أختك الصغرى . والأوامر البوذية فى هذا الشأن عدة : فلا يصح لمس يد امرأة ، بل ولا يد فتاة ولا الدخول فى زورق تمسك امرأة بمجاديفه ولا أخذ الإحسان من يد امرأة .

هذا والأمر فى شأن التملك يوازى الأمر فى شأن الملذات صرامة وشدة . فليس للمتدين أن يمتلك سوى أشياء ثمانية : فالقطع الثلاث التى يتكون منها لباسه ، ثم مشد وسطه ، ووعاء الإحسان ، وقدر الماء ، وموسى وإبرة . وعليه أن يعيش من الصدقة من غير أن يطلبها وإنما يتقدم بوعائه من غير أن يحدث أى حدث أو حركة تدل على وجوده ، ومن غير أن يبدى أنه جائع ، ومن غير أن يطلب شيئاً بإشارة أو بحركة أو بكلمة . ثم إنه يرتكب خطيئة إذا هو أخذ أكثر مما يلزم لأكله . وليس من حقه أن يطعم شيئاً بعد الظهر أو أن يتناول الطعام للذته . وإذا مرض لم يكن له أن يطلب دواء . وليس له أن يأخذ ذهباً أو فضة أو أى متاع آخر ، فإنما للدير وحده حق التملك .

أما الأمر الثالث الخاص بالطاعة فالتشدد فى شأنه أقل منه فى شأن الأوامر الأخرى . ولئن وضعت القواعد المتدين تحت أوامر رئيسه وألزمته فى غير موضع الطاعة والاحترام فإنها كانت من ناحية أخرى تأمر بوجوب التوفيق وتعتبر كل قائل بالتفرقة بين المتدينين مرتكباً لإحدى الخطيئات الخمس القتالة .

ذلك هو الإنسان فى نظر البوذية العميقة ؛ غير أن للتهاون والفساد فى الحياة العملية ولا شك نصيباً . وقد عمل الجدل ليطوى القواعد طياً تتفق به مع الطبيعة كما انتشرت المفاسد التى نخرت أديرتنا أيام العصور الوسطى فى معابد سيلان والتبت والصين أيما انتشار . لكن ذلك كله لم

يمنع فكرة بوذا أن تتم ولم يحل دون نظامه أن يغمر الإنسان كما تغمر « المونة » البناء فتسد فيه كل منفذ يمكن أن تنفجر منه ينابيع الشهوة أو قوة الرغبة .

والآن فما هو مصير هذا الإنسان المنظم المخفف الشهوات . وماذا ترى عساه يصنع ؟ إن كل تغيير فى الطبيعة الإنسانية يجر إلى تغيير يقابله فى الجمعية الإنسانية ، ومصلح الفرد يصلح الجماعة بالتفاعل . لذلك جر تلطيف الفرد إلى إدخال السلام على الحياة الاجتماعية فحظرت التضحيات الإنسانية التى كان البراهمة يقومون بها وألغى حكم الإعدام بشهادة السائحين الصينيين الذين زاروا الهند فى العصور الوسطى وانقطع الناس عن التضحية بالحيوانات وهجر الملوك والأمراء الذين اعتنقوا المذهب الجديد مسارح الصيد الفتاك . ثم غلا المذهب بعد ذلك حتى لم يكفه منع حروب الاستيلاء فمنع كذلك حروب الدفاع . أما الصدقة فقد صارت واجباً يؤدى حتى إن ملوك البوذيين فى اجتماعهم العام كل خمس سنوات كانوا يعطون كل ما توافر لديهم ، بل وجواهرهم ، للمساكين واليتامى ومن لا عائل لهم ، وذلك عدا ما كانوا يعطونه للمتدينين . ثم إنهم كانوا ينشئون المستشفيات وملاجئ الفقراء والتكايا ويغرسون أشجار الفاكهة ويحفرون مجارى الماء للسائحين وعابرى السبيل . وكانوا يقيمون ملاجئ للحيوانات كما كان بعض الأتقياء فى سيام ومنغوليا يفتدون العصافير والأسماك ويعيدونها إلى حريتها . وكان غير هؤلاء يبنون ملاجئ يضعون فيها الطعام لحيوانات الغاب خصوصاً إبان فصل نتاجها .

على أن ما كانت تنطوى عليه هذه الجلدة الأخلاقية من التسامح كان يزيد أمرها غرابة ؛ فقد كان البوذيون حسنى الظن والرأى فى الديانات

الأخرى ، وكانوا يعتبرونها جميعاً أشكالا دنيا من الحقيقة الحقة حتى لقد أمر « درما سوكا » أول عظماء ملوك البوذيين و « قسطنطين » الديانة الجديدة بتبادل الاحترام والوئام بين جميع الطوائف وبأن يكون أتباع كل مذهب أغنياء فى الحكمة سعداء بالفضيلة ، ثم ذهب البوذيون لأبعد من هذا فامتدت عاطفة المحبة عندهم إلى كل الأجناس كما امتدت إلى كل الطوائف وصار الأجنبي يعامل بينهم كما يعامل ابن الوطن ولا يبعد ولو كان مبشراً مسيحياً . ولقد شرب السائح «تربز » الشاى فى وعاء كان يشرب فيه اللاما الأكبر . ولم يبق عندهم أطهار ولا غير أطهار .

وقد كان من أثر ذلك كله أن استفادت الحياة العائلية من احتكاكها بالقانون الجديد على الرغم من اعتباره إياها فى المحل الثانى ، فقد جاء فى هذا القانون : « خير أن يكرم الإنسان أباه وأمه من أن يخدم آلهة السموات والأرض . ولو أنه حمل أباه على كتف وأمه على الآخر مدى مائة عام لما جزاهما بذلك عما قدما إليه » فكذلك قد تحسنت حالة النساء وزال اعتبارهن رقيقات كما كان الشأن فى البلاد الإسلامية ، أو « أوعية رجس » كما كن يعتبرن فى البلاد البراهمية ، وسمح لهن بالخروج والتزاور وطرح الحجاب ، وأصبح الزواج من واحدة قاعدة وأمراً .

وليحيط الإنسان بكل التطور الذى حصل يتحتم عليه أن يلاحظ ما تم فى منغوليا والتبت وسيلان والممالك الأخرى التى امتد سلطان الدين الجديد فيها . فكلنا نعرف « جنكيزخان » و « تيمورلنك » وقسوتهما وتخريبهما ، ونعرف ما شادا من أهرامات حجارتها رؤوس الرجال ، ومن أبراج جدرانها الأجساد ومونتها الدماء . أما اليوم فجرائم القتل والنهب نادرة فى منغوليا ندرتها فى أوربا المتمدينة ، وكذلك أصبح اليوم أهالى التبت

– الذين ظلوا تحت تأثير طقسهم العبوس العقيم فى درك الوحشية المخجلة والذين كانوا يأكلون موتاهم كأنهم ذئاب الثلوج الجيـاع – شعباً رقيقاً متعلماً ، بل يكاد يكون متمديناً . أما أهالى سيام فقد رقت فظائع ضغنهم وخفت اعتداءاتهم الدموية وعنتهم وقسوتهم إلى حد أن لم يبق فى بانكوك – وهى مدينتهم الأولى يقطنها أربعمائة ألف من السكان – نزاع ولا شجار، وأصبحت جريمة القتل فيها حادثاً غريباً لا يرى أغلب الأمر مرة فى كل مائة سنة . والخلاصة أنك فى حل من أن تقول إنا لو جمعنا كل ما فى حياة آسيا المدنية والمنزلية اليوم من دعة ورقة لكان لنهر البوذية الحظ الأكبر من ماء بحر السلام .

على أن البوذية لطفت الإنسان باستهلاكها نفسه . وقد كان شأنها فى ذلك شأن الإنسان يصل بالحيوانات المتوحشة من أثوار وأعنز لتكون نعاجاً وعجولا . تحبس فى حظيرة لتعيش عيش الإخاء وتعاد إلى مرعاها ساكنة مطمئنة الخطى . فإذا صح أن هذه الحيوانات تصبح فى حالها الجديدة أقل من قبل إضراراً بعضها ببعض ؛ إلا أنها تصبح مع ذلك خلائق محتقرة وضيعة . ولو أنك قارنت الكتابات البوذية بالكتابات البرهمية لهالك الفرق من أول نظرة . فقد اندثرت فخامة شعر البورانات ، وخبا الاندفاع ، وخمدت تلك القفزات الذهنية التى كانت تحيط فى لحظة بالسماء والأرض والعالم كله وتشترك فى عظمة الطبيعة وخصبها ، واضمحلت عظمة الشعر ورواده ، وخفتت روح « مانو » العظيمة وذهبت رقة الرباعيات الشهية وولت تلك القوة النادرة التى كانت للعاطفة وللإبداع القديم . وأصبحت الكتب البوذية – ومعظمها من كتب القساوسة – مسهبة مضطربة تذكرنا بسقوط القرن الخامس عشر المدرسى وبهوس الثرثرة البيزنطية . ودل علم

تماسك الأسلوب على أن الإنسان أصبح لا يستطيع التفكير فجعل يعيد أدلته ويكررها بتطويل وإملال . وصار الحوار والجدل عنده أشبه بما يكتب فى كراسات التلاميذ ؛ ولم يبق له شىء من الآراء المحيطة العامة الملهمة للحظتها ، وانقطع كل جميل وكل عظيم عن أن يدخل إلى نفسه دخول البرق فى النظر . ووقف عند تكديس المكررات تكديساً يخيل إليك معه أنه جالس يعد ويعد ملايين الملايين حتى يذهل تحت أكداس الأعداد ، ولم يبق لبوذا على نحو ما يصوره البوذى فوق محرابه شىء من الرجولة وإنما هو جسد رخو سمين يشبه صدره وبطنه صدر المرأة وبطنها ، وينم مظهره عن سكون بليد وطمأنينة راضية يصلان إلى حد الابتسامة البلهاء .

من السهل أن يفهم الإنسان أن أمثال هؤلاء الرجال لا يمكن أن يكونوا قد وقفوا فى وجه السلطة ، بل ومدوا بأعناقهم للاستعباد مثلما فعل أهل القرنين الرابع والعاشر فى أوربا . وكما انشطرت الجمعية المسيحية فى القرنين الرابع والعاشر كذلك انشطرت الجمعية البوذية إلى شطرين : سواد الشعب وتلك هى الطائفة المنحطة التى ظلت مرتبطة بالعالم وبالأسرة وبالعمل وبقيت عاجزة عن الوصول إلى الدرجة الرابعة من درجات القداسة . والمتدينين وتلك هى الطائفة الرفيعة العاطلة غير ذات الأسرة والتى هجرت خيرات الأرض وشغلت بتحصيل الفضائل الروحية .

ورجل سواد الشعب مكلف أن يطعم المتدين . وقبول المتدين الإحسان من رجل السواد إحسان إليه . ذلك بأنه لو أتيح لأحد رجال الشعب أن يملأ بالجواهر السبع ألفاً من ثلاثة آلاف العوالم ثم قدمها لمتدين لما عدلت شيئاً إلى جانب الخزائن الروحية التى يشركه المتدين فيها بقبوله عطاءه . وكلما ازداد المتدين قداسة كان العطاء أكثر مثوبة . لذلك كان إطعام

متدين أكثر مثوبة من إطعام ألف من سواد الشعب المؤمنين . وطعام قديس من الدرجة الرابعة[1] أكثر مثوبة من إطعام ألوف من سواد المتدينين . وإطعام « بوذا » فى يد بوذيه أكثر مثوبة من إطعام مئات الألوف من متديني الدرجة الرابعة . وإطعام بوذا كامل أكثر مثوبة من إطعام مائة ألف من البوذات المبتدئين . ويكفى أن يلقى الإنسان النظر على هذا التدرج العددى وحده ليرى مبلغ ما كان لإكليروس البلاد البوذية من المكانة وما حصلوا عليه من ثقة . ثم إن السواد من أهل منغوليا والتبت المتحمسين كانوا يركعون أمام المتدينين المشهود لهم بالقداسة رجاء قبول ما يقدمونه لهم من النذور . وكان المتدينون والمتدينات يقدرون بخمس عدد سكان التبت وبثلث سكان منغوليا . كذلك نص فى الشرع على أنك تصل إلى أرفع درجات الحكمة إن أنت أكرمت اللامات ، كما أنك تضيّع ، إذا أنت واجهت المتدينين بإهانة ، كل ما كسبته من فضائل مدى آلاف عدة من وجوداتك » . وهذا النص يزيدك بياناً كيف كانت حال الجمعية الإكليركية فى سداها ولحمتها . فإذا أنت لاحظت أخيراً أن اللاما الأكبر يعتبر فى تلك البلاد صورة لبوذا وإلهاً على الأرض ، إذن لرأيت بجلاء مبلغ التحكم الإكليرى تحكماً يشابه ما كان فى أوربا فى القرن الثانى عشر حين وضع الإكليروس يده على ثلث الأراضى فى إنجلترا وعلى نصفها فى ألمانيا ، وحين أقام البابا نفسه سلطاناً على الملوك والقياصرة .

للطاعة وللوهم مصدر واحد . ذلك بأن الذهن المضطرب الأعصاب العاجز أن يحكم بنفسه سريع إلى أن تحتله العقائد الجنونية ، وهو يهوى إلى لجة الوهم والحلم بسبب حرمانه التمييز ، ويؤدى به ضعفه ليرتكس

---

(١) ارشا .

وسط التخيلات الصبيانية . وليس شيء يعدل أوهام البوذيين فى سرفها وتطرفها حتى لتجل معجزات الأسطورة الذهبية (La legende Dorée) عن الاقتراب فى السرف منها . فإنك تراهم يدكون الأرض دكاً ويتعذبون بسير آلاف ملايين الآلهة يتحكمون فى السماء والأرض ، كل ذلك مع الإسراف فى المبالغات الصبيانية والثرثرة القديمة العقيمة التى تسرع بك إلى التقزز .

والولى والقديس البوذى قدير على الإتيان بالمعجزات ، قدير على أن يحيط نظره بكل الخلائق وبكل العوالم ، قدير على أن يسمع كلام العوالم جميعها وكل ما فيها من ضجة . ثم هو عليم بأفكار كل الموجودات ، ذاكر لكل حيواته السابقة ولحيوات كل من سواه . وللبوذات المبتدئين والبوذات الكاملين ممن تسمو مرتبتهم على مرتبة الأولياء قوى أغرب وملكات أعجب . ولو شاء كاتب تسطير ما يمتاز به البوذا الكامل لامتدت صحائف كتابه من الأرض حتى تصل إلى سماء برهمة فيحسبه من علامات الجمال ، اثنتان وثلاثون علامة ممتازة وثمانون علامة ثانوية . ولذهنه ثمانى عشرة مستقلات Dependence وسبع وثلاثون مجموعة Accompagnements وأربع أسس ثقة وعشر قوى . فإذا انتهى البوذيون من تضخيم إلههم على هذا النحو عادوا إلى تحليله . وعادوا إلى ذلك بادعاء ثقيل يعيبون به اندفاعهم الأخرق .

طبيعى أن يؤدى ذلك كله بهم إلى الجمود وإلى العبادة الآلية . فإن الذهن المكدود ميال للاندفاع الأعمى فى هذه السبيل . وهو يميل إلى ذلك برغم ما وضع به صاحب المذهب السلام فى دائرة الإحسان والزهد وحكم النفس ، وبرغم تنزيهه الدين عن المظاهر الخارجية . ذلك لأنه ما دامت

النظرة الثاقبة الحرة التى تميز بين الشكل والموضوع مفقودة فإنما يستمسك الرجل بالشكل إذ يجد الإمساك بالشكل الملموس أهون من الإحاطة بالحقيقة غير المنظورة . ومن هنا تنقلب العبادة عنده تقديساً للأصنام فيركع أمام بوذا وسواه من الأولياء ويقيم لهم صوراً وتماثيل عدة ، ويؤدى إليهم فرائض العبادة ويقيم لهم الأعياد تيمناً ، ويبنى الأهرامات والمقامات للاحتفاظ بعظامهم وأسنانهم وأرديتهم وبالأوعية التى يجمعون الإحسان فيها . ويشترى الملوك رفاتهم وبقاياهم بأثمان باهظة . ويحج المتدينون من مختلف الأقطار الآسيوية ليسجدوا أمام آثار أقدام بوذا وليملأوا الكنائس المقدسة بالنذور . وإنك لتقرأ فى أسفار الحاجين من أهل الصين مبلغ ما يقاسونه من المتاعب والأخطار أثناء رحلات يقدمون عليها بكل تفان وإخلاص . وطبيعى أن ينتظر الإنسان من عقل وصل إلى مثل هذا الدرك أغرب الأمور وأعجبها . فالناس من كل الطبقات فى بلاد المغول والتتر رجالا ونساء يمضون يومهم فى تلاوة الأدعية لا يمنعهم عن التلاوة سير ، أو طعام ، أو لعب ، وأخص أدعيتهم الدعاء ذو المقطوعات الست .

وهم فى سيلان وفى المغول يتلونه أغلب الوقت بلغة لا يفقهونها ، وكلما ازداد الشخص تلفظاً بهذه الأدعية أو كتابة لها أو طبعاً إياها ازداد ثوابه . وقد جر الطمع فى هذا المزيد إلى استبدال الماكينة بالإنسان ، وذلك بأن ملئت أسطوانات مخروطية الشكل بأوراق صغيرة نقشت عليها الصلوات والأدعية وعرضت فى الطرق العامة وفى المعابد وفى المنازل ليديرها من أراد فيكسب من الثواب كأنه تلا كل الأدعية الموجودة على تلك الأسطوانات ، ومنها ما بلغت ضخامته حتى صارت صورة الصلاة المقدسة منقوشة مائة مليون من المرات وقد ناط بعض ذوى التقوى إدارة أسطوانة الأسرة بخادم

خاص كما أقيمت طواحين الماء والهواء لأداء هذه الوظيفة . ولقد دهش السائحون لما رأوا تدهور الحال العقلية حتى عند أهل الجنوب بسبب توجيهها فى هذه السبيل . فقد بدت سيما البله على الأكثرين من القسيسين حتى لترى أغلب هؤلاء التعساء يهذون أثناء سيرهم وتطوق ثغورهم ابتسامة الغباوة ونظرتهم خلاء ، أما حالهم العقلية فهى بمنزلة حال الحيوان أو تكاد . وبمثل هذا الوضع الدينى وتحت حكم هذا النظام يصبح الرجل صنماً .

هذه هى الديانة التى تعتبر الحادث الأكبر فى التاريخ الآسيوى — وبرغم أنها فى أصلها خلقة إنسانية صرفة فقد تطورت واختلطت على مرّ القرون . وما أطولها قصة دينية ؛ قصة تطورها التجريدى والقصصى وتقلباتها الوثنية (Payenne) والبرهمة . ومع أنها كانت هندية بحتة فى نشأتها فقد امتدت فى الشمال وفى الجنوب حتى شملت الهند الصينية ومملكة برما والصين واليابان والمغول وسيبريا والتبت وإيران وطوران . وقصة تقدمها الهائل وهزائمها الجزئية ونضالها ضد عباد النار وضد المسلمين والبراهمة والأشكال المختلفة التى تشكلت بها عند الأجناس المختلفة وفى المدنيات التى دخلتها أطول من قصة تطورها وتقلبها . ولو أراد الإنسان فى هذا الاضطراب المتموج الضخم الذى احتل أكبر القارات مدى خمسة وعشرين قرناً أن يستجلى وأن يحدد المظهر الأساسى لهذه الظاهرة لصح له أن يقارنها بعملية جراحية مفيدة ومضعفة أسيل فيها دم الحيوان الإنسانى ، وقد كان على نفسه قوياً قاسياً ، من أربع مفاصله فجعله ما ضاع منه ضعيفاً رقيقاً . وبذلك أصبح أقل نشاطاً وأكثر للاجتماع قابلية ، ومن ثم صار أقل خلقاً وأقل إتلافاً .

الفصل الرابع

غانــدى

١ – غاندى والسلام

لم يفكر « غاندى » فى السلام العالمى فى عشرات السنين الأولى من نشاطه السياسى . ولعله لم يفكر فى هذا السلام العالمى أبداً على النحو المألوف اليوم عند أنصار السلام فى الشرق أو فى الغرب . لكن نشاطه وتفكيره كانا يؤديان بطبعيهما إلى السلام . سواء فى داخل الشعوب ، أوفيما بين الشعوب .

وكان طبيعياً ألا يفكر « غاندى » فى السلام العالمى فى الأطوار الأولى من نشاطه فى جنوب أفريقيا ، ثم فى الهند . ذلك أنه ابن أمة كان يحكمها الأجنبى بالقوة المسلحة ، بعد أن استولى عليها كذلك بالقوة المسلحة . وكان « غاندى » يحسب – إلى ما بعد الأربعين من سنه – أن هذا الحكم الأجنبى قضاء محتوم فرضه القدر على وطنه ، فلا سبيل للتخلص منه ، إنما الخير كل الخير فى مداراتــه لاستخلاص ما يستطاع استخلاصه من براثنه لفائدة الشعب الهندى . فلما رأى هذه السياسة غير المؤدية إلى الغاية المرجوة منها تطور تفكيره شيئاً فشيئاً حتى انتهى إلى ضرورة جلاء بريطانيا عن الهند ، وإلى استقلال هذا الوطن العزيز عليه .

فلما بدأت نذر الحرب العالمية الثانية بدأ يفكر فى السلام وصيانته تفكيراً يتفق مع دعوته « علم التعاون فى غير عنف » على أنها أمضى سلاح لتحقيق غرضه الأساسى ، استقلال الهند وحرية بنيها جميعاً .

وقد كان التطور فى التفكير بعض ما تميز به غاندى عن كثيرين من الدعاة وذوى المبادئ الثابتة . صحيح أن أفكاره الأساسية لم تتغير ، بل بقيت ثابتة منذ بدأ جهاده فى جنوب أفريقيا إلى أن مات ، لكن هذه الأفكار الأساسية كانت تصور نشاطه العملى أكثر مما كانت تصور اتجاهاته الذهنية فى رسم المبادئ التى يراها واجبة لخير الإنسانية . أما هذه الاتجاهات الذهنية فكانت دائمة التطور . وأحسبها كانت ستبقى كذلك ، وأن العالم كان يفيد من تطورها الشيء الكثير ، لو أن حياته لم تختم بمقتله ، ولو أنه مد له فى الحياة إلى الأجل الذى كان يرجوه لنفسه .

و« غاندى » يقر هذا التصوير ويقرره . طلب إليه بعضهم أن يكتب رسالة يسرد فيها مبادئه التى تقوم عليها رسالته . فكان جوابه : « إننى رجل عمل ولست رجل فلسفة . وكلما عرضت لى مشكلة روَّيت فيها واستخرت الله وصليت له فهدانى إلى الخطة التى أنتهجها لمواجهة هذه المشكلة ثم وفقنى فى هذه الخطة كل التوفيق » .

لست أقصد من هذا إلى أن آراء « غاندى » واتجاهاته تناقضت أواضطربت . وإنما أقصد أن هذه الآراء أوالاتجاهات كانت دائمة التوالد . فهو لم يقف قط عند فكرة يكررها ويرددها ، بل كانت أفكاره حية حياة الإنسان وحياة الوجود ، تخلق كل فكرة منها ، فكرة جديدة وخلقاً جديداً يتطوران إلى فكرة وخلق جديدين تتصل كلها بالفكرة الأساسية التى وجهته منذ نشأته السياسية ، والتى لازمته طيلة حياته .

وهذه الفكرة الأساسية تتلخص فى كلمة واحدة : الكرامة الإنسانية ؛ الكرامة الإنسانية لكل رجل ولكل امرأة فى الحياة الفردية الخاصة وفى الحياة العامة ، والكرامة الإنسانية للجماعة فى القرية وفى المدينة وفى الولاية وفى الشعب بأسره وفى الجماعة الإنسانية أينما كان أفرادها وجماعتها . الكرامة الإنسانية يتساوى فيها الجميع بلا فارق بسبب الجنس أو اللغة أو الدين أو الطائفة أو اللون أو أى اعتبار آخر . الكرامة الإنسانية الأصيلة فى الإنسان بفطرته ومن يوم نشأته أياً كان العمل الذى يزاوله .

لم تكن هذه الفكرة الأساسية التى قامت عليها حياة « غاندى » ، والتى وجهت نشاطه ، نتيجة تفكير طارئ أو نظرة فلسفية خاصة ، بل كانت بعض نفسه وقوام حياته منذ مولده . تربى فى ضوئها ونشأ فى أحضانها . كان أبواه كريمى المحتد ، وكان أبوه حاكماً محبوباً ، وكانت أمة تقية ورعة صالحة . وكان أساس تنشئته الصدق . لما أتم دراسته الثانوية فى الهند وفكر بعض أهله فى إرساله لدراسة القانون فى إنجلترا عارض آخرون ، ثم لم توافق أمه على سفره إلا أن يقطع على نفسه عهداً فى ثلاثة أمور : ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يقرب امرأة . وقطع الفتى على نفسه هذا العهد ووفى به لأن الصدق كان بعض فطرته ، فكان يراه من موجبات الكرامة الإنسانية ، وكان لا يعدل به لذلك فى الحياة شيئاً .

فلما عاد إلى وطنه محامياً ثم ندب فى قضية إلى جنوب أفريقيا لم يلبث أن واجهته التجربة القاسية الأولى التى وجهت حياته من بعد . كانت القوانين والتقاليد فى تلك البلاد تفرق بين البيض والملونين من سكانها تفرقة تهدر كرامة الملونين ، فلا تبيح لهم أن يتساووا مع البيض

فى المتاع بما يشاءون من ألوان الحياة . وقضت التقاليد أن ينزع « غاندى » من مجلسه فى عربة الدرجة الأولى بسكة الحديد برغم أنه يحمل تذكرتها فأبى فألقى به من القطار فبات على طوار المحطة . وعومل مثل هذه المعاملة حين ركب مع جماعة من البيض عربة تجرها الجياد إلى جوهانسبرج . عند ذلك ثارت نفسه وأخذ يقص على بنى وطنه من الهنود ما أصابه فيبتسمون ثم يجيبونه بأنهم يعاملون بأقسى مما عومل ، وأنهم ألفوا هذه المعاملة ، وينصحون له أن يسكن إليها فلا سبيل إلى خير منها . وازدادت ثورته لما سمع . إن كرامته الذاتية لم تكن وحدها إذن هى التى تهدر ، بل كرامة أبناء وطنه المقيمين فى تلك البلاد ، ومن ثم كرامة وطنه . وكرامة هذه الجماعة الإنسانية الضخمة التى تضم مئات الملايين . كيف لا يدافع قومه عن هذه الكرامة . إن عليه أن يؤلبهم للدفاع عنها وأن يلتمس الوسيلة للظفر فى هذا الدفاع بما يريد .

ولكن ! كيف يؤلبهم . وأى سلاح ينتضيه معهم لمقاومة هذا العدوان على كرامتهم . إنه يعلم وإنهم يعلمون أنهم إن يفعلوا فيخلّوا بالنظام أخذهم القانون بقسوته ، ثم أهدرت مصالحهم ، ولم يجد أكثرهم لقمة العيش الذى اغترب عن وطنه فى سبيل الحصول عليها . أفيستطاع والحال هذه جمع كلمتهم ، وبث الطمأنينة فى نفوسهم وحملهم على الدفاع عن كرامتهم الإنسانية ولو فقدوا لقمة العيش . فى هذا فكر « غاندى » . وهداه تفكيره إلى ضرورة إقناعهم جميعاً ، أغنياء وفقراء ، تجاراً وصناعاً وعمالاً ، بأن الكرامة الإنسانية أغلى من المال الذى نكسبه من التجارة ، ومن الجاه الذى نجنيه من الغنى ، ومن لقمة العيش التى يتصبب جبيننا عرقاً فى سبيلها . وإن القوانين والتقاليد إنما تفرض عليهم ما يمرغ كرامتهم

الإنسانية فى التراب لأنهم يرضون تمريغها مقابل ما ينالهم من نفع مادى ، وأن الحكومة وجماعة البيض الذين يعاملونهم هذه المعاملة فى حاجة إلى عمل هؤلاء الهنود وإلى مهارتهم فى هذا العمل ، ولولا هذه الحاجة لما أبقوا عليهم ، بل لأخرجوهم من البلاد . وإن عدم تعاون هؤلاء الهنود عمالاً وتجاراً وصناعاً مع البيض ومع الحكومة يشل الحياة الاقتصادية من غير حاجة إلى أية مقاومة إيجابية أومخالفة للقوانين ، وإن سلطان القانون لا يمكن لذلك أن ينال هؤلاء المعتزين بكرامتهم ماداموا لا يرتكبون إثماً إيجابياً يحرمه هذا القانون ، وإن كرامة هؤلاء الألوف المؤلفة من الهنود رهن إذن بإرادتهم ، فإذا أرادوا المحافظة على هذه الكرامة لم تستطع قوة أن تنزلهم عنها ، بله أن تمرغها فى التراب .

ولكى يكفل النجاح فى تجنيد هذه الألوف المؤلفة من الهنود المقيمين فى جنوب أفريقيا أنشأ للعمال قرى على مقربة من أماكن عملهم ، وعاش هو وزوجته وأبناؤه معهم فيها ، وأنشأ لهذه المجموعة الهندية كلها جريدة تنطق باسمهم وتعلن على الملأ إنكارهم للظلم النازل بهم . بذلك أعد عدته للنضال فى سبيل الكرامة الإنسانية ثم بدأ نضاله السلمى البعيد عن كل مظهر من مظاهر العنف ، وبدأ يعلن فى جريدته أنه وأبناء وطنه لا يطلبون إلا الحق الطبيعى المعترف به لكل إنسان فى كل أمة متحضرة : أن يتساوى أمام القانون وفى الواقع مع غيره فى الحقوق والواجبات فلا يلزم بأداء ضريبة لا يؤديها غيره ، ولا يحرم من الإقامة فى محلة يقيم فيها غيره ، ولا يفرض عليه لون من الحرمان لا يفرض على غيره . بذلك يستطيع التعاون مع سائر المقيمين فى البلاد لخير الجميع . فإذا أبت القوانين أو التقاليد بعد أن تعترف له بهذا الحق فمن واجبه

لكرامته الإنسانية ألا يتعاون مع من يحرمونه من هذه الحقوق ، وأن يقف فى حدود عدم التعاون فى غير عنف ، فلا يخل بالنظام ولا يخرج على القانون . فإن أبت السلطات مع ذلك إلا أن تحرّم عليه عدم التعاون فمن حقه ألا يطيعها ، ولها أن تفعل به ما تشاء . لها أن تزج به فى السجون ، ولها أن تنزل به ما تشاء من عقاب ، فلن يوهن ذلك من عزمه ، ولن ينزله عن إرادته ، ولن يحمله على الخروج على ما أخذ به نفسه من عدم العنف . ولن يلجئه إلى مخالفة القانون .

وكانت هذه هى « الستيا جراها » : قوة الحق الدافعة من غير حاجة إلى أى عنف .

ونجحت الحركة واضطرت السلطات إلى مفاوضة غاندى ، وإلى النزول عن كثير مما كانت تفرضه على هؤلاء الهنود مما لا ترضاه الكرامة الإنسانية .

أترى هذا النضال الذى طال أمده سنوات سلاماً أم دعوة للسلام ؟ لا أظن أحداً من أنصار السلام فى عهدنا الحاضر أو فى العهود السابقة يجيب عن هذا السؤال بالإيجاب ، بل لعلهم يرون فى هذا النضال نوعاً من التمرد على النظام القائم فى جنوب أفريقيا لا يتصل بالسلام العالمى من قريب أو من بعيد .

ولم يدر بخاطر غاندى أن يطرح على نفسه مثل هذا السؤال . لذلك لم ينكر الحرب التى قامت بين إنجلترا والبوير ، بل أعان فيها الإنجليز بأن أنشأ فرقة إسعاف Ambulance corps لإسعاف جرحاهم فى الحرب

وعاد غاندى بعد ذلك إلى الهند وفكرة الكرامة الإنسانية يتساوى فيها الناس جميعاً هى المتسلطة عليه ، بل لعلها كانت أكثر سلطاناً على

نفسه بعد أن قرأ وهو فى جنوب أفريقيا دعوة تلستوى الاشتراكية ، وبعد أن اقتنع بآراء رسكن بأن خير الفرد يحتويه خير الجماعة ، وبأن عمل المحامى وعمل الحلاق متساويان فى الاعتبار فغاية كليهما كسب العيش ، وبأن حياة العمل ، أى حياة الزارع وحياة الصانع ، هى الحياة الحقيقة بالعيش . هذه حقائق آمن بها إيمانه بعدم العنف وبعدم التعاون فى غير عنف ، وبأن الحق وحده منتصر آخر الأمر لا محالة ، على أن يكون صاحبه صادق الإيمان به ، متخذاً إياه إمامه فى تفكيره وقوله وعمله فلا يمارى فيه نفسه ولا غيره ولا يتخذه أحبولة لغاية يبطنها ويظهر غيرها ، بل يسلك سبيله المستقيم إلى الغاية التى يريد بلوغها .

عاد إلى الهند ولم يلبث بها طويلاً حتى كانت نذر الحرب العالمية الأولى ، حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ تقترب . فلما نشبت الحرب لم يفكر غاندى فى تجنبها ، أو فى إنكارها ، بل اندفع يدعو أبناء وطنه إلى الجندية فى صفوف الإمبراطورية البريطانية ، يرجو بذلك أن تفيد الهند لحريتها يوم تضع الحرب أوزارها . فلما انتصرت بريطانيا فى هذه الحرب ثم لم يتحقق لوطنه ما كان يرجوه عاد يفكر فى نضال الإمبراطورية الظافرة فى الحرب ليستخلص من بين براثنها حرية هذا الوطن العظيم العزيز .

لم يفكر « غاندى » إذن فى السلام العالمى يوم نشبت تلك الحرب التى خاضت الولايات المتحدة غمارها وشعارُها أن تحارب للقضاء على الحرب وعلى فكرتها فى العالم a war to end all wars . وأخذ غاندى يناضل الإمبراطورية الظافرة فى الحرب بسلاحه وهو عدم التعاون فى غير عنف non-violent non-cooperation إيماناً منه بأن الهند على حق ، وبأن سلاح الحق أمضى سلاح ، وبأنه سلاح القوىّ المؤمن

بقوته الإنسانية ، قوة الإرادة التى لا تقهر وأنه لذلك أعز من القوة المادية قوة السلاح المخرب والقتال . فما دمنا نأبى أن تهدر كرامتنا ، وما دمنا لا نتعاون مع من لا يحفل بهذه الكرامة ، فلن يستطيع أحد أن يقهرنا ، وإن استطاع أن يضعنا فى السجون وفى المعتقلات ، وإن استطاع أن يقتلنا ونحن وقوف على أقدامنا نرفض الإذعان له والركوع أمامه .

واستجابت الهند كلها لدعوة « غاندى » وناضلت الإمبراطورية العظيمة فى غير عنف ومن غير حقد . فقد كان غاندى يرى الحقد ضعفاً كالعنف سواء بسواء .

استجابت الهند إذن لدعوة « غاندى » لأنها رأته صادقاً كل الصدق فى احترام الكرامة الإنسانية لبنى وطنه جميعاً ! حتى لقد ناضل أبناء وطنه أنفسهم إذ كانوا يفرقون فى اعتبار هذه الكرامة بين طائفة من أبناء الوطن وطائفة أخرى . فقد كان فى الهند بضع عشرات من الملايين « منبوذون » لا تقربهم طائفة من طوائف الهند الأربعة ولا يقربونها ، حتى لكان خيال المنبوذ نجساً يجب التطهر منه ، ولكان الماء الذى يشرب منه المنبوذ نجساً كذلك يأبى غيره أن ينال منه ريه . بل لقد كان من هؤلاء المنبوذين من لا يستطيع الظهور نهاراً لأن منظره كان نجساً فلا يصح أن تقع عليه عين أحد من غير أبناء طائفته . وقف غاندى إلى جانب هؤلاء المنبوذين ونادى بأنهم إخوانه وإخوان كل هندى أياً كانت طائفته . بل لقد كان فى تجواله الدائم فى أرجاء الهند المختلفة يقيم بين هؤلاء المنبوذين ولا ينزل إلا فى أحيائهم . وكثيراً ما كان يصطحب صبياً من أبنائهم فى زياراته لأتباعه من الطوائف الأخرى . ذهب مرة إلى صديق له من الطوائف العليا ومعه صبى منبوذ لا يؤاكله ولا يشاربه ولا يتصل به أحد ،

فضاق أهل الصديق بالصبى ذرعاً ، ومرض الصبى فإذا « غاندى » يقيم إلى جانب سريره يمرضه . كيف والمهاتما يصنع هذا الصنيع يضن الآخرون بمثله . واضطر أهل البيت جميعاً – على مالطائفتهم من علو المنزلة – أن يصنعوا صنع المهاتما العظيم وأن يسبغوا على الطفل المنبوذ عنايتهم حتى أبل من مرضه ، ثم كانوا من بعد البر به والمحبة له كأنه أحد أبنائهم ، بل من أحب أبنائهم إليهم .

وهذا الإكرام الذى أسبغه « غاندى » على المنبوذين سموا بالكرامة الإنسانية للناس جميعاً عن كل معنى من معانى التفاوت قد كان له الأثر الأكبر فى استجابة الهند لدعوة غاندى . فقد شعرت الطوائف كلها بأن الفوارق التى أقامتها عشرات القرون بينها تنهار ، فإن الدعوة الجديدة لحرية الكافة يتمتع بها كل فرد حقيقة بأن تجمع أبناء الهند كلها ، وهم أربعمائة مليون * فى صعيد واحد ، متساوين فى ظل الوطن وإن اختلفت نحلهم وأهواؤهم ومنازلهم وما يزاولون من عمل .

واستجابت نساء الهند لدعوة « غاندى » كما استجاب إليها رجالها . ذلك أن المرأة الهندية كانت من الرجل بمنزلة الرقيق كشأن المرأة الأوربية من الرجل فى العصور الوسطى . كانت تدفن حية معه إذا مات ، وكانت تعامل فى حياته على أنها خادمه وخادم أولاده . وقد ارتفع بها غاندى إلى مستوى من الكرامة الإنسانية يعادل مستوى كرامة الرجل ، وجعلها عديله فى الكفاح لكرامة الوطن والنضال من أجل حريته . فكان لها فى معارك عدم التعاون فى غير عنف مكان كمكان الرجل أو أعز من مكانه فى بعض الأحيان ، وجعل لها من الاحترام فى الحياة الاجتماعية ما لم

* يبلغ عدد سكان الهند الآن حسب آخر الإحصائيات حوالى ٥٩٩ مليوناً .

يفكر فيه رجل أو امرأة فى الهند قبله ، وما لم يفكر معه أحد فى اقتحام أسوار التقاليد القديمة التى كانت تفرض على المرأة عبوديتها للرجل .

بذلك كله اجتمع أربعمائة مليون أو يزيدون حول هذا الرجل النحيل العظيم المجاهد فى سبيل الكرامة الإنسانية للفرد وللجماعة وللشعب كله . وبهذا وقفت الهند كلها عزلاء من السلاح فى وجه الإمبراطورية البريطانية العظيمة تقاوم بسلاح المثابرة فى سبيل الدفاع عن كرامة الإنسان وكرامة الوطن بعدم التعاون . فى غير عنف ومن غير حقد ، مع المعتدى على هذه الكرامة .

ولم يكن هذا النضال سلاماً أو دعوة إلى السلام على النحو المألوف اليوم عند أنصار السلام . ولكنه كان نضالاً يؤدى بطبيعته – على ما سنرى – إلى السلام ، على أن يكون سلام الأحرار لا سلام العبيد .

لم يعلن « غاندى » إلى سنة ١٩٣٠ أنه يطمع من نضاله هذا فى أكثر من بلوغ الهند مرتبة الحكم الذاتى . ولعل تفكيره الذى تطور من معاونة إنجلترا فى حرب البوير إلى تجنيد الهند إلى جانبها فى الحرب العالمية الأولى لبلوغ هذا الحكم الذاتى – حتى لقد منح من أجل ذلك مدالية قيصر الهند – قد كان يطمئن ويرضى لو أن الحكومة البريطانية أجابت رغبته . فلما لم يبلغ من ذلك لوطنه ما أراد نادى بالاستقلال التام للهند فى سنة ١٩٣٠ ، وطالب البريطانيين بالجلاء الكامل عنها وأذاع كلمته المشهورة : « افعلوا أو موتوا Do or die » . بذلك تطور تفكير المهاتما فى تصوير الغاية من نضاله ، وإن بقى سلاحه فى هذا النضال هو عدم التعاون فى غير عنف ، مع تطور هذا السلاح كذلك فى صور كانت تتعدى فى بعض الأحيان دعوته فيشوبها من العنف مالا يرضى عنه ، فيصوم تكفيراً عن خطأ الذين أخطأوا ، فيرد صيامه المخطئين إلى صوابهم .

وكان العنف يقع أكثر الأحيان بسبب مبالغة السلطات البريطانية فى قمع الحركات الاستقلالية الخالية من العنف . لكنه كان يقع فى بعض الأحيان بين طوائف الهنود أنفسهم بسبب الخلافات الدينية والمذهبية . ولقد وقع غير مرة بين المسلمين والهندوس وكان دامى الآثار . فى هذه الأحيان كان « غاندى » يصوم ويطول صيامه تكفيراً عن خطأ هؤلاء وأولئك . وفى هذه الأحيان جميعاً كان صومه يقمع العنف ويرد السلام يرفرف لواؤه على المتخاصمين .

ولم يكن غاندى يتحيز قط لبنى دينه ، كما أنه لم يكن قط يتحيز للمسلمين ، ذلك بأنه كان عظيم التسامح ، وكان يحترم الأديان جميعاً أصدق الاحترام ، وكان يرى لذلك فى ارتداد الرجل عن العقيدة التى نشأ عليها ما لا يتفق والكرامة الإنسانية . حاول بعض المبشرين حين مقامه فى جنوب أفريقيا أن يقنعوه باعتناق المسيحية ، وأعطوه الأناجيل فقرأها وأعجب بما فيها من دعوة للحب والسلام ، واشتد إعجابه « بنداء الجبل The sermon on the mount . حيث يقول المسيح : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر» ، ثم اعتذر مع إعجابه هذا من الاستجابة لدعوة المبشر الذى دعاه إلى المسيحية بأن فى دين قومه ما يتفق ودعوة المسيحية للمحبة والرحمة والسلام ، وبأنه لذلك لا يرى أن يخالف قومه عن عقيدتهم وهو منهم ، ومنهم آباؤه وأجداده وأصدقاؤه وأولياؤه . وكثيراً ما كان يشير إلى الأخوة الإسلامية إشارة إجلال وإكبار . لذلك كان يمقت التعصب أشد المقت ، وكان يرى ما يقع من عنف بسبب اختلاف العقيدة الدينية إثماً جديراً بالتكفير عنه . أما هؤلاء الذين يلجأون إلى العنف فهم لا يدركون خطيئتهم ليكفروا عنها ، فليكفر هو عن خطيئتهم

بالصوم ليردهم إلى حمى الحق والتسامح والإخاء ، وينبههم إلى أن الأديان جميعاً تحفظ على الإنسان كرامته ، وتهديه السبيل لخيره ، ولرضا الله عنه ، وأنها جميعاً تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتدعو إلى الإخاء والمحبة والسلام .

وكانت المحبة عنوان الكرامة الإنسانية فى كل تعاليمه . ذلك بأنه كان يرى الحقد والكراهية ، كما كان يرى العنف ، ضعفاً غير لائق بهذه الكرامة ، ويرى الضعيف بحقده أو كراهيته أو بعنفه حقيقاً بالإشفاق ، على أن لا يكون إشفاق ازدراء أو تحقير ، بل إشفاق محبة وحرص على علاج هذا الضعف . لهذا كان يناضل البريطانيين من غير أن يحقد عليهم أو يكرههم ، بل كان يحرص على أن يتفاهم معهم كلما وجد منهم استعداداً للتفاهم ، فإذا لم يصل من هذا التفاهم إلى تحقيق ما يريد عاد يناضلهم فى غير حقد ولا كراهية ، مؤمناً بأنه سيبلغ يوماً غايته ويحقق استقلال بلاده ، وبأن البريطانيين سيجلون عن الهند من غير أن تكون فى نفسهم مرارة ضد الهنود ، أو أن تكون فى نفس الهنود مرارة ضد البريطانيين .

وأساس المحبة التضامن فى سبيل المصلحة العامة . أما التنافس فى سبيل المنافع الخاصة فيخلف الاحتكاك وما يؤدى إليه من حقد وموجدة . والناس إنما يتنافسون على المنافع المادية يريدون الاستكثار منها بما يضر روحانيتهم ، ومن غير أن تكون لهم بهذا الاستكثار حاجة . ولو أنهم حرصوا على السمو بروحانيتهم حرص الغربيين اليوم على المتاع بماديات الحياة لاستمتعوا بالحياة أضعاف ما يستمتع بها محب أعباء المادة ، ولكانوا إخواناً متحابين يربط التضامن بينهم بأوثق رباط .

والتنافس يؤدى إلى الحقد وإلى الموجدة ، لأنه يؤدى إلى استغلال عمل الغير لفائدة المستغلين ، وهو ينطوى لذلك على ظلم يثير نفوس من يستولى غيرهم على جانب من ثمرة عملهم باسم الفائدة على رأس المال أو بأى اسم آخر . فأما الحق عند غاندى فذلك أن ينال كل ثمرة عمله وليحصل على أسباب عيشه ، وهذا ما يسميه هو : العيش العمل .

هذه مبادئ غاندى التى رتب عليها نتائجها . ومن هذه النتائج عداؤه الصريح للصناعات الكبرى ، ودعوته الصريحة للعمل اليدوى ، واتخاذه عجلة النسيج اليدوى عنواناً لدعوته ، واكتفاؤه فى الحياة بما يقيم الأود ليستطيع بعد ذلك أن يستمتع من نعيم الحياة الروحية بأوفر نصيب .

وإنما تبلغ الشعوب المرتبة السامية التى تؤدى إليها هذه المبادئ عن طريق التربية والتعليم . ولهذا وضع « غاندى » برنامجاً خاصاً للتعليم بدأ يطبقه فى المحلات التى أنشأها ، وفى بعض مدن الهند لتكون نموذجاً يحتذيه غيرها حين يرون نتائج هذه التربية وهذا التعليم .

* * *

كيف تؤدى تعاليم « غاندى » ووسائله إلى السلام داخل الشعوب وفيما بين الشعوب ؟

لما تلبد جو أوربا بنذر الحرب فى صيف سنة ١٩٣٨ حين أراد « هتلر » أن يضم جانباً من تشيكوسلوفاكيا إلى أرض الرايخ الألمانى ، كتب « غاندى » يدعو التشيك إلى عدم مقاومة « هتلر » بالسلاح إذا حاولت جيوشه أن تحتل بلادهم ، وأن يقاوموه بعد ذلك على طريقة « غاندى » : عدم التعاون فى غير عنف ، والعصيان المدنى إذا اقتضى الأمر هذا العصيان . ووجه « غاندى » رسالته إلى « هتلر » نفسه ينهاه فيها عن الالتجاء إلى

العنف ، كما وجه إلى البريطانيين رسالة كالتى وجهها إلى التشيكوسلوفاكيين .
ولم تنتج رسائل غاندى هذه ، بل وقعت الكارثة . واكتوى العالم بنيران الحرب منذ سبتمبر سنة ١٩٣٩ وهو لا يزال إلى اليوم يعانى من آثارها ما يكاد يدفع إلى حرب عالمية ثالثة ضروس .

وما دهى « غاندى » بلغ من التفاؤل أن ظن أن تعاليمه يمكن أن تؤتى ثمرتها فى غير الهند لمجرد رسالة يبعث بها إلى التشيك أو إلى « هتلر » أو إلى البريطانيين . وإنما تؤتى هذه التعاليم ثمرتها رويداً رويداً بانتشار المبادئ التى أوجزناها عن طريق التربية والتعليم والدعاية ، فإذا بدأت تستقر فى النفوس وتطمئن لها العقول اتجه العالم كله وجهة جديدة تسمو بالروح إلى المكان الواجب لها فى الحياة الإنسانية ، ويومئذ تخضع المادة لحاجات الروح ، بدل أن تخضع الروح لإغراء المادة ولمتاعها الكاذب الغرور .

وإنما تؤدى تعاليم « غاندى » بطبيعتها إلى السلام لأنها تقضى على أسباب الحرب والنزاع ، ما كان صحيحاً منها وما كان مفتعلاً لمجرد الدعاية وإثارة النفوس لخوض غمار الحرب .

كان الدين من أسباب الحرب فى عصور كثيرة . وقد ثارت الحروب الصليبية فى القرون الوسطى باسم الدين ، على الرغم من أن « المسيح » صاحب الصليب كان من أكبر دعاة السلام فى العالم . ومن قبل ذلك قامت الإمبراطورية الإسلامية فى أطوارها المختلفة على أسنة الرماح ، مع أن القرآن يقول : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . ومن أسف أن هذه العقلية المنافية لتعاليم الأديان كلها ظلت عالقة بالنفوس . حتى لقد قال المارشال « أللنبى » قائد الجيوش البريطانية التى دخلت بيت المقدس فى سنة ١٩٣٨ : « الآن انتهت الحروب الصليبية »

ولعل إدراك « غاندى » لهذه الحقيقة هو الذى دعاه بعد أن استقلت الهند واختارت نطاق الكمنولث البريطانى ليقول ، يوم اشتد الخلاف بين الهند والباكستان على كشمير ، إنه على مقته الحرب وعدم تسليمه بجوازها ، يخشى أن تصبح بين الدولتين ضرورة لا مفر عنها . وقد أوخذ بهذا الرأى الذى ينافى مبادئه ، وظن بعضهم أنه كان أولى به أن يصوم ليجنب الدولتين مثل هذا الاحتمال المخوف بالنسبة لهما جميعاً .

انتهت الحروب الصليبية . والحروب والمذابح التى وقعت فى أوربا المسيحية بسبب الخلاف المذهبى معروفة . والتعصب أهم الدوافع التى تحرك الجماهير لمتابعة الدعاة إلى الحرب باسم الدين ولو لم يكن الدين هو الدافع الحقيقى لهذه الحرب . وقد قضت تعاليم « غاندى » على هذا السبب من أسباب الحرب . فالأديان عنده كلها مقدسة ولا يجوز من ثم أن يتعصب أحد لدين على دين ، أو أن يقاتل نصرة لدين على دين . وهذا التسامح الذى نادى به « غاندى » ، قد نادى به من قبل « فولتير » واعتبره أساس السلام فى العالم . لكن أحداً لم يسمع لفولتير لأنه لم يكن متديناً ، بل كان حر الفكر ، متهماً فى دينه به ، موصوماً بالإلحاد . أما غاندى فكان متديناً مسلماً نفسه لله فى كل أعماله وتفكيره . فدعوته إلى التسامح الدينى دعوة صادقة خالصة لوجه السلام ، دعوة مصدرها الروح المتصل بالملإ الأعلى ، وليس مصدرها مجرد الحرص على الحرية العقلية . ولهذا نجح « غاندى » إلى مدى بعيد فى القضاء على الثورات والمذابح الطائفية التى كانت تقع فى الهند الحين بعد الحين ، مع ما بين الهند وأوربا من فرق فى الثقافة يحمل أوربا أكثر مما يحمل الهند على التسامح الدينى .

وتذهب كثرة المؤرخين إلى أن الدين اتخذ فى الماضى كما تتخذ الحرية والديموقراطية اليوم وسيلة للدعاية للحرب ودفع الناس إلى مجازرها ، وأن السبب الحقيقى للحروب قد كان السبب الاقتصادى . وليس شك فى أن هذا السبب الاقتصادى هو الدافع الأقوى والمحرك الأول للحروب ، وأن ما يختلط به بعد ذلك من عوامل دينية أوجنسية أوسياسية يستطاع التغلب عليه من غير حرب لولا هذا العامل الاقتصادى . وهذا ما أدركه « غاندى » وعالجه بوسائله المختلفة .

وأولى هذه الوسائل السمو بالحياة الروحية سموًّا بالكرامة الإنسانية عن أن تخضع لإغراء المادة على نحو يذلها . ولقد كان مثله الذاتى وإيمانه الراسخ هما الحجة الملموسة الدامغة على أن المتاع الروحى أعظم من كل متاع ، وأنه وحده هو الذى يجعل للحياة قيمتها ، والذى يبلغ بالإنسان من القوة إلى حيث لا تغلبه قوى الأرض مجتمعة . وأى مثل فى هذه القوة الروحية كمثل حياة « غاندى » إلا أن تكون حياة الأنبياء والقديسين . فهو رجل ألقيت تحت أقدامه الجواهر ، وقدم إليه البريطانيون أنفسهم أسباب الجاه والسلطان ، وكان فى مقدوره أن يبلغ كل ما يطمع أكبر الأغنياء وأعظم ذوى الجاه والسلطان بلوغه ، فازدرى هذا كله ، وعاش عيش الفقراء ، وآثر حياة المنبوذين سكناً له ، ولم يحفل بالسجن ولا بالموت ، وكان مع ذلك لا يعرف الحقد ، بل يحب الناس جميعاً ، ويحب خصومه بل أعداءه ، ثم كان فى نظر الإنسانية كلها الإنسان المثالى الذى يطمع أعظم الملوك فى أن يبلغ بعض ما بلغ ، أليس ذلك دليلاً على أن المال وما يتيحه من المتاع المادى ليس إلا متاع الغرور والزخرف الباطل فى الحياة .

وإذا كان ذلك شأن الفرد فهو كذلك شأن الأمة . فالأمة المستغنية عن غيرها ، المحافظة على كرامتها القومية والإنسانية ، القانعة بمواردها العاملة على استثمار هــــذه الموارد دون حاجة إلى الغـير هى الأمة التى تستطيع أن تقاوم غيرها من غير عنف ، فلا يجد هذا الغير وسيلة لاستغلالها ، ولا خير له من ثم فى بذل النفقات لإخضاعها . فإذا سلكت الأمم كلها هذا السبيل وقاومت من يحاول استغلالها بالوسائل غير العنيفة التى سلك « غاندى » سبيلها لم يبق لأمة فى الحرب مصلحة ، ومن ثم كان ذلك سبيل السلام العالمى .

وقد صورنا من قبل طرفاً من الوسائل التى دعا إليها « غاندى » لإدراك هذه الغاية . فعدم التعاون فى غير عنف والعصيان المدنى والإضراب والمقاطعة ، كل ذلك فى غير عنف أيضاً ، والارتقاء بالشعب عن طريق التربية والتعليم ليدرك ما للروح من قوة لا تغلب . فإذا امتثلت الشعوب هذه الآراء والمبادئ فجرت فى أوردة حياتها ، وتيقن البغاة أن لا فائدة يجنونها من وراء التغلب عليها ، زالت الحروب بزوال أسبابها .

يبدو جليًّا مما تقدم أن « غاندى » سلك فى تعاليمه وفى وسائل نضاله سبيلاً يؤدى إلى السلام من غير أن يسلك الطريق الذى سلكه دعاة السلام من قبل . وهذه التعاليم وهذه الوسائل كلها نضال فى سبيل السلامة الإنسانية كيما يستقر فى العالم سلام الأحرار لا سلام العبيد . فلم يكن « غاندى » يعرض سلاماً كالسلام الرومانى Paxa Romana تفرضه أمة غالبة على أمة مغلوبة ، فإن حاولت إحدى هذه الدول الإخلال بهذا السلام جردت الإمبراطورية قواتها لتعاقب الأمة المتمردة ولتردها إلى حمى الطاعة والإذعان . ولم يكن « غاندى » يعرض سلاماً أساسه الخوف من الحرب

وأهوالها وكوارثها ، فمثل هذا السلام تضطرب قوائمه إذا استطاع العلم يوماً أن يبدع الوسائل لاتقاء هذه الأهوال والكوارث . ولم يكن غاندى يعرض سلاماً لقارة كأوربا يمكنها أن تتحكم فى غيرها من القارات على نحو ما كانت روما تتحكم فى عهد ذلك السلام الرومانى ، بل كان لا يرضى عن عبارة « آسيا للآسيويين » إذا قصد بها اعتزال آسيا من سواها من قارات العالم . لأن الاعتزال لم يكن سلاماً فى نظره .

لم يكن « غاندى » يعرض هذه الصور للسلام ! على حين كانت مثله وكانت تعاليمه ورسائله دعوة للسلام بطبيعتها . فالسلام على ما يفهمه أهل الشرق والغرب جميعاً هو النقيض للحرب التى يعرفونها ، الحرب التى يستبيح فيها الإنسان قتل الإنسان للاستعلاء عليه واستغلاله . الحرب التى تعد لها كل دولة من آلات التدمير والفتك ما تقابل به أمثال هذه المعدات عند غيرها من الدول . وما أيسر ما تقول كل دولة إنها تحارب دفاعاً عن نفسها ! أو نصرة لغضبة السلام ، أو لغضبة الحرية والعالم الحر ، أو لمثل ذلك من الدعايات المختلفة . أما « غاندى » فينكر هذه الوسائل كلها ، وهو مع ذلك رجل نضال فى سبيل الحرية والكرامة الإنسانية . وهو يرى قوة الحق لذاته . وقوة الروح الممتلئة إيماناً بهذا الحق ، أمضى من كل سلاح وأكفل ببلوغ النصر . وحسبه دليلاً على صدق نظريته ووسائله أن بلغ بها الغاية التى قصد إليها من تحرير الهند ، تلك القارة التى تضم نحو أربعمائة مليون من البشر ، فحررها من فوارق الطبقات ، وحررها من التعصب الدينى ، وحررها من كل صور التفرقة بين الأجناس والألوان ، والرجال والنساء ، وبلغ بها إلى الأغراض التى احتوتها وثيقة حقوق الإنسان كما وضعتها الأمم المتحدة من بعد ، ثم

حررها من الاستعمار البريطانى ، وبلغ بها إلى مكان العزة والكرامة فى حمى الاستقلال والحرية .

* * *

ولنلخص الآن ما سبق عن تعاليم « غاندى » والوسائل التى اتبعها لتحقيق تلك التعاليم ، من حيث اتصالها بفكرة السلام فيما يلى :

١ – السلام الحقيقى هو سلام الأحرار لا سلام العبيد . واطمئنان هذا السلام داخل حدود الدولة الواحدة يكفل السلام فى علاقات الدول بعضها مع بعض .

٢ – الحرية الحقيقية هى حرية الروح فى إيمانها بالحق الذى تقتنع به وتطمئن إليه ، وليست حرية المتاع المادى الذى يضل الروح عن طريق الحق .

٣ – قوة الروح المستمدة من الحق أمضى من كل سلاح ، لأن صاحبها لا يعبأ بما يصيبه فى سبيل هذا الحق ، ولو كان ما يصيبه هو الموت .

٤ – الأديان كلها تمثل الحق الذى يلهمه الله من يختارهم من عباده المصطفين ، وكلها تدعو إلى المحبة والسلام ، فلا يمكن أن تقوم حرب لنصرة دين على دين ، لأن الحرب تتنافى بطبعها مع المحبة والتسامح والسلام .

٥ – كل عمل شريف ما دام نزيها . والعمل هو الذى يجعل لصاحبه الحق فى العيش وفى الحياة ، وكل من يعيش بغير عمل يسلب العامل عرق جبينه ويسلبه لذلك حريته ، ويمهد من ثم لاضطراب السلام .

٦ – الاستعمار و« الأمبرياليزم » استغلال شعب لشعب بغير حق ،

وهما لذلك من أسباب الحرب ما بقيا فى العالم ، فيجب القضاء عليهما قضاء مبرماً .

٧ – من اليسير نضال الاستعمار بغير عنف ومن غير حقد عن طريق عدم التعاون ، والإضراب ، والمقاطعة والعصيان المدنى وكل وسائل النضال البعيدة عن العنف ، والمستندة إلى الحق وحده .

٨ – التربية والتعليم من الحقوق الأولية للجميع ، وهما لذلك من أسس السلام ما قاما على قواعد سليمة .

٩ – يجب أن يكون الاكتفاء الذاتى أساس الاقتصاد القومى فى الزراعة والصناعة ، وأن يكون التبادل التجارى مؤيداً لهذا الاكتفاء الذاتى فلا يجنى عليه بحال .

١٠ – التعاون دعامة الاقتصاد القومى ، كما أن عدم التعاون فى غير عنف سلاح النضال القومى فى سبيل الحرية السياسية والكرامة الإنسانية . والناس أحرار ما تعاونوا متحابين .

١١ – واجب الدولة أن ترعى هذه المبادئ دون أن تتدخل بالعنف فى الشئون العامة . بل يجب أن ينظم الناس فيما بينهم هذه الشئون عن عقيدة واقتناع وإيمان .

هذه هى التعاليم الأساسية التى يقوم عليها السلام فى رسالة « غاندى » . وهى لا ريب تعاليم سامية حقيقة بكل إجلال وإكبار ، جديرة بأن تؤدى إلى الغرض الأسمى – السلام – إذا طبقت على وجه صحيح .

* * *

الفكرتان الرئيسيتان عند « غاندى » * هما فى رأيى الصدق والكرامة الإنسانية . فالصدق عنده لا يعنى قول الحق فحسب ، بل هو يقصد الحق فى التفكير ، وفى القول وفى العمل جميعاً . ومن السهل أن نتفق على الأفكار مادامت مجرد أفكار أو مبادئ نناقشها ، فإذا جاء وقت التطبيق ثارت الخلافات فى التفسير والخلافات فى الرأى إلى أن تطرح الفكرة نفسها جانباً .

فنحن نذكر ما حدث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حين وضع الرئيس « وودرو ويلسن » مبادئه الأربعة عشر ، واتفق العالم أجمع على أنها سوف تكون ذات نفع عظيم للإنسانية كلها . فلما اجتمع مؤتمر السلام فى فرساى وبدأ يبحث فى كيفية تطبيق هذه المبادئ تعددت الخلافات بين الأعضاء فاستغرقت منهم معاهدات السلام ستة أشهر . وإننى لمتفق تماماً مع مولانا أبو الكلام أزاد بأنه من خلال هذه المعاهدة التى قصد بها إقرار السلام بعد الحرب العالمية الأولى بذرت بذور الحرب العالمية الثانية .

لقد عقدت اجتماعات عديدة سواء عن طريق الأمم المتحدة أو اليونسكو حول موضوع التوتر الذى نبحثه اليوم ، كما أعلنت بشأنه كثير من التصريحات الخلابة . فها هو ذا كتاب عن اجتماع عقد فى سنة ١٩٤٨ ضم ثمانية من كبار علماء الاجتماع فى الدول المختلفة ، شيوعية وديمقراطية غربية ، وأصدروا بياناً مشتركاً ، وكانت لديهم الأمانة الكافية ليذكروا أنه « على الرغم من اتفاقنا على البيان فى مجموعه وفى

---

* ترجم هذا الجزء عن محاضرة للدكتور هيكل بالإنجليزية فى الهند سنة ١٩٥٣

كثير مما احتواه من بنود ، وتطبيق هـذه البنود ، إلا أننا نختلف بشأن الأثر الذى سينجم عنها » . كانت هذه الفكرة عن الصدق فى الفكر وفى القول وفى العمل مركزاً لأفكار غاندى وأساساً لها ، وهذه الفكرة نفسها هى التى ستؤدى بنا إلى السلام العالمى .

والفكرة الثانية ، وأعتقد أنها أهم ما فى خطة « غاندى » كلها ، فكرة الكرامة الإنسانية للأفراد والكرامة الإنسانية للجماعات . فإن حملته الأولى فى جنوب أفريقيا كانت أولاً فى سبيل كرامته الإنسانية ثم فى سبيل الكرامة الإنسانية لمواطنيه فى هذا الجزء من العالم . فقد كانت التفرقة الظالمة التى تتبعها حكومة جنوب أفريقيا إذلالاً للهنود فيها سبباً لثورة « غاندى » . وهو لم يثر من أجل ذاته فحسب وإنما بدأ يفكر فيما يمكن أن يكون عليه التعاون بين هؤلاء الألوف من الهنود وبين الحكومة وهم يلاقون منها أسوأ المعاملة ؟ كيف يستطيعون التعاون مع أشخاص لا يحترمون الكرامة الإنسانية ؟ . . . من هنا انتهى غاندى إلى فكرته حول « الساتيا جراها » و« الأهيمسا » ، – Satia graha. Ahimsa فشهد جنوب أفريقيا بذلك مولد تلك الأفكار .

فلما عاد إلى الهند دفعته فكرته الجديدة عن الكرامة الإنسانية إلى الحملة على التفرقة القائمة فيها بين المنبوذين وغيرهم من أبناء الهند ، تلك الحملة العظيمة حقاً . نحن نتساوى جميعاً ، ولدنا متساوين فوجب أن نحيا متساوين كذلك . يجب ألا يكون هناك منبوذون وغير منبوذين . وذلك ما بدأ « غاندى » حملته الكبرى من أجله .

ولم يقم « غاندى » هذه الفكرة عن الكرامة الإنسانية للدفاع عن المنبوذين فقط ، بل كانت لديه كذلك فكرة الأخوة بين الناس أياً

كان دينهم وأيا كانت أفكارهم ، وهى الفكرة التى أدت به إلى التسوية فى المعاملة بين جميع أعضاء المجتمع الهندى سواء كانوا من الهندوس أو من المسلمين أو المسيحيين أو أى شيء آخر ما داموا مخلصين فى إيمانهم وفى صلاتهم.

هل لى أن أذكر أن احترامه البالغ للكرامة الإنسانية دعاه إلى الوقوف ضد ضخامة الآلات لأنه رأى الذين يعملون فى تلك الصناعات الكبيرة يتحولون إلى مجرد أدوات فيها ، فتزول عنهم صفة الإنسان المفكر بنفسه ، ليندمجوا فيها فيصبحوا كأسنان التروس . وتنطبق هذه الفكرة عن الكرامة الإنسانية على نشاط « غاندى » كله . وهى تعتبر فكرة الأفكار فى حياته . كيف يستطيع أحد أن يتعاون مع غيره مادام هذا لا يحترمه ؟ وكيف يعمل الناس للنفع العام والبعض منهم يُحترمون دون البعض ؟ والواقع أن فكرة كرامة العمل أو شرفه مما يتصل بتلك الفكرة الرئيسية عن الكرامة الإنسانية ، وأعتقد أن ذلك ما عناه صديقنا الأستاذ « همايون كبير » حين قال إننا يجب أن نفكر فى تحديد للثروة فردية كانت أو جماعية ، بحيث توضع هذه الحدود على الجانبين : حدود لضآلة الثروة وحدود لضخامتها . فلن تتحقق لك الكرامة الإنسانية مادمت لا تستطيع أن توفر قوتك وقوت أسرتك عن طريق عملك . كما أنه لا يتفق مع الكرامة الإنسانية أن تظل أنت عاطلاً فى الوقت الذى تستغل فيه رفيقك لمتاعك الخاص .

هاتان الفكرتان – الصدق والكرامة الإنسانية – هدتا « غاندى » إلى أن يصوغ ما أسماه « ناى تاليم » . Nai Talim ، ومقتضى هذه الطريقة أنه يجب أن يراعى فى تربية كل شخص أن يمكّن من العمل بيديه وبرجليه وبكل أجزاء جسمه . والهدف من ذلك تهذيب أخلاقه وهداية مداركه إلى فهم أسلم للأمور . وإننى مع ذلك لا أتفق مع « غاندى »

فيما يتعلق بالتعليم الجامعى حيث تتخصص الجامعات فى بعض فروع البحث ، ولكنى متفق معه تماماً فيما يتصل بالتربية الابتدائية والثانوية .

وبعد ، فهل لى أن أرجع قليلا فأذكر أن الواقع فى هذا العالم أننا نستطيع أن نتعاون ، ونحن نتعاون فعلا ، على أساس احترام العمل الإنسانى ما دام شريفاً – فلتكن محامياً أو لتكن حلاقاً أو ليكن لك أى عمل آخر فعملك محترم من الجميع مادام شريفاً ، شأنك فى ذلك شأن الناس جميعاً .

لو أننا استطعنا أن نغرس تلك الأفكار فى أذهان الناشئة : فكرة احترام العمل الإنسانى ، والكرامة الإنسانية والأخوة بين الناس أيًّا كانت معتقداتهم ، فإننى أعتقد أنه يمكننا أن نصل بالفكر فى البلاد المختلفة إلى حالة تؤدى بنا إلى التعاون المشترك فى سبيل نفع الإنسانية كلها . وقد وضعت الأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٨ إعلاناً لحقوق الإنسان وعلى رأسها مبدأ الكرامة والمساواة الإنسانية فكم أود لو دعت هذه المنظمة الدول كلها إلى الأخذ بالأفكار التى وردت به . والأمم المتحدة تستطيع أن تحقق نفعاً كبيراً فى هذا الصدد ، إلا أن أمراً يحول بينها وبين النجاح فيه ، أعتقد أنه عدم توافر الثقة بين أعضائها ، بالإضافة إلى أنها لم تصبح عالمية بعد ، كما ينبغى أن تكون . وإننى مدرك تماماً لعظمة هذه المنظمة وكونها أمل الإنسانية فى السلام المنشود ، كما أننى معترف بما حققته من إنجازات هامة خصوصاً وقوف الدول الصغيرة فى وجه الدول العظمى وإعرابها عن كل ما تريد .

وهذان الأمران مع الأسف مازالا حتى وقتنا الحاضر يعوزان الأمم المتحدة . وان كلاماً كثيراً قد يقال حول حق النقض (الفيتو) ولكن

الذى لا أفهمه أبداً هو أن يكون قبول أعضاء جدد فى الأمم المتحدة رهناً باستعمال هذا الحق .

فقد يتفق جميع الأعضاء على أن دولة تطرق أبواب المنظمة الدولية تعتبر محبة للسلام ، وأنها قد تكون عضواً نافعاً جدًّا ، ثم نجد مع ذلك فى الجانب الآخر من يقول : « سأستعمل الفيتو إذن ، فأنا لا أستطيع قبول هذه الدولة » . وإن بيننا فى هذا الاجتماع أعضاء ينتمون إلى دول ما تزال خارج عضوية الأمم المتحدة . ونحن فى الاتحاد البرلمانى الدولى الذى أتشرف بعضويته نقبل الدول البرلمانية كافة ونجد من المفيد حقًّا الاستماع إليها ، ولقد كانت الدول الشيوعية إلى سنة ١٩٤٩ موجودة هناك ثم انسحبت لأمر لا أعلمه ، إلا أن ما تأثرت له حقًّا هو ما كان يحققه اشتراك هذه الدول من فائدة . فقد أتونا بأفكار جديدة ، وتعاونوا جديًّا مع سائر أعضاء الاتحاد البرلمانى الدولى فى مسألة السلام وغيرها . وإننى أعتقد أن مثل ذلك سوف يحدث فى الأمم المتحدة لو أنها أصبحت يوماً عالمية تضم أمم العالم كافة دون تفرقة .

والأمر الآخر هو تخلف ثقة أعضاء الأمم المتحدة بعضهم ببعض فى الوقت الحاضر . ولقد أسعدنى ما سمعت بالأمس من مسز « بانديت » التى عادت لتوها من الأمم المتحدة ؛ من أن الأمور تتحسن فى صدد هذا الذى كنا نشكو منه . وأقصد بذلك محالفة بعض الدول على الدوام لإحدى الكتل ، ومحالفة بعضها الآخر على الدوام أيضاً الكتلة الأخرى . إن كثيراً من الدول الصغيرة تصبح الآن ، لا أقول أقوى عسكريًّا ، بل أقول أقوى معنويًّا ، فتقول ما تعتقد أنه الحق ، والحق وحده هو الذى يدعو الأمم المتحدة إلى التعاون فيما بينها ، لأنه ما دام أحد يعتقد أن زميله إلى جانبه

لا يقول ما يعتقد أنه الحق ، لأى اعتبار من الاعتبارات ، قوميا كان أو غير ذلك ، فإن زميله المندوب الآخر سيشعر بأن عليه أن يجد طريقاً مناسباً للإجابة ، فلا يواجهه – بدوره – بما يؤمن بأنه الحق .

ولو أننا أردنا أن نصل إلى حالة للفكر كالتى أرادها « غاندى » ، صادقة للغاية ، وأقصد بذلك الصدق فى القول وفى العمل ، فنتمكن من أن نقول فى منظمة الأمم المتحدة ما نعتقد ، وأن نتصرف على أساسه ، فأظن أننـا بالغون إذن حالة من التعاون المشترك تكون للإنسانية ذات نفع عظيم .

ليس لدى اقتراحات محددة أقدمها إلى أعضاء هذا الاجتماع المحترمين ، ولكنى أعتقد أن هاتين الفكرتين : الصدق والكرامة الإنسانية باعتبارهما المثل الرئيسية لغاندى ستنفعانا كثيراً ، وستساعدانا أجل المساعدة فى عملنا من أجل السلام .

٢ – أساليب غاندى وكيف تخفف التوتر داخليا ودوليا *

إلى أى مدى نستطيع فى الحالة الحاضرة للفكر الدولى أن نطبق وسائل « المهاتما غاندى » وأساليبه لإزالة التوتر فى العالم ، داخلياً كان هذا التوتر أو دوليًّا . ذلك ما نحاول أن نجد له جواباً .

ولو وجب أن يبدى هذا الجواب فى مطلع القرن الحاضر ، فإننى

* ترجم هذا الجزء أيضاً عن محاضرة للدكتور هيكل بالهند .

لنى شك من أنه كان ليصدر على وجه إيجابى . صحيح أن « غاندى » بدأ حملته ضد المعاملة الجائرة للهنود فى جنوب أفريقيا فى الحلقة الأخيرة من القرن التاسع عشر . وصحيح كذلك أنه لقى بعض النجاح هناك ، إلا أن الاعتقاد بجدوى طريقته فى حل الأزمات الدولية ، فى ذلك الوقت الذى كانت تسود فيه سياسة توازن القوى والسلام المسلح لهو أقرب إلى الأحلام .

و « غاندى » نفسه لم يفكر أول الأمر فى « الأهيمسا » وفى « الساتياجراها » كسلاح فى الحياة الدولية ، بل كأدوات لإجبار الحكومة وسلطات جنوب أفريقيا على أن تبتعد إلى أقصى ما تستطيع عن التفرقة المزرية التى تخضع لها مواطنيه . وهو لم يفكر فى تلك المرحلة فى استخدام هذه الوسائل لتحقيق استقلال أى بلد من البلاد ، بل إنه على العكس اعتقد ، كما كان الكثيرون من ذوى التربية الغربية فى الشرق يومئذ يعتقدون ، أن الحضارة الشرقية قد اندثرت نهائيًّا ، وأن العلم والفكر الغربيين سيظل لهما دائماً مركزهما السامى ، وهذا الاعتقاد هو الذى أدى به أثناء حرب البوير إلى تنظيم فرقة إسعاف تساند القوات البريطانية المشتبكة فى الحرب ، وظل على موقفه هذا حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى فبذل أثناءها العون الكبير لإنجلترا وحلفائها بتجنيد الهنود للمحاربة فى صفوفهم .

ولقد أبرزت الحرب العالمية الأولى تغيرات هائلة فى الفكر الدولى ؛ فقد أيقنت الولايات المتحدة الأمريكية أن عزلتها لم تنجها من خطر هجوم الغواصات الألمانية ، فاشتركت عند ذلك فى الحرب بجانب إنجلترا وحلفائها . ولقد ظن الرئيس « وودرو ويلسن » يومئذ أن بلاده تحارب من أجل إنهاء الحروب كافة . فلما شعر بانكسار ألمانيا اقترح شروطه للصلح مقتنعاً

بأن معاهدة للسلام تقوم على أساسها كفيلة بأن تقود الإنسانية إلى عصر السلام الدائم . وكان حق الشعوب فى تقرير مصيرها أحد شروط هذا الصلح . ونقف هنا لنجد نقطة تحول فى حياة غاندى وفى نشاطه السياسى ، هى كذلك نقطة تحول فى تصوير آمال الشعوب المستعمرة التى تنشد الحرية والاستقلال . فقد جعل « غاندى » رسالته تحرير الهند من الحكم الأجنبى مستخدماً فى ذلك تعاليمه الخاصة : « الأهيمسا » و « الساتياجراها » ، باذلاً فى هذا السبيل أعظم الجهد ، فظل ينشر ويشرح أساليبه فى عدم العنف ، وقوة الحق ، وعدم التعاون ، مدى ثمان وعشرين سنة كاملة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية . وبفضل التطور الجديد للفكر الدولى كسبت الهند استقلالها على يد « غاندى » وجهود الشعب الهندى .

والتطور فى أفكار « المهاتما غاندى » — منذ حملته فى جنوب أفريقيا حتى استقلال الهند — عظيم حقًّا مع أن أساس هذه الأفكار لم يتغير طوال تلك الفترة . فقد كان هدفه الأول فى جنوب أفريقيا أن يعترف الجميع ، وأن يحترم الجميع الكرامة الإنسانية دون اعتبار لجنسية أو مذهب أو لون أو لغة أو حالة اجتماعية أو اقتصادية أو أية عوامل أخرى أدت وما تزال تؤدى إلى خلق الأزمات الاجتماعية والدولية .

فلما عاد إلى الهند أقنعه التطور العالمى للفكر الدولى نحو الحرية بأن الكرامة الإنسانية لا تتوافر لشعب تحكمه أمة أخرى ، وأن حرية الأمة أول شرط لاحترام كرامة أبنائها . وفكرة الاحترام الواجب للكرامة الإنسانية ليست من صنع « غاندى » بل هى قديمة قدم الفكر الإنسانى نفسه . فقد اعتبرتها الأجيال كافة حقيقة حيوية أساسية ، كررت التصريح بها فى بداية كل عصر جديد . وقد رأينا أن جميع الحركات الدينية والحركات

السياسية تضع على رأس مقرراتها ، وبين قواعدها الأساسية ، إعلاناً لحقوق الإنسان والكرامة الإنسانية هى الأساس الذى تقوم عليه .

ويكفى أن نذكر إعلان الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، والإعلان الأخير لحقوق الإنسان الذى أصدرته الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨ ، ومع ذلك فقد عانت الكرامة الإنسانية وما تزال تعانى سوء العذاب فى الحياة العملية . وما صدر عنه غاندى منذ ستين عاماً فى حملته الأولى فى جنوب أفريقيا ، لا يزال يدرج فى جدول أعمال الأمم المتحدة عاماً بعد عام منذ إنشائها .

من السهل أن نضرب الأمثلة لذلك فى مناطق أخرى فى العالم . فكيف يمكن أن تغتفر ديموقراطيات اليوم هذه الحقيقة الواضحة . وكيف يمكن أن نحفظ للكرامة الإنسانية احترامها . ذلك ما كان يتساءل عنه « غاندى » ، وهو ما نتساءل نحن عنه اليوم .

إن جذور الشر منذ أبعد الأزمنة كامنة فى النطاق المادى من الحياة ورغبة الإنسان فى استغلال الإنسان ، تلك الرغبة التى تسربت من الأفراد إلى الجماعات والأمم ، وأدت إلى عوج فى تفكيرنا لم ينج منه المجال الدينى نفسه . لما غزا المسلمون العراق فى القرن السابع الميلادى ، ورأى القائد العظيم « خالد بن الوليد » ثروات هذه البلاد ، قال لجنوده : إنى أرى خيرات هذه البلاد كافية لحملكم إلى الحرب فى سبيلها ولو لم تكن جهاداً فى سبيل دين الله . ولقد ذكرت الانسيكلوبيديا بريتانيكا فى حديثها عن الحروب الصليبية فى القرون الوسطى : « لم تكن الكنيسة تستطيع من خلال الحروب الصليبية أن تهدئ غريزة الحرب لدى مجتمع إقطاعى إلا أنها كانت تستطيع أن تتابع هدف السياسة التى وضعتها ، وأن تحاول نشر

النصرانية ولو على أسنة الرماح فى شتى أنحاء العالم المعروف . بذلك تجدد على نطاق أوسع الصراع القديم الذى لم يخمد أبداً بين الشرق والغرب » .

ظلت حالة الفكر هذه تمارس تأثيرها فى طرق تفكيرنا ومعاشنا ، بل كان لها هذا التأثير نفسه فى طرق التربية عندنا . فقد أثيرت مسألة تدريس التاريخ أمام لجنة الشئون الثقافية والإنسانية فى اجتماع مجلس الاتحاد البرلمانى الدولى فى نيس منذ ثلاثة أعوام ، وأقدمت يومئذ على القول بأن الطريقة التى يدرس التاريخ بها تهيئ أذهان النشء للحرب ؛ إذ يذكر لهم أن تاريخ البشرية إن هو إلا تاريخ المعارك الحربية ، وإن أكبر المجد هو مجد القواد والملوك الظافرين ، على حين أن التاريخ الحقيقى للبشرية هو تاريخ التطور السلمى الشاق المتواصل للأخلاق والفلسفة والعلوم والفنون وجميع مجالات النشاط المفيد للسلام . وانتهيت إلى أن تدريس التاريخ من هذه الوجهة أقرب إلى الحقيقة وأجدى فى إقرار السلام فى العالم . ولشد ما دهشت لأن كثيراً من أعضاء اللجنة اعتبر منهجى هـــذا خياليًّا ، فترك الموضوع لمزيد من البحث .

هذه الرغبة فى استغلال الإنسان لأخيه الإنسان أدت إلى تقوية الأنانية فى ماديات الحياة على حساب جانبها الروحى والأخلاقى . ولقد كان ذلك أشد وضوحاً فى الحياة الدولية ، وكان هو السبب فى صعوبة تدوين القانون الدولى . ولقد اقترح تدوين القانون الدولى فى أول مؤتمرات الاتحاد البرلمانى الدولى لما بعد الحرب الذى عقد فى القاهرة فى أبريل سنة ١٩٤٧ حيث تأجل نظر الموضوع إلى مؤتمر العام التالى الذى انعقد فى روما سنة ١٩٤٨ . وكل ما استطعنا أن نصل إليه فى تلك السنة هو تدوين بعض مبادئ الأخلاق الدولية التى أرسلناها إلى الأمم المتحدة للمعاونة على وضع نظام لتقنين

القانون الدولى ؛ ذلك النظام الذى لم يكن قد تم إعداده بعد. ولو أن مبادئ الأخلاق الدولية حلت محلها لكتب فى تاريخ الجنس الإنسانى بذلك فصل جديد .

والفكرة الأساسية للكرامة الإنسانية التى كافح « غاندى » من أجلها قضية جلية اعترف بها الجميع وهى حقيقة تخلص لها جميعاً ، وجدير بنا أن ندافع عنها ، فكيف يمكن أن يكون هذا الدفاع ؟

لقد اقترح « غاندى » فى ضوء التطور الجديد للفكر الإنسانى برنامجاً موسعاً يحيط بجميع ميادين النشاط الإنسانى من أخلاقية وثقافية واجتماعية واقتصادية وتربوية وما إليها . ويتناول هذا البرنامج كذلك العلاقات الدولية ، ولكن على نطاق أضيق بكثير ، ويلقى كثير من أجزاء هذا البرنامج قبولا عالميًّا ، ولكننى فى ريب مع ذلك أن تلقى بعض أجزائه الأخرى ، خصوصاً ماتعلق منها بالنظرية الاقتصادية ، مثل هذا القبول . قد تكون (اسواد يشى) Swadeshi والمغزل صالحين أخلاقيًّا ، ولكن العلم ليس له أن يسير إلى الوراء ، كما أن أفكاره المتعلقة بالتربية وطريقته التجريبية Project-method عظيمة مالم تتخط حدود التعليم الابتدائى والثانوى . لكننى أشك كثيراً فى إمكان التوصل إلى Swadeshi وإلى الاكتفاء الذاتى لإحدى الدول حتى فى الحاجات الأولية للحياة فى الظروف الحاضرة للاقتصاد العالمى المعاصر . كما أننى أشك فى استطاعة التوصل إلى إمكان تطبيق الطريقة التجريبية فى الجامعات . إلا أن برنامجه الأخلاقى عظيم حقًّا ، فهو مساهمة كبرى لتحسين حياة الإنسان .

والسمة الأصيلة فى طريقة « غاندى » هى احترامه لجميع الأديان وحملته الكبرى ضد التفرقة بين المنبوذين وغيرهم من أبناء الهند — إننى لشديد الإعجاب

بتلك النظرية الدينية ؛ فهى ليست مجرد التسامح ، بل هى أكثر من ذلك ، إنها أخوة حقة ؛ فأنت تستطيع أن تدعو الله على طريقة أجدادك أو على أية طريقة اخترت . وأنت أخ لكل من يدعون الله أياً كان ما دمتم جميعاً مخلصين فى إيمانكم ودعائكم ، لأن الله هو الحق . والحق هو الله فى جميع الأديان . وفى أثناء قراءتى لغاندى أوقفتنى كثير من أفكار الجيتا حول الدين لمشابهتها لمبادئ إسلامية مماثلة ، فكلاهما مثلا يقرر أن إيمانك لا يكتمل حتى تحب لأخيك ما تحب لنفسك . وهذه القاعدة الأخلاقية ذاتها موجودة فى المسيحية مثل وجودها فى الديانات الأخرى ، وكذلك بالنسبة لسائر القواعد الأخلاقية المتعلقة بالحقيقة والسلوك وحياة الأسرة وما إلى ذلك . فنحن نطبق نفس القواعد الأخلاقية السامية الشائعة بين دياناتنا جميعاً ، والتى تنطوى بذاتها على عوامل وحدتنا وتآخينا ، فلماذا نستبدل هذا التآخى بانسياقنا وراء التوافه التى تفرقنا وتسوقنا إلى الأزمات والحروب .

ولو أننا أخذنا فى الميدان الاقتصادى والاجتماعى بنفس مبادئ الحق والإيثار وإنكار الذات التى ينبغى أن نأخذ بها فى المجال الروحى والأخلاقى ، وطبقنا تلك المبادئ بكل إخلاص ، لزالت معظم الأزمات واستطعنا بذلك أن نعيش إخوة فى عالم ينعم بالسعادة والرخاء إلى أقصى ما يستطيع النعيم . من السهل أن يقتنع الجميع بقبول هذه القواعد وبالرضا عنها ببيان ما يكسبونه من تطبيق أسلوب « الأهيمسا » و « الساتياجراها » ، وإلا فإن أسلوب عدم التعاون فى غير عنف سيقنع الجميع ، متى تحقق ، بالحاجة إلى احتذاء المثل الذى اتبعه المجموع .

إن فاعلى الشر كانوا دائماً أقلية ضئيلة فى المجتمع ، ولكنها أقلية نشيطة استطاعت أن تجبر الأغلبية المسالمة على التسليم بنشاطها . ولقد أثبتت أعمال

« غاندى » أن أقلية تعمل للحقيقة بغير عنف لقادرة على أن ترغم الأغلبية على قبول عقائدها .

هل يمكن تطبيق هذه المبادئ فى الحياة الدولية ، وهل يمكن العمل بها فى الأمم المتحدة وفى المنظمات المرتبطة بها ؟ إننى لواثق من إمكان ذلك . ولو حدث هذا فإن الأمم المتحدة هى التى ستتولى –قبل أية منظمة أخرى– قيادة العالم إلى السلام ، شريطة أن تصبح عالمية تضم أمم الأرض جميعاً .

إن جميع البلدان ، وحسنى النية من الرجال والنساء فى جميع أنحاء العالم يتوقون إلى السلام ، وسوف يسعدهم أن يطبقوا هذه المبادئ أملا فى أن تؤدى بهم إلى السلام الدائم .

وفى مثل هذه الحال فإنهم يسمون جميعاً فوق جميع الاعتبارات القومية . ولكن السبب فى عدم تطبيق هذه المبادئ فى الأمم المتحدةهو عدم توافر الثقة بين أعضائها ، والاعتقاد السائد بأن ذلك الذى يتكلم هناك ليس مؤمناً بأن ما يقول هو الحق ، وإنما هو يحاول أن يخدع زملاءه مندوبى الدول الأخرى وأن يماريهم .

إن الحقيقة ، والحقيقة وحدها ، هى الكفيلة بإنقاذ العالم من الكوارث التى تعلقت بها رؤوسنا : قوة الحق ، قوة الروح ، « الساتيا جراها » على طريقة « غاندى » هى وحدها علاج انعدام الثقة . ويوم يثق أحدنا بالآخر ، ويوم نعتقد صادقين بأن كل واحد يقول ما يؤمن بأنه الحق ، سنتمكن من أن نتعاون معاً وأن نشترك فى تمهيد الطريق إلى حركة عالمية لبلوغ المثل العليا ، ولإيجاد حكومة عالمية وسلام دائم .

ولو أن بلداً صغيراً أو كبيراً ، قوياً أو ضعيفاً ، ظل يرفض أن يتعاون

صادقاً مع الآخرين فإن لنا فى أسلوب « غاندى » فى عدم التعاون فى غير عنف اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً لأداة فعالة لرد هذا البلد إلى طريق الحق . وإننى لمقتنع أن مثل هذه الأداة لن تفشل وأنها ستعيد أكثر البلاد عناداً إلى الطريق الصحيح . فإذا فشلنا برغم ذلك ، وإذا جاءت الحرب برغم كل هذه الجهود ، فإنها ستأتى بنهاية الإنسانية . وليكن أملنا ألا يجازف أى رجل أو امرأة فى العالم فيضطلع بمثل هذه المسئولية الجسيمة بأن يرفض هذا التعاون ، حتى نبلغ الهدف العزيز : السلام العالمى .

٣ – حول الهند

منذ عهد غير بعيد كنا إذا ذكرت الهند حسبناها من البعد عنا بحيث لا يجول بخاطر أحد منا أن يفكر فى زيارتها أو يمر بخاطره أن هذه الزيارة مما يدخل فى حيز الممكنات ، وكان عامتنا حين يذكرون بلاد العجائب يذكرون الهند والسند وبلاداً تركب الأفيال ، فلما انقضت الحرب العالمية الأولى وبدأت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ بدأنا نسمع فى مصر عن أنباء حركة « المهاتما غاندى » فى الهند ونرى وجوهاً للشبه غير قليلة بين حركتنا وحركة الاضطراب ومقاطعة البضائع الأجنبية ، وعدم التعاون وما إلى ذلك من شئون قربت فى أذهاننا بين تلك البلاد وبلادنا ، ودلتنا على أن ذلك الذى كنا نتصوره من قبل من بُعْد بلاد الهند عنا لم يكن مرجعه إلى ما يفصل بيننا وبينها من آلاف الأميال ، وإنما كان مرجعه إلى جهلنا أمرها ،

وعدم وقوفنا على شئونها ، فلما بدأنا نقف على بعض هذه الشئون قربت منا ، لأن العلم يقرب بين الإنسان وما يعرف ، فى حين يباعد الجهل بين الإنسان وما يجهل .

وازدادت حركة الهند الاستقلالية نشاطاً وقوة ، وازددنا تتبعاً لها ووقوفاً على الكثير من أمرها ، فازددنا قرباً منها . وزاد فى هذا القرب أن رأينا الهند تعنى من شئون ما يجرى فى محيطنا بما نعنى به نحن ، وتشاركنا فى آلامنا وآمالنا . لما ألغت تركيا الخلافة الإسلامية بعد أن أقصت سلاطين آل عثمان عن عرشها بدأت فى العالم الإسلامى حركة تفكير قوية فى هذا الأمر الذى كان يعتبر يومئذ حيوياً عند جميع المسلمين وكانت جمعية الخلافة فى الهند أقوى مظهر لهذه الحركة . ولم يكن ذلك عجباً ومسلمو الهند يبلغون يومئذ مائة مليون ويؤلفون أكبر كتلة إسلامية فى العالم كله . لكن العجب فى اشتراك الهنود غير المسلمين مع الهنود المسلمين فى حركتهم هذه وتأييدهم لها حرصاً على وحدة الهند . وكان طبيعياً يومئذ أن تتطلع الأنظار هنا فى مصر ، وأن تتطلع أنظار المسلمين فى شتى بقاع العالم ، إلى هذه الحركة الهندية الإسلامية وإلى تأييد « المهاتما غاندى » وأنصاره من الهندوس لها ، وأن يقرب ذلك بين الهند والعالم الإسلامى كله ، وأن يدفعنا هذا التعاطف إلى الشعور بأن الهند ليست بعيدة عنا بقدر ما كنا نتصور . وهل يقرب بين الناس شىء كاشتراكهم فى العواطف إزاء أمر بعينه . وهذا الاشتراك فى العواطف يمحو الأبعاد وإن بلغت ألوف الأميال ، وعشرات الألوف من الأميال .

فلما نجحت الحركة الاستقلالية فى الهند زاد نجاحها فى قربها منا نحن معشر الذين يطلبون الحرية والاستقلال للشعوب جميعاً ، وبخاصة

لأن الهند قارة أو شبة قارة كما يسمونها ، ولأن استقلال أربعمائة مليون من البشر يمثلون خمس الإنسانية فى مجموعها يعتبر نصراً مؤزراً وفتحاً مبيناً للحرية والاستقلال وللكرامة الإنسانية ولكل المعانى الإنسانية السامية .

وبدأ الغرب يكشف لنا عما فى الهند من قيم روحية وخلقية عليا ، كما كان جهادها فى سبيل الاستقلال مثلا فذًّا فى تاريخ الجهاد الإنسانى للحرية ، وبدأنا بذلك نشعر أن هذه البلاد المترامية الأطراف ذات الماضى المجيد والفلسفة الروحية السامية جديراً حقًّا بأن نزورها وأن نشهد ما فيها وأن نقف على حاضرها وماضيها .

لذلك لم أتردد حين وجهت إلى حكومة الهند الدعوة للاشتراك فى الندوة التى تعقد فى نيودلهى لدرس ما كان لتعاليم غاندى وأساليبه العملية من أثر فى توثيق العلاقات الإنسانية فى داخل الأمم وبين الأمم بعضها وبعض ، فقبلت الدعوة لأول ما عرضت على ، وأخذت أدرس حياة غاندى وتعاليمه ، وأقف أثناء هذه الدراسة على شىء غير قليل عن حياة الهند فى ماضيها وحاضرها . وأهيئ نفسى للوقوف على ما هناك من ألوان الحياة ومظاهرها فى هذا العالم الجديد الذى لم يتح لى من قبل أن أتصل به أو أقف عليه .

وترتب على قبول الدعوة أن عرفت أن الطائرة تقطع ما بين القاهرة وبومباى فى عشر ساعات . وكذلك سافرت إلى الهند فقضيت بها خمسة أسابيع ، من ٣١ ديسمبر إلى ٣ فبراير الماضى ، وفى هذه الأسابيع الخمسة شهدت الشىء الكثير مما يسرنى أن أحدثكم الآن عنه .

على أننى أبادر إلى القول بأننى لم أتنقل خلال ربوع الهند طيلة هذه الأسابيع الخمسة . فقد كانت ندوة « غاندى » معقودة فى نيودلهى ،

وكان مقرراً أن يمتد انعقادها من ٥ إلى ١٧ يناير ، فكان لزاماً أن نقيم بعاصمة الهند طوال هذه المدة . فلما انتهت الندوة تنقلت أنا وصديقى الدكتور «أحمد متين دفترى» رئيس وزراء إيران السابق خلال الهند طيلة الأسبوعين اللذين بقيا من إقامتنا فى ربوعها . فلما فرغنا من تجوالنا السريع فى أرجائها قفلنا عائدين معا حتى نزلنا بغداد ، ليسافر هو منها بعد أيام إلى طهران ، ولأسافر أنا منها بعد أيام كذلك إلى القاهرة .

* * *

الطبيعة أول ما يلفت نظر السائح فى بلاد غيره بلاده . وكثيرون يظنون أن الهند بلاد جميلة كسويسرا أو كلبنان . ويغريهم بهذا الظن أن بها جبال الهيملايا حيث تقوم قمة إفرست أعلى قمة فى جبال العالم . ويظن آخرون أن الهند بلاد الغابات والأدغال الموحشة التى تغطى عشرات الآلاف من الأفدنة ، وأنها تحوى من الوحوش أمثال الأسد والنمر والفهد ما يخافه الإنسان . يغريهم بهذا الظن ما كتبه الرحالون الإنجليز وغير الإنجليز عن صيد الوحوش فى الهند . وكلا هذين الظنين لا يصور الواقع من أمر الهند فى مجموعها . صحيح أن الجبال تمتد فى شمال الهند وتقوم حاجزاً منيعاً بينها وبين جاراتها من الأمم الأخرى . ولكن طبيعة الهند فيما سوى هذه المنطقة الشمالية طبيعة سهلة تشبه طبيعة وادينا المصرى فى كثير من الأحيان . والمرتفعات التى تقوم على الساحل الهندى ليست جبالا عالية عظيمة الارتفاع ، بل هى فى كثير من الأحيان هضاب لا يزيد ارتفاع الكثير منها على الجبال المحيطة بوادينا والتى تفصل بينه وبين صحرائنا الشرقية وصحرائنا الغربية . صحيح أن بعض البلاد بالداخل ترتفع عن سطح البحر بضع مئات من الأمتار ، وأن هذا الارتفاع يجعل جوها رقيقاً مقبولا

على مــدار فصول السنة . لكن ارتفاعها هـذا لا يجعلها جبلية ، بل هى أراض منبسطة تجرى السيارة فى طرقها مستوية مئات الأميال تنبسط عن يمينها وعن يسارها المزروعات الممرعة ويمتد البصر منها إلى الأفق فلا يقف فى طريقها حائل من تل أو هضبة أو جبل إلا نادرًا .

لفتت هذه الطبيعة السهلة المنبسطة نظر الكثيرين من إخواننا الذين دعوا إلى ندوة غاندى ، ولفت نظرهم خصب الأرض المخضرة بالزروع النامية الممتدة إلى مدى البصر . ذهبت أنا والدكتور « رالف بانش » نزور تاج محل فى « أجرا » ، ونزور آثاراً أخرى فى المدينة المهجورة : « فاتح بورسكرى » . وأجرا تبعد عن « دلهى » مسافة مائة وخمسة وعشرين ميلا ، و« فاتح بورسكرى » التى تبعد عن أجرا خمسة وأربعين ميلا . وقد كان انبساط الأرض وخصبها موضع حديثنا ونحن فى السيارة . كذلك ذهبت بالقطار أنا والدكتور « متين دفترى » نزور جامعة « عليكرة » ، وهى تبعد عن « دلهى » بعد أجرا عنها ، فكانت الطبيعة أمامنا ونحن ننظر من نافذة القطار منبسطة كذلك إلى مدى النظر . وكذلك كان الشأن حين تجوالنا أسبوعين داخل الهند . من ذلك تبينا أن الهند بلاد زراعية وفيرة الثروة كثيرة الخامات ، ولذلك كانت مطمح نظر المستعمرين فى عصور كثيرة .

ولم أقف أثناء تجوالى بالهند على تلك الغابات التى تصاد فيها النمور والحيوانات المفترسة . ولعل هذه الغابات أو الـ Jungles كما يسمونها ، تقع فى مناطق محدودة لم يتسن لى أن أذهب إلى أيها .

إذا كانت الطبيعة أول ما يأخذ بنظر السائح الغريب عن الديار فالآثار هى أشد ما يجذبه ويستهويه . فالسائح القادم إلى مصر أول ما يفكر

فى زيارة الهرم وأبى الهول وسقارة والأقصر . وحين نزلنا دلهى قيل لنا إن من جاء الهند ولم ير تاج محل لم يكن قد زار الهند . فأنت حين تذهب إلى فرنسا مثلاً فأول ما يعنيك أن تشهده ، وأول ما يعنى أهل فرنسا أن يطلعوك عليه ، هى الآثار الموجودة فى باريس وما حولها فى فرساى ، وفونتنبلو ، وفنسين ، وقصور اللوار فى أواسط فرنسا .

وزيارة الآثار لا يقصد بها إلى مشاهدة هذه المبانى وما تحتويه للمتاع بجمال العمارة وجمال ما بداخلها وكفى ، بل يقصد بها إلى معنى أدق من هذا بكثير . يقصد بها إلى معرفة صلة الإنسان بالحياة والوجود فى مختلف أدوار التاريخ . فهذه الآثار المصرية القديمة تصور حياة الفراعنة وتصورهم للحياة ولما بعد الحياة . والآثار الفرنسية تصور حياة فرنسا السياسية والإجتماعية وما طرأ عليها من هزات بلغت حد الثورات أحياناً . وما تقع عليه العين من آثار روما ، ما هو مهدم منها وما هو باق إلى اليوم ، يصور حياة الرومان القديمة وتطور هذه الحياة خلال العصور إلى وقتنا الحاضر .

والهند غنية بالآثار إلى غير حد . وآثارها تترك فى النفس ألواناً مختلفة من التصور الإنسانى للحياة فى عصور الإنسان المختلفة . ذلك بأن الهند طرأت عليها ألوان من الحضارات استقرت فيها وتركت من آثارها ما يقف النظر بالفعل . فهناك إلى جانب الآثار الهندوسية الأصلية – التى يرجع تاريخ بعضها إلى ألفى سنة أو أكثر – آثار المغول ، وآثار الفرس ، وغير هؤلاء وأولئك من المسلمين . كما أن هناك آثاراً حديثة أقام الهنود بعضها ، وأقام البريطانيون البعض الآخر . وكل هذه الآثار تقف النظر وتدعو إلى أعمق التفكير .

وأهم الآثار الإسلامية التى يشهدها الإنسان فى أرجاء الهند المختلفة المساجد والمقابر وتاج محل ، وهو أبهى هذه الآثار وأكثرها روعة وجلالاً ، إنما هى مقبرة شادها الملك « ساهجان » لامرأته ، كما أن أهرامات مصر مقابر شادها الفراعنة ليدفنوا بها . وأنت تشهد هذه العمارات البديعة التى أقامها ملوك المسلمين فى الهند ليدفنوا أو يدفن بعض ذويهم بها منتشرة فى كثير من المدن . تشهدها فى دلهى . وفى أجرا ، وفى الكسندرا ، وفى « حيدر أباد » وفى مثلها من المدن الكبرى ذات التاريخ المجيد فى الهند ، وكثيراً ما نرى إلى جانب هذه المساجد الفخمة مساجد مستقلة غير متصلة بها . وهى فى ذلك تختلف عن مقابر المصريين المتصلة بالمساجد ، وتختلف كذلك عن مقابر الصالحين المتصلة بالمساجد فى العراق وفى تركيا . فقبور الصالحين فى مصر والعراق ، أو مقصوراتهم كما نسميها هى جزء من المسجد ، كما أن المقصورة النبوية جزء من المسجد النبوى بالمدينة . وعمارة المساجد تختلف بين مصر والعراق ، لكن الصالحين المدفونين هناك تقع مزاراتهم داخل المسجد ، على حين تقع مقابر الملوك المسلمين فى الهند منفردة عن المسجد ، يفصل بينها وبينه طريق يختلف سعة وضيقاً .

ولم أر مقابر متصلة بالمسجد إلا ما كان فى مسجد « حيدر أباد » ، على أن نظام المقابر فى هذا المسجد يختلف عنه فى مساجد مصر والعراق سواء منها مساجد أهل السنة أو مساجد الشيعة . فمقابر « حيدر أباد » هذه ، وهى ثلاثة ، تقع فى دهليز طويل يبلغ طوله ثلاثين متراً أو تزيد ، وهذا الدهليز مرتفع عن الأرض قرابة متر ، مبنى كله بالرخام ، والقبور تتوسطه مبنية بالرخام كذلك ، وقد غطى كل منها بستر من قماش

كثيف ، يرفعه سادن هذه القبور للزائرين ذوى المكانة من ضيوف الدولة .

فأما مساجد الهند فتختلف كذلك عن غيرها من مساجد المسلمين ، ولم أر لها شبيهاً إلا الجامع الأموى بدمشق . فأما مساجد العراق ، ومساجد إستانبول فتشبه مساجدنا هنا من حيث إنها مسقوفة كلها . أما مسجد دمشق ، وأما مساجد الهند ، فالجانب المتصل منها بالقبلة مسقوف يرتكز سقفه على عمد ثم يظل سائر المسجد مكشوفاً إلى السماء ، متصلا مع ذلك ببقية المسجد على أنه جزء منه .

ومساجد الهند التى رأيتها حسنة البناء كلها .

ولم أعنِ نفسى بالبحث عن أى هذه المساجد لأهل السنة وأيها للشيعة ، وإن كنت قد عرفت فى كثير من المدن التى زرتها أن للشيعة مساجد ولأهل السنة مساجد أخرى . وفى البعض يزيد أهل السنة على الشيعة زيادة كبرى ، وفى البعض الآخر يزيد الشيعة على أهل السنة زيادة ظاهرة . ويرجع ذلك إلى التاريخ أكثر مما يرجع إلى أى سبب آخر . فقد نزل الفرس الذين جاءوا الهند بعض المدن وكثروا فيها فكانت الكثرة فيها للشيعة ، بينا كثر غير الفرس من المسلمين فى مدن أخرى فكانت الكثرة فيها لأهل السنة .

غير الآثار الإسلامية تقوم الآثار الهندوسية المختلفة ومعظمها معابد ، يرجع تاريخ بعضها إلى ألفى سنة أو أكثر كما قدمنا ، بينا أقيم البعض فى عهد حديث . وقد هجرت بعض هذه المعابد الهندوسية حتى تهدمت أو كادت ، بينا بقى بعضها إلى اليوم عامراً . ويتعذر على من لم يدرس عقائد الهند وفلسفة هذه العقائد أن يميز بين هذه المعابد والمذهب الذى تمثله . ولقد كانت مدة إقامتى بالهند قصيرة فلم أتمكن من دراسة تعاوننى على هذا التمييز بين المعابد . ولكننى مع ذلك زرت الكثير منهـا ووقفت

عند بعضه معجباً بدقة عمارته ، معجباً كذلك بما بين ألوان العبادة فيه وبين التثليث المصرى القديم والتثليث المسيحى وبين التثليث الهندوسى من شبه ، وإن اختلف ما يرمز إليه التثليث الفرعونى والمسيحى ، والهندى ، خلافاً كبيراً .

وتبعث هذه المعابد وما فيها من نشاط صورة من حياة الماضى الهندى يجعله فى حكم الحاضر ونشاطه . زرنا المدينة المقدسة بنارس الواقعة على نهر « الجانج » أو « الجانجى » كما يسميه الهنود ، ومررنا بعد العشاء ببعض معابدها فألفينا العشرات بل المئات يذهبون إلى هذه المعابد ومع الكثيرين منهم ما يتقربون به إلى معبوداتهم ، يصنعون من ذلك ما كان يصنعه أسلافهم منذ مئات السنين أو ألوفها ، ويشهدون بذلك على أن هذا الماضى ما زال حياً كما كان ، وأن مظاهر الحضارة الغربية لم تجن عليه فى قليل ولا فى كثير .

وزرنا عصر ذلك اليوم معابد تشهد ألوان العبادة فيها بأن الحياة الحديثة والعلم الحديث لم يجنيا على مقدسات الماضى السحيق حين كان الإنسان يتخذ الحيوان ويتخذ الأحجار إلى الله زلفى .

زرنا بعد ذلك فى « سارنات » على مقربة من مدينة « بنارس » ، معبد « بوذا » وآثاره . الشجرة التى يذكرون أن الإلهام أضاء أمامه بنوره وهو تحتها ، والهضبة التى آوى إليها ليعبد فيها ربه ، والمعبد الذى أقيم من عهد غير بعيد رسمت على جدرانه تعاليمه .

ومن عجب أن البوذية التى نشأت فى الهند لم يبق لها فى الهند أتباع إلا قليلين ، بينما ازدهرت فى بلاد أخرى تجاور الهند ، برما والتبت وبعض أنحاء الصين واليابان .

وما دمنا بصدد المعابد الهندية والحديث عنها فلا أستطيع أن أغفل أقربها عهداً وأقربها إلى تصوير التطور فى الحياة الروحية الهندية تطوراً

كان « المهاتما غاندى » صورته الحية . أقصد معبد « برلا » ، وهو المعبد الذى أقامه السرى الهندى برلا فى نيودلهى وافتتحه « المهاتما غاندى » . فهذا المعبد مجموعة تحتوى عدة معابد أحدها برهمى ، والآخر بوذى ، والثالث لمذهب آخر من المذاهب الهندية . وفى كل واحد من المعابد يرى الإنسان مكتوباً بالانجليزية وحدانية الله ، وتشير إلى ما كان يكرره « غاندى » من أن الله هوالحق ، وأن الحق هو الله ، وتذكر أن الخلق والحياة والانهيار والفناء مظاهر ، وأن البقاء لله وحده ، وأن الأرباب التى تصور الخلق والبقاء والتجدد إنما تصور صفات من صفات الله . أليست هذه المعانى الدينية المنقوشة على جدران هذا المعبد تمثل المعانى المشتركة فى الأديان كلهـــا .

افتتح « غاندى » هذا المعبد . وكان « غاندى » رجلا متديناً شديد الإيمان بالله . طلب إليه بعضهم يوماً أن يكتب كتاباً يصور فيه فلسفته الدينية والسياسية فقال : إنى لست فيلسوفاً ، ولكننى رجل عمل ، فإذا عرضت لى مشكلة استخرت الله فألهمنى طريقاً فسرت فيه فوفقنى إلى ما أبتغيه .

ليس هذا المقام مقام الحديث عن غاندى وآرائه . لكنى وأنا أقص مشاهداتى فى الهند لابد لى من أن أذكر أننى حين قرأت حياته أخذت منها أكثر من كل شيء بمجهوده لمقاومة عقائد تأصلت فى الهند خلال عشرات القرون بل مئاتها ، ونجاحه فى ذلك نجاحاً منقطع النظير ، حتى لقد كان أول ما دار بخاطرى وأنا بالطائرة فى طريقى إلى الهند أن أرى مبلغ هذا النجاح . قاوم « غاندى » نظام المنبوذين ، وقاوم عبودية المرأة للرجل ، فكان لذلك من أتباعه منبوذون كثيرون ، ونساء كثيرات . وقد سألت نفسى : أتأصل هذا فى الهند فأصبح بعض عقائدها ، أم تراه تطاير فعادت الهند إلى سابق

عهدها قبل « غاندى » ؟

وهنا أنتقل من الحديث عن مشاهداتى لطبيعة الهند ولآثارها إلى مشاهد الحياة الاجتماعية فيها .

تلطف حاكم ولاية « بومباى » فدعانى إلى طعام الغداء يوم وصولى إلى بومباى . فلما التقينا ودار بيننا الحديث سألته : ما شأن المنبوذين فى الهند اليوم ؟ وكان جوابه : لقد ألغى الدستور نظام الطبقات وقرر مساواة الهنود جميعاً قلت : هذا حسن من الوجهة النظرية . فهل انتقل الأمر إلى الحياة العملية فأصبح الناس يعاملون بعضهم بعضاً وكأن لم يبق بين الطبقات فارق ؟ . وأجابنى الرجل فى صراحة : لا أستطيع أن أقول نعم . فما يزال من أهل الطبقات القديمة من لا يؤمن بهذه المساواة ، ولا يزال منهم من يرى المنبوذين نجساً . لكنى مقتنع أن هذا الاعتقاد مصيره إلى الزوال بعد أن أصبح أبناء المنبوذين يجلسون إلى جانب أبناء الطبقات الأخرى فى المدارس ومعاهد التعليم ، وبعد أن فتحت أبواب الوظائف الحكومية للأكفاء جميعاً بصرف النظر عن الطبقات التى ينتمون إليها ، وبعد أن أصبح من حق الجميع أن يعملوا فى الأعمال الحرة المختلفة ، وأن يكسبوا من المال ما تؤهله لهم كفايتهم . وللتطور الاقتصادى حكم على التطور العقلى ، كما أن التطور العقلى متأثر بأحوال العالم الذى تقاربت أجزاؤه . لهذا أعتقد أن هذا التمييز بين الطبقات صائر إلى الزوال عما قريب ، وإن كان زواله ليس معناه ألا تنشأ طبقات أخرى أساس منشئها الثروة أو الجاه أو ما شئت من أسباب التفرقة المختلفة .

والتقينا ونحن فى « بنارس » بالفيلسوف الهندى الدكتور « باجوات داسى » ، وهو رجل مهيب الطلعة يبلغ من العمر أربعا وثمانين سنة ،

فحدثته فى أمر المنبوذين فكان جوابه غير جواب حاكم « بومباى » . قال : إن محاولة القضاء على الطوائف معارضة للطبيعة وللتكوين الإنسانى . فقد أثبت الإحصاء فى أمريكا أن ثلاثة وأربعين فى الألف فقط من بين المتعلمين تعليماً عالياً هم الذين يستطيعون السمو بتفكيرهم إلى مرتبة التجريد (abstraction) وأن غير هؤلاء من المتعلمين ومن غيرهم هم الذين يقومون بالتجارة أو بشئون الجيش ، وأن العدد الأكبر هم الذين يزاولون الأعمال الجسمانية كالزراعة والصناعة وما إليهما ومن هؤلاء من لا يستطيعون من هذه الأعمال إلا أقلها حاجة للكفاية أو المهارة . وتطبيق هذا الذى قرره الإحصاء بعد ذلك يعود بك إلى تصوير الطوائف فى الهند تصويراً يرجع إلى ألوف السنين . وإذا كان هذا التصوير قد فسد وأصبحت الطوائف العليا تعمل لكسب المال وهو محرم عليها فليس الذنب فى ذلك ذنب الفكرة المستندة إلى تكوين الإنسان الطبيعى ، بل الذنب ذنب الجماعات الإنسانية التى يهوى بها الضعف إلى درك لا يتفق وما فرضته الطبيعة بين الناس من اختلاف .

كان هذا جواب الفيلسوف الهندى الحكيم . وهو كما ترون جواب علمى لا يغير من واقع الحياة شيئاً . وواقع الحياة فى عصرنا الحاضر أكثر اتفاقاً مع الرأى الذى أبداه حاكم « بومباى » ، والذى تتجه إليه الديمقراطية وغير الديمقراطية فى العصر الحديث .

أما تطور شأن المرأة فى الهند فأعظم من تطور شأن الرجال . فقد تناول التطور فى أمر الرجال طائفة منهم بعينها . أما المرأة فقد دفعها التطور فى كل الطوائف إلى الأمام وإلى الحرية دفعاً لا يكاد الإنسان يصدقه . وكان أكبر الفضل فى هذا « للمهاتما غاندى » كذلك . كانت المرأة

الهندية إلى عهد غير بعيد فى حالة تقرب من الرق ، حتى لكانت تحرق مع زوجها حين يموت ، وكانت فى حياتها فى مركز يكاد يكون مركز الرقيق . فلما أشركها « غاندى » فى حركة المقاومة فى غير عنف ، وفى حركة العصيان المدنى ، أظهرت من قوة الاحتمال ما عجز عنه الرجال فى بعض الأحيان . هنالك ارتفعت الصيحة بأن للمرأة من الحق فى الحياة ما للرجل ، وسرعان ماانتقلت من ذلك إلى مساواته فى الحقوق كلها ، وفى الحقوق السياسية نفسها . ولعمرى إنها بذلك لجديرة . لقد كنت شديد الإعجاب بمدام « بانديت » شقيقة الرئيس نهرو منذ رأيتها فى الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٦ وعام ١٩٤٧ ، وكنت أحسبها امرأة ممتازة لا يشاركها فى امتيازها رجل أوأمرأة . فلما ذهبت إلى الهند وأتيح لى أن أتحدث إلى بعض السيدات هناك ، رأيت صورة إنسانية بالغة غاية الرقى فى تفكيرها وفى ذوقها الحياة . وزادنى أقتناعاً بذلك أن شهدت بعض مظاهر النشاط النسوى فى الحياة الاجتماعية وفى الحياة التربوية ، لا فى دلهى وحدها ، بل فى مدن مختلفة زرتها . وليس عجباً أن تنهض المرأة فى أمة كل شيء فيها ناهض أو متوثب للنهوض .

ذكرت أن الهند بلاد زراعية أرضها خصبة متنوعة الحاصلات . مع ذلك تعمل الحكومة المركزية متعاونة مع حكومات الولايات الهندية لمضاعفة الإنتاج الزراعى بإقامة السدود لتنظيم الرى ، وتعمل فى الوقت نفسه لتصنيع البلاد وتركيز الصناعات الكبرى فى الأجواء الملائمة لها . والصناعة هى الوسيلة الوحيدة لرفع مستوى المعيشة فى الأمم ، وهى كذلك الوسيلة الأكيدة لشعور الأمم بمقدرتها الإنسانية على الدفاع عن نفسها . ولقد نشأت فى الهند صناعات ضخمة كثيرة فى مقدمتها صناعة النسيج

للقطن والحرير ، ومنها صناعة الحديد ، والخزف ، ومنها كذلك صناعة أجزاء الطائرات المختلفة . وقد زرت المدرسة التى يتعلم فيها الهنود صناعة الطائرات على يد أساتذة من الألمان ومن السويديين ومن غيرهم فأثارت غاية إعجابى . وإذا لم تكن قد بلغت بعد أن تصنع محركات الطائرات فإن تقدمها المطرد يبشر بأنها ستبلغ أن تصنع هذه المحركات فى زمن قريب .

ولست فيما أذكر من ذلك مبالغاً فى التفاؤل . فإن نشاط الحركة العلمية فى الهند يدعو إلى الإعجاب ، بل يدعو إلى الدهشة . وقد كانت هذه الحركة العلمية أشد ما أثار اهتمامى مدة مقامى بالهند . لذلك زرت كل جامعة استطعت زيارتها فى البلاد التى مررت بها ، وتحدثت إلى الأساتذة والطلاب فيها . وأشهد لقد أدهشنى ما رأيته فى بعضها من تجارب علمية بالغة غاية الدقة .

كثيراً ما سمعت عن جامعة « عليكره » ، أو « أليجار » الإسلامية كما يسمونها بالإنجليزية ، وقد ذهبت لزيارتها مع صديقى الدكتور « متين دفترى » بدعوة من مديرها الدكتور « زكير حسين » . وكان أكبر ظنى أن هذه الجامعة الإسلامية تعنى بالدراسات الإسلامية المختلفة ولا تتعداها . فلما بدأنا زيارتنا لم يتغير هذا الظن فى نفسى . فقد كان مسجد الجامعة أول ما سار بنا الدكتور « زكير » إليه . ثم إننا زرنا مكتبة الجامعة ورأينا فيها الكثير من الكتب العربية والفارسية ومن المخطوطات القديمة فلم يغير ذلك من ظنى الأول كثيراً . لكننى لم ألبث حين انتقلت مع الدكتور « زكير » إلى أقسام الجامعة العلمية أن تغير ظنى من أساسه . فهذه الأقسام العلمية فى الطبيعة والكيميا والرياضة العليا وغيرها تتناول أدق مشاكل العلم فى الوقت الحاضر . وبعض هذه الأقسام مما رتب للبحث العلمى

ينقطع له من أتموا دراساتهم العليا ويصلون فيه إلى نتائج تفخر بمثلها أكبر الجامعات فى أوربا وأمريكا ، ويشرف عليها بعض العلماء الأمريكان . وحسبى أن أذكر لكم من هذه الأبحاث محاولة ناجحة لقياس الضغط الجوى على ارتفاع مائة ألف قدم وآثاره الكهربية على ألواح تعد خصيصاً لهذا الغرض وترسل فى الجو على مناطيد صغيرة تسجل الآلات الدقيقة فيها هذه الآثار الجوية العجيبة .

وقد شهدت مثل هذه الأبحاث فى معاهد جامعة « بنجلور » وفى غيرها من الجامعات التى زرتها .

وكان أكبر اهتمامى فى هذه الزيارات الجامعية أن أبحث الوسيلة التى تستطيع البلاد الشرقية ، وتستطيع الهند معها ، أن تتبادل من ألوان التعاون العلمى والثقافى والفلسفى ما يزيد روابطها قوة إذ يجعل أبناءها أكثر معرفة بما فى غير بلادهم من اتجاهات وأبحاث . ولقد شعرت بأن هذا الموضوع ليس من اليسر بما يتصور الإنسان . قال أحد الأساتذة فى جامعة « بنجلور » بأن بحثاً كهذا البحث جرى لتقريب أجزاء الكمنولث البريطانى من الناحية العلمية والفكرية فلم يسفر عن نتيجة . كذلك تحدثت وأنا فى « بنجلور » مع سير « صمويل رانجادان » والسيد « جوردون » فى هذا الموضوع وذكرت لهما ما عرض من اقتراحات بعقد مؤتمرات وتبادل أساتذة وطلاب وتبادل مؤلفات وبحوث فتمنيا لى النجاح فى المحاولة التى أعالجها وإن بدا عليهما شىء من الشك فى هذا النجاح . وكم أود لو استطاع رجال جامعاتنا وعلماؤنا أن يتناولوا هذا الموضوع بالبحث فيما بينهم . فالصلات العلمية والأدبية والفنية بين الأمم هى التى تكفل ارتباطها بأوثق رباط .

الفصل الخامس

الإسلام والحضارة الجديدة

١ – القوة الروحية فى الإسلام

يخطئ الذين يظنون أن مصير الإنسانية رهن برخائها المادى ، وأن تطورها إلى ناحية الكمال يتأثر بهذا الرخاء . إنما يرتبط مصير الإنسانية بحياتها الروحية وبالإيمان الحق بهذه الحياة . والتاريخ شهيد بذلك . فحيثما هبطت الحياة الروحية إلى أوضاع مادية نشأت الأزمات الإنسانية الخطيرة ، وآذن التاريخ أن يتجه وجهة جديدة وإن بلغ الرخاء أعظم مبلغ . وحيثما سمت الحياة الروحية إلى المعانى العليا نشطت الإنسانية فى اتجاهها نحو الكمـال وازدادت حرصاً على بلوغ الغاية من معرفة الحق والخير والجمـال ولو لم يكن الرخاء عامًّا ، ولو كان عيش الناس أدنى إلى الشظف والتقشف .

هذه حقيقة يشهد بها التاريخ القديم ويشهد بها التاريخ الحديث . ولئن كانت القوة المادية تستطيع مقاومة القوة المادية لهى عاجزة كل العجز عن مقاومة القوة الروحية . وحسبنا مما شهدنا أخيراً ما قاومت به الهند إنجلترا بزعامة « المهاتما غاندى » . فقد حتم زعيم الهنـدوكيين الروحى على أصحابه ألا يقاوموا قوة الحكومة المادية بأية مقاومة إيجابية . وطلب إليهم أن يكتفوا

بالمقاومة السلبية ، وأن يأبوا معاونة المعتدين عليهم ، وأن يستهينوا بالموت فى سبيل عقيدتهم هذه ، فكانت تلك قوة أعظم من كل قوة مادية إيجابية تستطيع الهند فى وضعها الحاضر أن تقاوم بها إنجلترا . وإننى لعلى ثقة من أن هذه الحال إن استمرت عن عقيدة صادقة وإخلاص وإيمان قديرة على بلوغ كل الأغراض التى يراد أن تبلغها ، وهى إذا كانت قد قصرت دون الوصول إلى الغاية كاملة فلأن القائمين بهـا لم يستمروا فيهـا إلى النهاية .

وفى التاريخ أكثر من شاهد على قوة الحيوية الروحية قوة لا يمكن لقوى المادة وإن اجتمعت أن تتغلب عليها . وانتشار المسيحية فى روما أول أمرها وما احتمل المسيحيون من اضطهاد وتعذيب وقتل شاهد على ما أقول . وما حدث فى مصر كذلك من تعذيب المسيحيين ومن تغلب المسيحية ، على رغم هذا التعذيب ، شاهد آخر . على أن أقوى شاهد فى تاريخ الإنسانية على اقتدار القوة الروحية على الانتصار والظفر بقوى الحياة المادية كلها إنما هو ما حدث حين قام « محمد » النبى العربى فى شبه جزيرة العرب يدعو إلى عبادة الله ، وإلى تحطيم الأصنام ويجادل اليهود ويجادل النصارى ويصل بقوته الروحية التى سمت إلى الذروة من قوى الروح إلى إقرار التوحيد فى شبه الجزيرة ، وإلى التمهيد لانتشاره بسرعة لم تعرف الأديان الأخرى نظيرها فى أنحاء العالم كله .

لقد كانت الوثنية هى الدين الغالب فى بلاد العرب حين بدأ « محمد » يدعو إلى الإيمان بالله وحده ، والعبودية له وحده ، والمساواة أمامه ، والإخاء فيه . لكن الأديان المعروفة يومئذ وأقواها اليهودية والنصرانية كانت معروفة فى بلاد العرب ، وكان لها دعاة وأتباع . وكانت المجوسية الفارسية معروفة ،

إذ كانت الفرس تتاخم بلاد العرب بسلطانها على الحيرة وعلى اليمن . فلما بدأ النبى العربى دعوته كان أول ما اتجه بها إلى عشيرته الأقربين من عباد الأصنام . ومع أنهم كانوا أصحاب سلطة ومجد ، ومع أنهم كانوا القائمين بتجارة بلاد العرب فيما بين قبائلها المختلفة ، والقائمين بها بين هذه القبائل والبلاد المجاورة لبلاد العرب كالحيرة والشام ، ومع أنهم كانوا بذلك أولى بأس مادى شديد فإن القوة الروحية التى دعا بها « محمد » إلى التوحيد قد تغلغلت على أموالهم وعلى بطشهم وبأسهم . وسرعان ما كسبت لذلك أنصاراً جعلوا يزدادون عدداً بتوالى السنين وجعل عددهم يزداد سراعاً كلما تبين الناس هذه القوة الروحية وسموها فوق الاعتبارات التى يجرى الناس وراءها .

فلما آن « لمحمد » أن يهاجر إلى يثرب ، ووجد اليهود من أهل الكتاب بين أهلها يؤمنون بالله ، وادعهم وعاهدهم . لكنهم ما لبثوا حين رأوا قوته الروحية أسمى من كل ما يعرفونه أن برموا به وأرادوا إيقاع الفرقة بين صفوف أتباعه بالدسيسة وبالخداع وبالنفاق . والقوة الروحية الصادقة لا تعرف هذه الوسائل التى يلتمس بها سواد الناس سلطان الجاه وسلطان المال ، لذلك أسرعت الخصومة إلى القيام بينهم وبين المسلمين المعتزين بقوتهم الروحية ، المستهينين بالموت فى سبيلها ، إيماناً منهم بأن الدعوة للحق جل شأنه أسمى غرضاً فى الحياة لكل من اهتدى إلى الحق عن إيمان وبصيرة .

وخاصم اليهود « محمداً » ومن تبعه فدارت عليهم الدائرة واضطروا إلى الجلاء عن شبه جزيرة العرب كلها مع أنهم كانوا بيثرب أصحاب السلطان النافذ من الناحية المادية لأنهم كانوا أصحاب المال فيها . فأما النصارى فلم يخاصموا « محمداً » والمسلمين مخاصمة اليهود إياهم لأن

المسيحية تفرقت شيعاً منذ عهودها الأولى . ودب إلى أتبــاع عيسى شقاق أدى إلى الجدل المادى حول الألفاظ وأدى إلى تصوير الحياة الروحية تصويراً مادياً يسيغه الخيال ويفتن فى تلوينه افتناناً يزيد فى هذه الشيع والفرق ويدخل إلى حياتها الروحية من التعقيد مالا تسيغه بساطة هذه الروح بساطة هى مبعث قوتها . ومن ثم اتبع كثيرون من النصارى «محمداً» وبقى آخرون على نصرانيتهم منزوين لا يثيرون ما أثار اليهود من حرب وجدال انتهى بهم إلى الجلاء عن بلاد العرب .

وكان أمر المجوسية أضعف من أمر اليهود والمسيحية فى بلاد العرب فلم يكن لذلك جدال ولا نضال بين أتباعها القليلين وبين الدعوة إلى التوحيد .

على أنه إذا كانت نصرانية بلاد العرب قد آثرت مسالمة «محمد» والمسلمين والذين آمنوا بدعوته فإن الإمبراطورية البيزنطية المتاخمة لبلاد العرب خاف أصحاب الحكم فيها على نفوذهم أكثر مما تمسكوا بدينهم . فآثروا أن يناصبوا المسلمين الحرب على أنها حرب سياسية لا حرب عقيدة ودين ، وحيث ترتطم السياسة ومداوراتها مع العقيدة القائمة فى النفس على إيمان لا يهاب الموت تتحطم السياسة وأساليبها وقواها وتنتصر العقيدة الصادقة والإيمان المخلص . لذلك لم تمض سنوات على اختيار الله نبيه إليه حتى كان سلطان المسلمين قد أظل بلاد الشام الخاضعة للإمبراطورية الرومانية الشرقية كما أظل بلاد فارس المجوسية ، وفى هذه البلاد التى فتحت أبوابها للمسلمين قام الدعاة يدعون إلى الله فلم يلبث أهل هذه البلاد أن رأوا بساطة الإسلام وسمو وجمال الدعوة الخلقية القائمة على الإيمان فيه وما يقيم بين المؤمنين به من إخاء صادق فى الله ومن بر وتقوى .

هنالك إنشرحت صدور الأكثرين من أهل هذه البلاد للإيمان ، فآمن منهم من آمن وبقى على دينه من بقى . لم يكرهه حاكم على التحول عنه أو تبديله .

ولم يمض قرن واحد على خروج الدعوة الإسلامية من بلاد العرب حتى كان الذين دانوا بالإسلام مئات الألوف . وحتى كانت قوة الإسلام الروحية قد غزت القلوب والعقول ببساطتها ومخاطبتها النفس الإنسانية فى أعظم نواحيها سمواً وعظمة . لكن أوضاعاً مادية من أوضاع أهل الأديان الذين اعتنقوا الإسلام ما لبثت أن تسربت إلى بعض نواحيه ، كما أن دعايات سياسية عملت جهدها لتكثر من هذه الأوضاع المادية . وقد خيف أن تفشو بين المسلمين الفرقة والتشيع كما فشت فى المسيحية فيكون لها على المسلمين ما كان لها من الأثر على المسيحيين ولو أن ذلك حدث واستفحل أمره لكان الطامة الكبرة . لكن ما حدث منه ، وما أضعف بحدوثه هذه القوة الروحية العظيمة التى جاء الإسلام بها وانتشر سلطانها لم يؤثر لحسن الحظ ، على جوهر الدين وعلى أساسه القائم على التوحيد. وهذا هو ما جعل المسلمين بعد أن طغت عليهم دول كثيرة يحتفظون بإسلامهم ولا يبتغون غير الإسلام ديناً . وذلك ما جعل القوة الروحية التى امتاز بها الإسلام تظل محتفظة بكيانها وإن أضعف منها هذا الذى حدث وأخضع أهلها لغيرهم من الدول .

ولو أن هذه القوة الروحية عادت تملأ نفوس المسلمين اليوم كما كانت تملأ نفوسهم فى صدر الاسلام وفى عهوده الأولى لما استطاعت قوة مادية أن تتغلب عليها وإن آزرتها معجزات العلم بكل سلطانها . وليس هذا العود بالأمر العسير إذا تضافرت جهود المسلمين الصادقين عليه . ولو

تضافرت هذه الجهود لأسدى أصحابها للإنسانية يداً ولأنقذوها من أزمة تعانيها وتعالج الخروج منها فلا تجد إلى الخروج من سبيل .

٢ – أوربا والإسلام ولم لا يتفاهمان ؟ *

أما أنه ليس هناك تفاهم بين أوربا والإسلام فهذا أمر لا شك فيه ، غير أن كثيراً من الأوربيين يرجعون هذا إلى الدين ، وهم يقولون إن المسيحية والإسلام عاشا فى خصومة مستمرة منذ ثلاثة عشر قرناً ، ولذلك كان من الطبيعى أن ينشب بينهما الخلاف ، وأن لا يتم التفاهم بين أوربا والإسلام . تلك فكرة مخطئة ، وإذا كان فيها ظل من الحقيقة فهو بمقدار ما فى قولنا إن فرنسا وإنجلترا لم يستطيعا التفاهم قبل سنة ١٩١٤ . فقد كانتا قبل هذا التاريخ عدوتين كأشد ما تكون عداوة ونفرة وخصاماً . وليس من السهل على إنسان يحكم عقله فيما يعرض له من مظاهر أن يقبل نقاشاً من هذا النوع ، إذ أن هاتين الدولتين متفاهمتان تفاهماً تاماً ، وليست الأفكار الديموقراطية التى شاعت فى فرنسا سنة ١٧٨٩ إلا نفس الأفكار التى جاءت بها الثورة الإنجليزية فى سنة ١٦٨٨ ، وهى هى التى هيأت لما نتج عنها من تطورات . وهذا نفس ما وقع بين أوربا والإسلام . فإن أوربا قد استفادت كثيراً من الجهود العلمية والفلسفية التى جاءت بها

* وكانت صحيفة – الكايه دى سيد – التى تصدر فى فرنسا قد بعثت إلى الدكتور هيكل تطلب إليه أن يكتب مقالا بالفرنسية لينشر فى العدد الذى خصصته هذه الصحيفة – للإسلام والغرب – فبعث إليها بهذا المقال عن أسباب عدم فهم أوربا للإسلام وما يراه من الوسائل الكفيلة بخلق تفاهم بينهما . وقد ترجمه الأستاذ أحمد عبد الغفار المحامى (١٩٣٦) .

الدولة العباسية فى العصور الوسطى . ولا أحسب أنى أتهم بالمغالاة إذ قلت إن المسلمين هم الذين فتحوا عيون أوربا على الحضارة والفلسفة اليونانية ، وذلك عن طريق نقل آثار أفلاطون وأرسططاليس إلى العربية وتعليقهم على هذه الآثار . ولم يمنع الدين المسيحى ولا الدين الإسلامى أن تستفيد أوربا من هذا الجهد الإسلامى .

ودليل آخر على أن هذه فكرة مخطئة هو أن كلا من المسيحية والإسلام إنما يشيران إلى نفس الآراء فيما يختص بالكون . فقصة التكوين ، والخير والشر ، والخلق كله ، والأوامر والنواهى ، واحدة فى كل من الدينين ، فليس بين الدينين من خلاف إلا فى فكرة الوحدانية فى الإسلام وموقفه من فكرة التثليث ، وفى بعض الوقائع التاريخية التى تتعلق بأنباء النبيين . غير أن هذه الخلافات – التى لا تمس الجوهر – ليس من شأنها أن تعدم التفاهم . أو تقيم خلافاً كالذى دفع إلى الحروب الصليبية قديماً ، والذى لا يزال حيًّا الآن بين أوربا والمسلمين .

ومن ناحية أخرى فإن أوربا تدعى أنها تطورت وأنها خرجت من الدائرة اللاهوتية ودائرة ما وراء المادة إلى الحالة الوضعية . وهذه الحالة التى تدعى أوربا اصطناعها لا تساعد على جعل الدين أساساً لصلات الاجتماع ، فى حين أن المصالح الاقتصادية استطاعت أن تشعل نيران أكبر حرب عرفتها الإنسانية حتى اليوم .

ومعنى هذا أن تلك الحالة الوضعيه لا تبيح أن يكون الدين – وفقاً لمنطقها ذاته – سبباً فى استبعاد التفاهم بين شعبين ، بله بين أوربا والمسلمين .

وقد يقول أحد الأوربيين : حقًّا إن الدين ليس فى ذاته سبباً فى عدم

التفاهم هذا ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون تعصب المسلمين هو السبب فى تلك الحالة التى يتبادل فيها الأوربيون والمسلمون العداء . وهذا الكلام ليس أكثر ابتعاداً عن الصواب مما قدمنا ، فلست أتردد فى أن أقول إنه إذا كان هناك تعصب فعلاً فإن هذا التعصب ليس من بضاعة المسلمين ، ولست ألقى هذا القول جزافاً فإن الحقائق كلها تؤيد ما أذهب إليه . فلما جاء « بونابرت » إلى مصر فى سنة ١٧٩٨ ، لجأ إلى العلماء لكى يمدوه بالمساعدة فى إدارة البلاد . وإذا كانت غزوة « بونابرت » لم تنجح فى مصر بعد رحيله عنها ، فذلك لأن القائمين عليها إذ ذاك أغفلوا الشعور الوطنى متأثرين بالتعصب الدينى . ولو قد كان التعصب لدى المصريين على هذه الصورة التى يتخيلها الأوربيون لكانت تكفى تصريحات « نابليون » و« كليبر » و« مينو » ، وقد كان العلماء الدينيون فى مصر معهم ، كانت تكفى هذه التصريحات لكسب شعور البلد ، ولكنهم فشلوا لأن النزعة الوطنية كانت أقوى من التعصب الدينى عند الأهلين ولذلك لم يستطع لا نابليون ولا من خلفه على الحملة الفرنسية أن يكسبوا المصريين فى صفهم .

وحقيقة أخرى تثبت بوضوح أن التعصب الدينى منعدم تماماً عند المسلمين . تلك أن أغلبية البلاد الإسلامية — إبان الحرب الكبرى — انضمت إلى صف الحلفاء مع أن تركيا وحدها هى التى انضمت إلى ألمانيا ، ولقد فشلت الدعاية القوية التى بذلتها تركيا لإنعاش هذا التعصب الدينى المزعوم لكى تضم البلاد الإسلامية إلى جانبها ، والسبب فى هذا أن البلاد الإسلامية كانت إذ ذاك لا يدفعها إلا الشعور الوطنى ومصالحها المستقبلة .

وحقيقة ثالثة تثبت أن هذا التعصب لا وجود له — هى تركيا الحالية . فقد اتجهت بكل جهودها إلى أوربا لكى تقتبس منها ما يعيد إليها شبابها . ولست

فى مقام الحكم على مدى نجاحها فى هذا السبيل ، ولكن كونها وبقاءها إلى الآن بلداً إسلامياً ، قدأظهرت بمسلكها هذا أنه لا الدين ولا التعصب يمكن أن يكون سبباً لعدم التفاهم بين أوربا والمسلمين .

ولكى نتعرف هذه الأسباب يجدر بنا أن نستعيد جانباً من التاريخ . فبعد وفاة النبي العربى صلى الله عليه وسلم بثلاثين سنة ، أنشأ المسلمون إمبراطورية إسلامية واسعة النطاق . ولم تكن فكرة الاستعمار هى التى تدفع المسلمين للغزو ولكنه كان إيمانهم وتعصبهم لفكرة الوحدانية هو الذى يبعث فيهم روح الغزو لينشروا ما آمنوا به فى كل الأنحاء وليمحوا آثار الوثنية . وبعد ذلك بمائة عام قام المسلمون بغزوات أخرى . وكان نفس هذا الباعث هو الذى يدفع المسلمين ، ولكن بحرارة أقل ، وحماس دينى أقل . فقد كانت فكرة الغزو للغزو فى هذه الآونة ، وفكرة الاستعمار حباً فى الاستعمار ، تساوى تماماً فكرة نشر الدين الجديد .

وبعد ذلك بخمسين سنة قام المسلمون بغزوات أخرى . ولكن فى هذه المرة لم يكن الباعث الدينى هو الذى يحمل المسلمين على الغزو ، بل كانت فكرة الغزو للغزو ، والسبب فى هذا واضح ، فقد كان الإسلام منتصراً كل الانتصار فلم يعد فى حاجة إلى زيادة التوسع بقدر ما كان المسلمون أنفسهم فى حاجة إلى غزو بلاد جديدة تدفعهم فكرة الاستعمار . وهذا التطور من فكرة نشر الدين إيماناً بوجوب نشره ، إلى فكرة الاستعمار للاستعمار يعتبره الكثيرون السبب فى قيام الحروب الصليبية ، ومع ذلك فإن المؤرخين يذهبون إلى القول بأن الحروب الصليبية هى حروب سياسية بقدر ما هى حروب دينية ، وأن الملوك الذين اشتركوا فيها لم يلجأوا إلى الشعور

الديني عند رعاياهم إلا لاستثارتهم وزيادة حماستهم وزيادة القوة المعنوية بين صفوفهم .

ومرت بعد ذلك قرون حتى انتهى الأمر باستيلاء الأتراك على « إستانبول » في القرن الخامس عشر . وكان أثر هذه الحملة الآسيوية التي قام بها الأتراك في البلاد الإسلامية عكس أثرها في أوربا ، فقد شعرت شعوب أوربا بهزة أيقظتها من سبات القرون الوسطى . وأما في البلاد الإسلامية فإن الأمر يختلف عن ذلك . فلم يكن بين الشعب الغازي والمسلمين أية علاقة تجمعهم جميعاً إلا علاقة الدين ، لا علاقة الجنس ، ولا علاقة اللغة ، ولا علاقة التفكير . وأما الدين فلم يكن في نظر الأتراك إلا راية للحرب تتخذ وسيلة لعقاب كل بلد إسلامي لا يخضع للأتراك . وقد ترتب على هذا أن العالم الإسلامي راح في سبات عميق عند غزو « إستانبول » في حين أن أوربا بدأت تستيقظ على دوي هذا الغزو وتتجه إلى حياتين ذهنية وروحية جديدتين .

بيد أن هذه النهضة الأوربية لا تشابه تلك النهضة الروحية التي كانت شبه جزيرة العرب مسرحاً لها قبل ثمانية قرون تحت تأثير ما بعث به محمد من الحق .

وليست النهضة الدينية التي أظهرت « لوثر » إذ ذاك إلا خلافاً على تفاصيل الدين لا على جوهره ، ولذلك فإنه ليس يمكن أن تقارن هذه النهضة بما كان من نهضة الإسلام الأولى ، ولذلك كانت ثورة « لوثر » أقل من أن تؤثر في أوربا كلها ، وإن تكن قد عبدت الطريق لمذهب « ديكارت » وللفلسفة الوضعية بعد ذلك . وبينما كان هذا التطور العقلي يهز أوربا ، كان مبدأ القوميات يتأكد في الأذهان تمهيداً لأن يكون قاعدة

للحياة السياسية المستقبلة ـ ومن الحق أن نقول إن هذا المبدأ كان دائماً موجوداً فى أوربا ، ولكنه لم يكن يمثل القوة التى ظهر بها بعد عصر النهضة وإحياء العلوم ، وقد اقتضى هذا المبدأ الدول الأوربية أن توسع من نفوذها خارج أوربا تفادياً لقيام حرب بينها فى داخلها . وهكذا بدأت السياسة الاستعمارية تشق طريقها فى أوربا ، تلك السياسة التى تكوّن السبب الحقيق لعدم التفاهم القائم بين أوربا والإسلام .

ولنشرح هذا قليلا ؛ فنى غضون القرن السابع عشر نصح الفيلسوف الكبير « ليبنتز » « لويس السادس عشر » أن يحفر قناة تصل ما بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، ولم يكن غرض « ليبنتز » بالطبيعة من هذه النصيحة نشر فلسفته ، بل كان الغرض الذى يرمى إليه هو فتح الطريق أمام التوسع الأوربى فى أفريقيا وآسيا . فقد كان لإسبانيا مستعمراتها فى أمريكا وكانت تدر عليها الذهب ، فكان من الضرورى أن يكون لغيرها من الدول مستعمرات كذلك . وفى نفس الوقت انتهت المفاوضات التى كانت جارية مع تركيا إذ ذاك بمنح المسيحيين الذين يقيمون فى البلاد الإسلامية امتيازات من شأنها أن تسهل لهم الإقامة والاتجار . ولم يكن أحد يفكر عندئذ فى إدخال المدنية إلى الشرق ، ذلك الادعاء العبقرى الجميل الذى لجأت إليه الدول الأوربية لتبرير الاستعمار بعد ذلك بقرنين . هذا وقد منح الباب العالى امتيازات للدول المختلفة للوصول فى النهاية إلى شرط أولى الدول بالمراعاة . وهكذا رسخت التجارة الأوربية فى الشرق توطئة للحضارة الاستعمارية .

وقع بعد ذلك حدث – لست أدرى أكان وقوعه لحسن الحظ أم لسوئه – ساعد على رسوخ هذه الحضارة الاستعمارية ، ذلك هو الصناعة

الكبرى . فلكى تجد الدول الأوربية الأسواق اللازمة لاستهلاك ما تخرجه صناعتها الكبيرة من منتجات . أخذت هذه البلاد تتنافس فى غزو المستعمرات . وكانت الفكرة فى هذا إيجاد أسواق جديدة للمنتجات الصناعية والبحث عن حقول جديدة كذلك لإنتاج المواد الخام .

وكانت هذه الروح الاستعمارية فى إبان سطوتها عندما انفجرت الثورة الفرنسية فهزت أوربا من أقصاها إلى أقصاها بما أشاعت من فكر عن الحرية والإخاء والمساواة . وبما جاهدت فى سبيله من توطيد لحق الشعب فى حكم نفسه ، ومن وضع لقواعد الديمقراطية الحالية .

ولكن كيف يمكن أن نوفق بين هاتين الفكرتين المتناقضتين : الحرية ، والاستعمار ؟ من العسير حقًّا أن نفهم هاتين الفكرتين معاً ، ولكن أصحاب الثورة الفرنسية لم يترددوا لحظة أمام هذه الصعوبة فى التوفيق بين الفكرتين ، فلقد قالوا إن المبادئ الجديدة التى جاءت بها الثورة الفرنسية يجب أن تظل محصورة ضمن أوربا فلا تتعداها . وعندما جاء « نابليون » إلى مصر ، لم يكن مدفوعاً إلى اجتياز البحر الأبيض بدافع الحرية . ولكنه كان مدفوعاً بمقاومة وضع اليد الإنجليزية على مصر توطئة لعرقلة النفوذ البريطانى فى الهند . وإذن فقد كانت فكرة الاستعمار ، والاستعمار فقط ، هى التى تحكم نشاط كل من إنجلترا وفرنسا فى مصر . ولذلك فإن هذه المبادئ التى نادت بها الثورة الفرنسية ، مبادئ الحرية والمساواة والإخاء لم تقف قط عقبة فى سبيل تقدم أوربا فى الشرق وفى البلاد الإسلامية .

بيد أنه من الواجب – إلى جانب هذا الدافع الحقيق – أن تبحث أوربا عن تعلة أخرى تبرر بها الغزو الأوربى للبلاد الشرقية . ولم يكن البحث عن هذه التعلة بالشيء العسير . فإن هذه الشعوب المستعمرة شعوب أولية

ومن الحق على أوربا أن تعلّم هذه الشعوب ، وأن ترفعها إلى مستوى الحضارة الجديدة ، وأن تكونها وتدربها بحيث تستطيع أن تحكم نفسها وفقاً للآراء الديمقراطية . كانت تلك هى التعلة التى استترت أوربا وراءها ، وإنها لتعلة عبقرية حقًّا . فلو قد كانت هذه العواطف صادقة ، ولو قد كانت أوربا مخلصة فيما تريد أن توطد قدمها من أجله فى الشرق ، لكان واجباً على هذه الشعوب الشرقية أن تتبادل التهنئة على روح العطف على الآخرين التى تبدو من أوربا إذ ذاك .

ولقد آمنت هذه الشعوب الشرقية بسذاجة تامة بهذا الإخلاص الذى أبدته أوربا ورغبت بكل قواها أن تقتبس الحضارة والثقافة الأوربية . ولكنها سرعان ما تبينت أن لا مواءمة هناك بين هذه الجهود التى تبذلها وبين الأغراض الحقيقية لهؤلاء الأسياد الذين كانوا يحكمون أقدار هذه الشعوب عندئذ . فالحضارة الأوربية إنما تقوم فى الواقع على العلم وعلى رأس المال الصناعى وأرادت الشعوب الشرقية أن تستعيد القرون الثلاثة التى سبقتها بها أوربا فحسبت أن مبادئ الإخاء والمساواة من شأنها أن تملى على أوربا واجب الأخذ بيد هذه الشعوب لكى تحصل على نصيبها من العلوم ومن رأس المال المستغل فى الصناعة ، كما كان الحال مع المسيحيين الأول والمسلمين الأول الذين حاولوا بكل ما يملكون من جهد أن ينشروا ما جاءت به المسيحية والإسلام ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . ومنذ أوائل القرن التاسع عشر رغب المصريون اصطناع العلوم والصناعات فى بلادهم ، وساعدتهم الظروف على مواتاة أملهم هذا ، ثم نما هذا الأمل بعد الاحتلال البريطانى ، فقد كان من حق المصريين أن يعتقدوا أن إنجلترا سوف تصدّر لمصر – فيما تصدر من مصنوعات منتجاتنا القطنية – حضارتها الجديدة كذلك . فانتظر المصريون أن يروا إنشاء

الجامعات ، ونشر التعليم العام ، وإنهاض الصناعات الكبيرة . ولكن هذا الأمل ما لبث أن خبا ، فقد اتهمت البلد المغزو بأنه بلد بعيد عن الحضارة ، وأن هذا ناشئ عن الدين الإسلامى .

ولقد جاهر « اللورد كرومر » ممثل بريطانيا العظمى فى مصر — فى تقاريره الرسمية — أن الغرض من التعليم يجب ألا يتعدى إخراج موظفين مطيعين يعملون فى الإدارة . ولم يكن يهم إنجلترا أن تتقدم مصر فى ناحية من النواحى إلا فى إنتاج القطن والمواد الخام التى يحتاج إليها الاستهلاك البريطانى وتحتاج إليها الصناعة البريطانية ، ويجب أن نعترف أن إنجلترا بذلت مجهودات هائلة لتحسين إنتاج القطن وغيره من المواد الخام . غير أن أى طلب ينصب على إنشاء صناعة كيفما كانت يوظف فيها رأس المال المصرى ، كل طلب من هذا الطراز كان يقابل بالرفض البات ، أو بوضع عقبات — لا يمكن التغلب عليها — فى طريقه . وما حدث فى مصر حدث فى غيرها من البلاد المستعمرة . ولم يكن التنافس الاستعمارى المسرف غير الدافع لغليوم الثانى على أن يقول إن مستقبل ألمانيا ليس إلا فى البحر ، ولم يكن إلا الدافع إلى إعلان السلام المسلح ، الذى أملى على أوربا أن تنفق مئات الملايين فى التسليح ، ولم يكن إلا الباعث على نشوب الحرب العظمى فى سنة ١٩١٤ . وسياسة كهذه لا يمكن أن تطمئن إلى غدها ، ولا يمكن أن تضع ثقتها فى شىء ، ولذلك لم يكن لأوربا بطبيعة الحال ثقة فى مستعمراتها ، ولم يكن للبلاد المستعمرة — من باب أولى — ثقة فى نوايا أوربا ، ومن أجل هذا كان عسيراً أن يقوم تفاهم بين أوربا والإسلام .

ولم يكن للشعوب المستعمرة ثقة فى أوربا ، ليس فقط لأن أوربا كانت تعاملها باعتبارها شعوباً غير متحضرة ، ولكن لأنها كانت تطبق فى

مستعمراتها الآراء التي حكمت عليها – داخل بلادها الأوربية – بأنها بالغة الضرر. فقد قررت فرنسا مثلاً فصل الكنيسة عن الدولة داخل بلادها ، وقررت كذلك تجريد رجال الكنيسة من أموالهم ، وأعلنت بعد ذلك الحالة المدنية . ومع كل هذا فإن الحكومة الفرنسية المدنية تعطى أموالاً طائلة للبعثات الدينية التي تدعى أنها تنشر المسيحية .

ومن الحق علينا أن نعترف بأن هذه البعثات الدينية – سواء منها الفرنسية والأمريكية والإنجليزية وغيرها – قد قامت بأعمال إنسانية فى الشرق فقد أسست هذه البعثات معاهد علمية ، ومستشفيات ومؤسسات خيرية . ولكن البعثات المدنية قامت كذلك بأعمال كثيرة من هذا الطراز . والواقع أننا لا نستطيع أن نفسر هذا التناقض الظاهر فى مسلك الحكومات الأوربية ، إذ أن هذه الحكومات تطارد البعثات الدينية من بلادها لكى تحميها فى الخارج ، فإن لم يكن الباعث هذه الروح السياسية الاستعمارية لما عاملت البلاد المستعمرة غيرها من البلاد وفق المبادئ التى قامت الثورات ضدها عند الأمم الأوربية .

ومن العوامل التى ساعدت على عدم قيام تفاهم بين أوربا والإسلام هجرة العناصر غير المرغوب فيها فى البلاد الأوربية إلى البلاد المستعمرة بحثاً عن الثروة دون إقامة أدنى وزن للوسائل والأساليب التى يستخدمونها فيما هم بسبيله من غرض . ويكفى أن يقرأ الإنسان كتاب « إدمون أبو » القديم المسمى « الفلاح » لكى يدرك الإنسان إلى أى درك تنحط هذه الوسائل والأساليب فى أغلب الأحيان ، ولكى يعرف أن الربا قد يكون أقرب هذه الوسائل إلى الخير والفضيلة .

وعند ما خاب أمل الشعوب الإسلامية – كما وضحنا ذلك – فى

نيات أوربا ، أحست هذه الشعوب ، قبل الحرب الكبرى بعدة سنين ، أن من واجبها ألا تعتمد إلا على مجهودها الخاص ، ولم يكن أمل هذه الشعوب الإسلامية كبيراً فى النجاح ؟ ولكن يجب أن نعترف إلى جانب هذه الحقيقة التى قررناها ، أن ضعف الأمل فى النجاح لم يقف عائقاً دون هذه الشعوب وما تبتغى من الأغراض ، بل لم يمنعها هذا من الاستزادة من النشاط مع الإيمان دائماً بالعدالة الإلهية العالية .

ولشد ما كان دهش هذه الشعوب عندما اندلعت أول شرارة للحرب العظمى فى الثانى من أغسطس سنة ١٩١٤ : فنى غضون المدة الطويلة التى استمرت فيها الحرب كانت دعاية الحلفاء التى تنادى بأنها تحارب الروح العسكرية الألمانية لكى تنصر الحرية ، والوعود التى كان يبذلها هؤلاء للشعوب المستعمرة ، والمبادئ التى جاءت بها الهدنة ، وخاصة الاعتراف بحق الشعوب فى تقرير مصيرها — كل هذه أمور كان من شأنها أن تفتح أمام الشعوب المسلمة آفاقاً جديدة وبالأخص أمام الشعوب التى انتصرت لقضية الحلفاء .

وإذا انتهت الحرب ، ووقعت المعاهدات ، أخذت آمال هذه الشعوب تذوى ! ! أكانت إذن خدعة من أوربا عندما قام من ينادون بحق تقرير المصير ؟ أكان إذن خدعة ذلك النضال ضد الروح العسكرية الألمانية ؟ وهل بقيت أوربا ما بعد الحرب إزاء الشعوب الإسلامية هى أوربا ما قبل الحرب ؟ لقد كانت خيبة الأمل فى ذلك كله أكبر من الآمال التى عقدتها هذه الشعوب على أوربا .

بيد أن شيئاً لا يمنع من قيام تفاهم متبادل بين أوربا والإسلام إذا

وجد الرجال ذوو العزائم من الناحيتين ، الذين يأخذون على عاتقهم القيام بهذا العبء الضخم .

ولكن أين يوجد هؤلاء الرجال ؟ أين الكتاب والفلاسفة ورجال العلوم ؟ أعتقد أن من الواجب عليّ أن أقول – دون أن أخدش جميع من ذكرت – إن هؤلاء كلهم يتحملون نصيباً كبيراً من المسئولية عن قيام عدم التفاهم الحالى بين أوربا والإسلام ، إذ أن الأغلبية منهم تنسى أن لهم رسالة إنسانية ، رسالة لا تعرف حدود الدول السياسية . فهؤلاء الكتاب والفلاسفة وأصحاب العلوم يضعون نبوغهم وعبقريتهم فى خدمة سياسة بلادهم القومية ؛ وليس من ينكر أن هذا واجب عليهم إذا تعرضت أوطانهم . للأخطار ولكن هذه الأخطار قليلة الحدوث فى الغالب ، ومن واجب رجال السياسة أن يسيّروا أمور الوطن وقت السلم تسييراً يكون من نتائجه الابتعاد عما يوقد نيران الحرب ، ففى هذه الأوقات ، من الحق على أصحاب العلوم الإنسانية من الكتاب وغيرهم من رجال الفكر ، أن يسخروا جهودهم لخدمة قضية الحرية والتعاون بين الشعوب .

وحرية الشعوب التى نعنيها شبيهة بحرية الأفراد . يحترمها الجميع ويعترف بها الجميع ، دون نظر لثرواتهم أو لقواهم المادية ، وتعاون الشعوب الذى نعنيه تعاون قائم على القاعدة السابقة بين الأمم . وحسبنا بهذه وسيلة للتفاهم المرموق .

ولكن هل يمكن أن ينجح الإنسان فى دفع رجال الفكر فى العالم إلى طريق كهذا الطريق ؟ تلك هى المشكلة ، ذلك أن المصالح المادية – لسوء الحظ – من القوة بحيث لا تجعل محلا للأمل العريض . فهذه المصالح حتى الآن هى التى تدير النشاط فى العالم ، بل إنها تدير حياته

الروحية والخلقية . غير أننا لا يجوز أن نيأس مع ذلك . فإن كثيرين يعتقدون أننا الآن فى سبيل بعث أكبر من البعث الذى رأته أوربا فى القرن السادس عشر فى عصر النهضة وإحياء العلوم ، وأن هذا البعث لن يقتصر على أوربا ، بل إنه سوف يشمل دول العالم جميعاً . وسيكون هذا البعث نتيجة طبيعية لهذه الحرب الاقتصادية المستعرة بين الشعوب ليس فى أوربا فحسب ، ولكن فى آسيا وأمريكا كذلك . فلنؤمل إذن أن يقترب موعد حرية الشعوب والتعاون بينها لسعادة الجميع ورفاهة الجميع .

ويومذاك ، لن يوجد عدم التفاهم بين أوربا والإسلام ، بل سيوجد تفاهم عالمى للوصول إلى الحقائق الخلقية العالية ولتوطيد السلام بإقامة الحياة الخلقية على البصيرة الروحية والحياة الاقتصادية على الحياة الخلقية .

٣ — وجهة الإسلام

« يجب علينا فى الختام أن نتساءل عما يمكن فى مستقبل نظام العالم أن يكون عليه وضع الجماعة الإسلامية بصفة عامة ؛ وأن تكون عليه صلاتها بالجماعات الإنسانية الأخرى بصفة خاصة . لقد أوضح الأستاذ « برج » بحق أن إلقاء الشعوب الإسلامية بوزنها فى كفة الغرب أو فى كفة الشرق يتعلق تمام التعلق بموقف أوربا من العالم الإسلامى ومن الشرق بوجه عام . والإسلام لا يمكن فى نفس الوقت أن ينكر أسسه الذاتية وأن يعيش . وقد رأينا أن الإسلام فى أسسه يتصل بالجماعة الغربية بمعناها الواسع ، بل هو جزء منها ، فهو مكمل الحضارة الأوربية ومعدلها ، استقى من الينابيع

التي استقت منها هذه الحضارة وتنفس الهواء الذى تنفست . وما هو حادث اليوم بين أوربا والإسلام إنما هو فى أوسع صور التاريخ مدى استعادة حضارة الغرب كمالها الذى تصدع تصدعاً مصطنعاً بالنهضة (الرينسانس) ، والذى يستعيد الآن وحدته بقوة ساحقة .

« والمشتغل بدراسة التاريخ ؛ وإن كان يدرك مزالق الأقيسة لا يسعه إلا أن يذكر لحظتين قديمتين (وإن لم تكونا أقدم مثيلاتهما) من لحظات التفاعل الإنسانى بين نصفى العالم الغربى ؛ فقد كان جلال الإمبراطورية الرومانية وعظمتها أنها وحدّت بين القسمين تحت سلطانها ، وحدة نشأت منهـــا القوى الروحية التى سيطـــرت على مجرى التاريخ الغربى . وفى منتصف الطريق بين ذلك العصر وعصر النهضة الأوربية وثب الإسلام وثبته الفكرية الأولى عندما تشرب تراث الإغريق وأخرج منها زهوراً جديدة أمدت النهضة الأوربية ببذورها .

« ولا يمكن أن تقف الحركة عند هذا الحد ، بل هى ستمر تحت أعيننا وفى ميدان أوسع وأرحب ، وإن كان التباين بين العالم الإسلامى باعتباره كلا وبين التقدم الصناعى المدهش الذى بلغته أوربا الغربية قد يحول أحياناً بيننا وبين مشاهدة هذا الاستمرار . ولو أن الأمر كان بالعكس لما تغيرت النتيجة ولكان لزاماً علينا أن نلجأ للمجتمع الإسلامى ليعيد إلى المدنية الغربية توازنها الذى أفقدها إياه تقدم الغرب دون الشرق . وربما يتضح على مرور الزمن أن معقل الإمبراطورية العثمانية كان فى دفاعها عن الإسلام ، وأنها بجعله فى معزل منعته من الاشتراك فى تقدم الوطنية الأوربية المبالغ فيه وجعلته يأخذ الصبغة البلقانية – وهذا هو المصير الذى وقعت فيه تركيا نفسها والذى ورثته عن ماضيها السياسى البيزنطى لا عن

ماضيها الإسلامى . ومهما تكن الظروف فإن الإسلام ليقف جنباً إلى جنب مع أوربا على خلاف المجتمعات الشرقية الأخرى فى الهند والشرق الأقصى . وفكرة إنشاء عصبة أمم شرقية تشمل البلاد الإسلامية والهند والصين واليابان فكرة خيالية أنتجها استياء الشرق من سيطرة أوربا الاقتصادية المؤقتة . ولن يستطيع المجتمع الإسلامى أن يستغنى عن التعاون الأوربى لبلوغه الغاية التى يصبو إليها من التقدم لثقافته وحياته الاقتصادية ، كما أن المجتمع الأوربى ليس يستطيع الوصول إلى الغاية القصوى من التقدم فى ثقافته وحياته الروحية بدون الاستعانة بالقوى الكامنة فى المجتمع الإسلامى . ثم إن المجتمعين لن يتمكنا من استعادة كامل القوات الكامنة فيهما واستغلالها قبل أن يستعيدا ذلك التفاعل الذى كان قائماً بينهما فى ظل الإمبراطورية الرومانية .

« ولا يزال الإسلام عامل التوازن بين النقيضين فى العالم الغربى . فهو يقف فى وجه فوضى الوطنية الأوربية كما يقف حائلاً دون زحف الشيوعية الروسية . ذلك بأنه لم يخضع بعد لضغط الجانب الاقتصادى الذى يعد من خصائص الحياة فى أوربا وفى روسيا على السواء فى حركتنا الحاضرة . وقد لخص الأستاذ مسينيون أدب الإسلام الاجتماعى تلخيصاً يثير الإعجاب فى قوله : « يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعشر فى موارد الجماعة . ومبادئ الإسلام تنبذ التبادل غير المقيد كما تناوئ بالعداء الأموال المصرفية (الربا) والقروض الحكومية والضرائب غير المباشرة على ضروريات الحياة ، فى حين أنه شديد التمسك بحقوق الوالد والزوج والملكية ورؤوس الأموال التجارية ، فهو بذلك يقف موقفاً وسطاً بين البورجوازية الرأسمالية والشيوعية البلشفية » .

« والإسلام مطالب كذلك بخدمة أخرى يسديها للإنسانية . فهو إلى الشرق الحقيقي أقرب من أوربا إليه . وله ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها . وليس من مجتمع آخر له مثل ما للإسلام من ماض كله النجاح فى جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة فى الحقوق والواجبات . ولقد برهنت الطوائف الإسلامية الكبرى فى أفريقيا والهند والهند الشرقية ، والجماعات الصغيرة منهم فى الصين واليابان ، على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التى لا سبيل إلى التوفيق بينها . وإذا ما أريد إحلال التعاون محل الخلاف بين المجتمعات فى الشرق والغرب فإن وساطة الإسلام ضرورية لا غنى عنها . فهو وحده الكفيل بحل المشكلة التى تواجه أوربا فى علاقاتها مع الشرق . فإذا اتحدا عظم الأمل فى أن تكون النتيجة سلاماً . أما إن رفضت أوربا معاونة الإسلام وألقت بنفسها فى أحضان خصومه فإن العاقبة لا يمكن أن تكون إلا نكبة لهما معاً » .

* * *

ما أتم القارئ الآن تلاوته هو ختام كتاب « وجهة الإسلام » ، الذى تعاون فى وضعه الأساتذة « جب » بجامعة لندن . و« ماسنيون » بجامعة باريس ، « وكامبفماير » بجامعة برلين ، و« برج » بجامعة ليدن واللفتنانت كولونل « فرار » . وهؤلاء جميعاً هم كبار المستشرقين فى ممالك أوربا المختلفة . وقد تولى الأستاذ « جب » نشر هذا الكتاب ووضع مقدمته وخاتمته التى حاول فيها أن يصور اتجاه الشعوب الإسلامية فى هذا العصر الحاضر . أما الأستاذ ماسنيون فقد كتب عن شعوب أفريقيا الشمالية فيما عدا مصر والشرق العربى وتركيا وفارس وأفغانستان ، وكانت الهند الإسلامية

موضع دراسة اللفتنانت كولونيل فرار ، كما كانت إندونيسيا موضع بحث الأستاذ « برج » . وقد تعاون هؤلاء الأساتذة جميعاً فى دراسة العوامل والاتجاهات التى تبدو وتعمل فى الممالك الإسلامية وأرادوا على ضوء دراستهم ومباحثهم أن يصوروا موقف الإسلام من أوربا وموقف أوربا من الإسلام وما يجب أن تكون عليه صلات الفريقين فى المستقبل بعد أن وصفوا ما كانت عليه فى الماضى .

ولعلك شعرت من قراءة خاتمة الكتاب ومن هذا العرض السريع لمشتملاته أنه كتاب سياسى يقوم على أسس من البحث العلمى ، وأنت لذلك يجب إذا قرأته أن تقرأه بما يجب من حذر السائر فى مسالك السياسة ، ومن سكينة المطمئن لنزاهة مباحث العلم ؛ ويجب عليك كذلك أن تعمل للاستفادة منه كمسلم وكشرقى فى مثل الغاية التى وضع لها .

* * *

يبلغ عدد المسلمين على حساب الإحصاءات الأخيرة من مائتين وأربعين إلى مائتين وخمسين مليوناً .* منهم مائة وثمانون مليوناً فى آسيا ، وخمسون مليوناً فى أفريقيا ، والباقون موزعون بين أوربا وأمريكا . وهؤلاء المائتان والخمسون مليوناً موزعون توزيعاً جغرافياً عجيباً يجعلهم جميعاً متصلين أو فى حكم المتصلين بعضهم ببعض . فهم يتتابعون فى سلسلة متصلة من غرب أفريقيا حيث يتاخمون الأطلانطيق إلى السودان ومصر ويمتدون محاذين البحر الأبيض المتوسط إلى غرب آسيا وجنوب أوربا مما

* يبلغ عدد المسلمين فى العالم الآن حوالى ٧٠٠ مليون وذلك حسب آخر الإحصائيات .

حول البحر الأسود ثم تستمر سلسلتهم مطردة الاتصال شمالاً فى قلب سيبريا وشرقاً فى منغوليا ، كما أنها تتخطى الدجلة والفرات فى العراق إلى العجم وإلى أفغانستان وإلى الهند حيث تنقطع السلسلة هوناً ما لتتصل بعد ذلك فى جزر الملايا وأرخبيل الهند الشرقية حتى تنتهى إلى الفيلبين . وهى تنزل جنوباً من السودان إلى شاطئ أفريقيا الشرقى حتى مدغشقر . يضاف إلى هذه السلسلة المتصلة بعض شعوب إسلامية منعزلة خلال الصين أو على حدودها وفى جنوب أفريقيا وفى بولونيا وفى أنحاء مختلفة من أوربا وأمريكا . يقول « جب » : « إذا أنت نظرت إلى العالم الإسلامى على الخريطة رأيته أشبه شىء بهلالين عظيمين تنبعث قرونهما من مركز مشترك فى آسيا الغربية . فالهلال الشمالى يتكون من شريط يزيد عرضه على ألف ميل ويكاد يحيط بأوربا من أقصاها إلى أقصاها ويعزلها جغرافياً عن بلاد آسيا الجنوبية والشرقية الكثيرة السكان . أما ذراع الهلال الشمالى الرفيعة فتضم أثناءها المحيط الهندى » .

هذا العالم الإسلامى الفسيح فى ترامى أطرافه ، الجامع لذلك بين شعوب وأجناس وبيئات مختلفة التاريخ كاختلافنا فى ظروف العيش ، له مع ذلك وحدة فى الحضارة ووحدة فى الثقافة . ومرجع ذلك إلى أسباب عدة : منها أن هذا العالم الإسلامى لم يتكون تدريجياً على الزمن ، ولكنه وجد وامتد فى فترات قصيرة متقاربة هيأت لهذه الوحدة النفسية والعقلية ، ففيما بين بعث النبى عليه السلام فى سنة ٦٣٢ ميلادية وسنة ٧٥٠ — أى فى فترة لا تزيد على مائة وعشرين سنة — امتد سلطان الإسلام من إسبانيا ومراكش إلى أواسط آسيا وظل مستقراً هنالك قرنين ونصف قرن من الزمان أمكن فيهما تركيز حضارة وثقافة مستمدتين من أصل الإسلام والبيئة التى

نشأ منذ أول أمره فيها . وفى المائة السنة الواقعة ما بين سنة ألف وسنة ألف ومائة امتد سلطان الإسلام فى ميادين أربعة : فى غرب أفريقيا ، وفى آسيا الصغرى ، وفى آسيا الوسطى ، وفى شمال الهند . وبعد قرنين آخرين – بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٤٠٠ نفذ سلطانه إلى البلقان وإلى روسيا وسيبريا وإلى بقية الهند وإلى إندونيسيا . ومن يومئذ وقف سلطان الإسلام عن الامتداد إلا فى حدود ضيقة أكثرها فى أفريقيا . وفى كل واحدة من هذه القفزات التى قفزها نفوذ الإسلام وسلطانه كانت الحضارة الإسلامية التى نمت وترعرعت منذ القرنين الأولين من عصوره الزاهية تزداد نماء وقوة بما تتصل به من حضارات جديدة تؤثر الحضارة الإسلامية فيها وتخضعها لسلطانها وتتأثر فى نفس الوقت وتتغذى بما قد يكون من صالح فيها . وذلك بأن الإسلام لم يكن منذ اللحظة الأولى ديناً وعبادة وكفى ، ولكنه سرعان ما كان ثقافة وحضارة تكونت على أسسه وأصوله التى توطدت فى حياة « محمد » بخير ما توطدت لحضارة ولثقافة أسسها وأصولها الأولى . لذلك كان طبيعياً أن تتغذى الحضارة الإسلامية وأن تتغذى الثقافة الإسلامية من كل ما غزوا من ميادين العلم والبحث ، على أنه كان ككل قوى الحياة السليمة دائم النمو دائم النشاط لا يستقر ولا يهدأ بل يريد دائماً جديداً يهضمه ويتمثله ليلفظ قديماً لم يبق صالحاً لدرك الغاية التى ترمى الأصول والأسس الأولى لإدراكها ، وفى مقدمة ما ترمى هذه الأصول والأسس له تحرير الفكر من قيود المادة وتصوير العالم فكرة لا آلة والعمل للاستزادة من معرفة العالم لزيادة الاتصال به وحسن تمثل فكرته . والغاية التى يرمى الإسلام لها درك كمال النفس فى حسن اتصالها بالله ، وإسلامها له إسلاماً صحيحاً . وهذا وذاك لا يتحققان إلا بتحقق المعرفة فى أسمى ما تستطيع

عقولنا وعواطفنا وأفئدتنا وقلوبنا أن تصل إليه . فى هذه الحدود المترامية الأطراف كانت الحضارة وكانت الثقافة الإسلامية تعملان . وبروح من الإخاء الصحيح الذى يقرر أن إيمان المرء لا يكمل حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه كانت الجهود تتضافر لإقامة الحضارة والثقافة . وبحكم اجتماع المسلمين فى مكة أيام الحج كانت نتائج هذه الجهود تنتشر وتقوى وتنتقل إلى المسلمين جميعاً فى مختلف أقطار الأرض . أضف إلى هذا أن الإسلام سكّن حدة الفوارق الجنسية حتى لقد كاد يهدم الحدود فيما بين الدول المنتسبة له ، كما أن أخوة المسلمين يسرت الهجرة لهم جميعاً . فلم يكن عجباً أن نرى المعرّى ينتقل من الشام إلى بغداد ويتخذها زمناً ما سكنا ، ولا كان عجباً أن يقيم من أهل الحجاز بمصر ومن أهل اليمن بالشام ومن أهل مصر بالمغرب ، وأن تنتقل ثمرات الفكر والبحث العلمى فى أنحاء العالم الإسلامى على أيدى هؤلاء المهاجرين .

ولهذه الظروف ازدهرت الحضارة وتأصلت جذور الثقافة من عصور الإسلام الأولى . على أن نظام الحكم والأصل الذى يقوم فى الإسلام عليه مالبث أن تغير وإن اندست إليه فكرة تخالف الفكرة التى عرفت منذ صدر الإسلام ، فكرة كانت شائعة إلى يومئذ فى فارس وفى بيزنطة وفى البلاد التى تغلب المسلمون عليها ، فكرة سرعان ما طورت كيان النظام الاجتماعى من الحياة الحرة إلى حياة مقيدة وما مهدت لدخول دول الإسلام فى تيار تفكير العصور الوسطى وما يسرت للحاكم أن يزج فى نطاق الدين بكل شىء ، وبكل ما ليس من الدين فى شىء ، وأن يقيد بقيود الدين حركات الناس وسكناتهم ومأكلهم ومشربهم وطريقة مشيتهم وسلامهم وصور حديثهم وسكونهم . يقول « جب » : « وبالرغم من أن الدعوة

الإسلامية نفسها لم تنتشر بالسيف فقد كان تحت جناح الحكم الإسلامى أن وجد المبشرون بها خير الظروف فى نشاطهم للدعوة » ، ولئن كان هذا النشاط قد وجد فى أوربا المسيحية خصومة ولدداً منذ الساعة الأولى ومنذ أيام النبى عليه السلام فإن تسلط المسلمين وسرعة انتشارهم فى أقطار الأرض حكاماً قد استهوى النفوس إلى دعوة الحق التى بعثت إلى أرواحهم بكل هذه القوة . لكن هذا التطور الذى أشرنا إليه كان مقدمة الضعف والركود الذى استولى على الإسلام زمناً ، والذى امتد إلى زمننا هذا فيما خلا فترات يقظة كانت تعود بالإسلام إلى كل مجده ثم ما تلبث أن تنطفئ تحت عبء هذا التطور والفكرة التى أدت إليه . ولست أجد خيراً فى تصوير هذا التطور والفكرة التى قام على أساسها من أن أنقل عبارة الأستاذ « عبد الحميد العبادى » حين أرخ « لهارون الرشيد » فى أحد ملاحق « السياسة » إذ قال : (ما النظام الذى كانت تخضع له الدولة العباسية ؟ هو نظام الخلافة بالطبع . ولكن الخلافة على عهد العباسيين كانت غيرها على عهد الخلفاء الأوائل . فخلافة العباسيين مختلفة عن خلافة أبى بكر وعمر كما يختلف الحكم الاستبدادى عن الديمقراطية الصحيحة . ذلك بأن العباسيين أخذوا عن الفرس نظرية الحق الإلهى فى الحكم . ولكى يعطوا هذه النظرية الصبغة الإسلامية زعموا أن الخلافة ميراث عن النبى صلى الله عليه وسلم وأجروا عليها أحكام الميراث ، وبذلك يكونون هم أحق الناس بها ، وفى هذا المعنى يقول شاعرهم :

أنَّى يكــون وليس ذاك بكائن　　لبنى البنات وراثة الأعمام

ويقول « السفاح » فى خطبته التى خطبها الناس عند مبايعتهم له بالكوفة : « واعلموا أن هذا الأمر فينا ، ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى

عيسى بن مريم عليه السلام » . ويقول « المنصور » من خطبة له : « أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتأييده ، وحارسه على ماله ؛ أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه بإذنه . فقد جعلنى الله عليه قفلاً ، إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم ؛ وإن شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى . . . » ولكى ندرك مدى التغيير الذى أصاب الخلافة فى عهد العباسيين نكتفى بأن نورد بعض خطبة « أبى بكر » التى خطبها على أثر بيعته فقد قال : أيها الناس ، قد وليت أمركم . ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . . . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . . . » كما نورد الشعر الذى خاطب به « الحطيئة » « عمر بن الخطاب » بعد أن بويع قال :

أنت الإمام الذى من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليد النهى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

وكما ورث « الرشيد » الحكم بموجب النظرية المذكورة ، فقد ورث بالإضافة إليها ما يصح أن يعتبر من الوجهة الفعلية جزءاً من النظام السياسى للدولة ؛ ذلك نظام البلاط ، وهو شيء أخذوه عن الفرس كذلك ، فقد كان الأكاسرة يعيشون محتجبين عن الرعية فى بلاطهم ، تحف بهم حاشيتهم وحجابهم وحراسهم وغلمانهم ، ونفوذ نسائهم وجواريهم — إن صح هذا التعبير . وكثيراً ما كان بلاط فارس بهذا الخليط مبعث الدسائس والفتن السياسية كما يرى من تاريخ متأخرى الساسانيين ، كذلك كان البلاط على عهد الدولة العباسية . وقد ظهر أثره السيئ فى الشئون العامة لأول ظهوره ؛ فقد ذهب « المهدى » و « الهادى » ضحية مكايد دبرت لهم فى نفس بلاطهم .

« حكومة استبدادية تستند إلى نظرية سياسية جامدة ؛ وبلاط هو بحكم تكوينه ذوجو صالح للدس والمكايدة ، ذلك هو النظام السياسى الذى أصبح الرشيد يحكم بمقتضاه وفى حدوده ، وهو نظام من شأنه أنه إذا كان الذى يحكم فى ظله قوياً كان من أقوى أسباب الاستبداد والطغيان . وإذا كان ضعيفاً كان من أقوى بواعث الفتنة والاضطراب .

« وهذا بالدقة ما يثبته تاريخ الدولة العباسية . فالمتقدمون من خلفائها الذين يوصفون بالقوة والكفاية كالمنصور والمهدى والرشيد والمتوكل كانوا جبابرة طغاة ، وأما المتأخرون الذين يوسمون بالضعف فقد كانوا ألاعيب فى أيدى أهل البلاط ونساء القصر ؛ يصرفونهم كيف شاءوا وشاءت أهواؤهم » .

لكن هذا الذى حدث منذ العباسيين مما صور الأستاذ العبادى لم يكن جديراً أن يظهر أثره فى سنين قليلة ، ولم يكن من شأنه بطبيعة ظروف العالم العامة يومئذ أن تضعف الدول الإسلامية إزاء الدول غير الإسلامية . صحيح أن الإسلام وقف فى مركز جغرافى وسط بين أوربا المسيحية إلى غربه وبين الأديان الهندية والصينية إلى شرقه . لكن نظريات الحكم ونظامه لم تكن فى أوربا خيراً مما كانت فى الدول الإسلامية ، ولم تكن كذلك فى دول الشرق الأقصى . على أن ظروف هذا الانحلال الفكرى فى الدول الإسلامية مهدت للغزو المغولى والترى . ولما كان هؤلاء وأولئك قد أسلموا كان قيامهم وغزوهم الدول الإسلامية الأخرى من عوامل يقظة الإسلام وانكماش دول أوربا الغربية ودول الهند والصين أمامه . ثم إن هذا التطور الذى أشرنا إليه والذى نقلنا وصفه عن الأستاذ العبادى كان لا بد أن يؤتى من الثمرات ما آتى وأن يمهد للعصر الذى مهد له بعد يقظة أوربا

وتسلم حضارة الصناعة زمام القيادة العالمية لتزج بالعالم كله فيما زجت به فيه من مادية توشك اليوم أن تنهار وتتداعى .

ظلت الدول الإسلامية محتفظة بمركز القيادة برغم هذا التطور السيئ لأن أوربا كانت خاضعة لتفكير مثله أو شرمنه ، ولأن مركز التجارة والرخاء الاقتصادى كان بين المسلمين . على أن نهضة أوربا فى القرن التاسع الهجرى وما وجه إليه تحرير الفكر أنظار هؤلاء الغربيين إلى الناحية العملية كان جديراً أن يقيم حضارة الصناعة وأن يزعزع هذا المركز الممتاز الذى كان للمسلمين . صحيح أن أوربا لم تجرؤ على التفكير فى غزو الإسلام قبل القرن الثامن عشر المسيحى ، وصحيح أن المسلمين ظلوا محتفظين بذاتيتهم وباستقلالهم وظلت الخلافة الإسلامية التى رفع بنو عثمان علمها شبحاً أمام التقدم الاستعمارى الأوربى ، إلا أن المسلمين شعروا بأنهم وقد كانوا إلى عصر قريب غزاة العالم تغزوهم صناعات وأفكار جديدة ويغزوهم من نواحى الغرب رجال يجيئون أول أمرهم أفاقين ثم ما يلبثون أن يصبحوا أصحاب الحول والطول وأصحاب النفوذ والمال . وماذا عسى المسلمين أن يصنعوا ؟ بدءوا أول أمرهم يحدقون ذاهلين بهذا الذى وقع ويسائلون أنفسهم عن سببه فلا يحيرون جواباً . وأدى ذلك بهم إلى الانكماش وإلى التوجه بقلوبهم إلى ناحية دولة الخلافة يأملون فى قوتها الروحية والزمنية من هذه الكارثة مخرجاً ، ولم يتقدم من بين صفوفهم أولئك الأفذاذ الأقوياء الذين يهزون العالم ويبعثون إلى النفوس روح الإقدام وروح الاستخفاف بالحياة والذين يصيحون بأهلهم قائلين : « فَتَمَنَّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِين » بل استكان الكل وظل الأمر بيد الخليفة وبلاطه وبين حكم الخلافة المستبد وشهوات أهل البلاط المادية الوضيعة ودسائسهم المنحطة القذرة الدنيئة

ذلك بأن الفكرة التى أدت إلى التطور الذى قدمنا كانت قد آتت فى هذا الظرف كل ثمراتها . يقول « جب » : « ظل علماء الإسلام يعلمون الناس مدى عشرة قرون تباعاً — لمناسبة ولغير مناسبة — وجوب الإذعان للسلطة سواء أكانت هذه السلطة شرعية أم مغتصبة ؛ وقوى المتمسكون هذا الدرس فى النفوس بصورة لا تحتمل الريب . وتبدى الهمود السياسى وكأنه متأصل فى الشعوب الإسلامية حتى عزاه الغربيون الذين لاحظوا تحمل المسلمين للضغط وسوء الحكم إلى العقيدة القدرية فى الإسلام ، لكن هذه لم تكن قط أكثر من نصف حقيقة . فالقدرية بهذا المعنى المطلق لم تكن سبباً بمقدار ما كانت نتيجة . والاستكانة السياسية التى بدا بها الشعب الإسلامى إزاء الغير ترجع فى معظمها إلى أسباب مادية ؛ البؤس الاقتصادى من أكثرها ظهوراً » . ولسنا بحاجة إلى القول بأن الأستاذ « جب » لا ينصف الإسلام حين يعزو إليه أى حظ من هذه القدرية التى أدت بشعوبه إلى الاستكانة . فالإسلام لا يدعو للإذعان إلى أحد إلا لله . والقرآن الكريم أعظم الكتب السماوية دعوة لطاعة الوالدين ورضاهما . يقول فى صدر الكلام عنهما : « وإنْ جاهَداكَ عَلى أنْ تُشرِكَ بِى ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تطعْهُما وصاحِبْهُما فى الدُّنيا مَعْرُوفاً » . فإذا كان ذلك شأن الوالدين فما بالك بمن يجاهدك على أن تخضع لما ليس لك به علم ، وأن تصل من الخضوع له حتى تجعله فى السلطان لله شريكاً . إن أقل ما يأمر به الإسلام فى هذا الظرف الثورة عليه وتحطيمه وتحطيم تعاليمه . فأما ما جاء بعد ذلك من خضوع واستسلام فإنما كان أثراً لهذا الانقلاب النفسى فى تصوير أساس الحكم فى الإسلام .

لم يجرؤ أحد على أن يجهر بهذه الحقيقة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ومن جهر بها كان معناه التعرض للتشريد والنفى والإلقاء

فى أعماق الدردنيل جزاؤه . لكن المدنية الأوربية كانت دائبة لغزو الشرق ولغزو الأمم الإسلامية بتجارتها وصناعتها وبثقافتها كذلك . وإذا استمر الأمر على هذا فقل على الخلافة الإسلامية وعلى العالم الإسلامى السلام . ورفع كتاب الغرب وساسته عقائرهم يصيحون أن الإسلام كدين هو سبب انحطاط الشعوب الإسلامية . وأن هذه الشعوب لا مفر منقرضة ، وأن دولة الخلافة قد صار أمرها إلى أن أصبحت الرجل المريض لا مفر له من الموت الذى هو آتيه لا محالة . وقوى نشاط المبشرين للمسيحية فى العالم الإسلامى وقوى إلى جانبه نشاط الدعاة إلى الحضارة الغربية . فماذا عسى يصنع ساسة دولة الخلافة . لا شىء فى الواقع. لكن المفكرين والكتاب من المسلمين بدءوا نشاطهم فى ناحيتين : أولاهما سياسية هى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية . والثانية دينية تجديدية هى الدعوة التى قام بها الأستاذ الشيخ محمد عبده والذين قاموا فى أثره . وكان غرض الدعوة إلى الجامعة الإسلامية تجنيد الرأى الإسلامى ضد غزوة أوربا المسيحية وقد أيد الباب العالى وأيد الخليفة هذه الدعوة بكل ما لديه من قوة . على أن هذه الدعوة وجدت فى غزو الحضارة الأوربية من قوة المقاومة ما ضعضعها ، ذلك بأن الشعوب الإسلامية شعرت شعوراً عميقاً بضرورة الاستفادة مما كشفت عنه حضارة الصناعة وما روجت له هذه الحضارة من تنظيم أسباب الحياة فى المسكن والملبس ووسائل العيش . أما التجديد الدينى فقد قام على أساس شعور عميق عند الشيخ محمد عبده وعند طائفة من أنصاره وأصحابه بأن الجمود الذى استولى على الإسلام والمسلمين إنما كان سببه إقفال باب الاجتهاد وأخذ الناس بالتقليد الأعمى وترويج خرافات وأوهام باطلة ونسبتها إلى الدين واعتبار الخارج عليها وغير المؤمن بها ملحداً يرمى بالتكفير . وقد بنى

الأستاذ الشيخ محمد عبده دعوته على الإسلام الصحيح الإسلام المستند إلى القرآن وإلى السنة ، الإسلام الذى أراد أن يحرر العقول والأفهام من كل معنى من معانى الوثنية ، هذا هو الإسلام الذى ينقذ المسلمين ويرد إليهم مجدهم . أما هذا الإسلام التقليدى الذى جاءنا بعد ثلاثة عشر قرناً تداولته فيها أعاصير السياسة ودست فيه الفكرة الاستبدادية من الأوهام ما يمكن للمستبدين ويجعل لهم السلطان المطلق فلا يمكن أن تقوم على بدعة وأوهام أمة من الأمم ترجو فى الحياة سؤدداً أو مجداً . ومع أن الميدان الذى عمل فيه الأستاذ الشيخ محمد عبده لم يتناول إلا الشؤون الدينية البحتة فى حدود ما يطلق عليه الإفرنج التيولوجيا . وبالرغم من أن الشيخ كان يعمل لإصلاح الأزهر وصلاح حال رجاله ، فقد قام هؤلاء الرجال فى وجهه أشد قومة وحاربوه أشنع الحرب ورموه بالإلحاد والكفر واعتبروا الدعوة التى كان يدعوا إليها – والتى تعتبر فى نظرنا متواضعة غاية التواضع إلى جانب ما دعا النبى عليه السلام إليه من حرية الفكر والفؤاد والقلب – دعوة إلحادية جدير بصاحبها أن يبوء بغضب صاحب العرش وأن يبوء بغضب الجمهور . على أن شخصية الشيخ محمد عبده الممتازة تركت فى العالم الإسلامى أثرها وأتاحت للمسلمين أن يتخلصوا ولو تخلصاً ضعيفاً من سلطان التقليد الأعمى ومن سلطة الدجاجلة الذين يتقدمون إليهم باسم الدين يسممون عقولهم وأفكارهم بالخرافات والترهات .

لم تصادف الدعوة إلى الجامعة الإسلامية من النجاح إلا حظًّا نظريًّا صرفاً . وظلت دعوة الأستاذ الشيخ محمد عبده محصورة فى حدود ضيقة لأن برنامجاً إنشائيًّا لم يوضع لها ولأنها لم تبلغ من الجرأة فى هدم الأوهام المبلغ

الذى يطوع لها حقها الكامل من النجاح . وفى هذه الأثناء كان غزو أوربا مطرد التقدم . وفى هذه الأثناء كانت العناصر غير الإسلامية فى العالم الإسلامى تتعلم وتتقدم وتنال الحظوة والثروة . وفى هذه الأثناء كان رجال الدين فى شغل بالمناقشات البيزنطية العقيمة وبرمى الشيخ عبده وأصحابه بالإلحاد والمروق وبمثل هذه التهم التافهة التى لا تروج إلا فى عصور الانحلال والتدهور وتحت سلطان الاستبداد والطغيان . وكانت مصر قد امتد إليها النفوذ الأوربى بأكثر مما امتد إلى الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف فجعل هذه المدنية الغربية ومبادئها وما تدعو إليه محسوساً فيها مقدراً من أهلها . والمدنية الغربية كانت دعامتها العقلية حرية الرأى والفكر وتحطيم أغلالها أيًّا كان نوع هذه الأغلال . إذن فلابد أن كانت هذه الحرية مصدر هذه القوة العجيبة التى طوعت لأوربا أن تغزو الشرق وأن تغزو العالم الإسلامى هذا الغزو المريع . فلتأخذ بالحضارة الغربية ولننسج على منوال الغرب . وكذلك قامت الدعوة إلى نظام فى الحكم كالنظام القائم فى الأمم الأوربية وإلى تعليم كالتعليم الموجود فى أوربا وإلى ثقافة غربية بحتة ، وحسب بعضهم أن لا مفر من هذا أو يقضى على الشرق القضاء الأخير . وغلا بعضهم فى ذلك حتى رأى واجباً أن يقطع العالم الإسلامى صلاته بالماضى كله وأن يستل عن المدنية الغربية بحذافيرها . وهذه الدعوة هى ما يسميه مؤلفو الكتاب الذى أوحى إلينا بهذا الفصل بهذا الاسم العجيب : تغريب الشرق .

ويلاحظ الأستاذ « جب » وزملاؤه المؤلفون أن أصحاب هذه الدعوة نسوا أن مظاهر حضارة الغرب تعتمد على أصول قديمة وإلى ثقافة عريقة وأن نقل الظاهر وحده لا يكفى لإقامة هذه الحضارة . وهذه ملاحظة أبداها

منذ عشرات السنين اللورد « ملنر » فى كتابه « إنجلترا فى مصر » عن سعى الخديو الأول « إسماعيل باشا » لنقل مظاهر الحضارة الغربية إلى مصر . لكنا لا نوافق الأستاذ « جب » على ملاحظته ونقف منها موقف الناقد للغرب فى حضارته القائمة على الأثرة والأنانية والمشبعة من المادة الاقتصادية بروح هى التى خلقت لأوربا متاعبها فى الحرب ومتاعبها الحاضرة . فقد أدرك هؤلاء المصريون أن مظاهر الحضارة الغربية ترتكز إلى أسس رآها بأعينهم من سافروا منهم إلى أوربا وتغذى منها من درسوا فى الجامعات الأوربية ومن اطلعوا على أدب الغرب . ولذلك قاموا فى مستهل هذا القرن العشرين يدعون إلى إنشاء جامعة على نظام جامعات أوربا يكون لها استقلالها ويكون للعلم فيها أساسه الصحيح من حرية البحث والتفكير . لكنهم ما كادوا يفعلون حتى وقفت السلطات الرسمية الخاضعة لنفوذ إنجلترا فى مصر منهم موقف الخصومة وحتى دعا لورد « كرومر » الأهالى والأعيان المصريين الذين طلب إليهم أن يكتتبوا لإنشاء هذه الجامعة كى يكتتبوا لإنشاء الكتاتيب ، وظلت الجامعة بعد ذلك تحارب فى السر وفى العلن ولا يزال ذلك شأنها إلى وقتنا الحاضر . وهذا عجيب ، فقد كان المسلمون لا يكادون ينزلون بلاداً يفتحونها حتى يمهدوا منذ أول نزولهم فيها لتشييد بناء حضارتهم بها ، ولم يكن يدور بخاطرهم أن يحرموا أهل هذه البلاد من النهل من أصول هذه الحضارة ومصادرها . فوقوف ممثلى الحضارة الغربية فى وجه انتشارها بصورتها الصحيحة واكتفاؤهم بتناول الشعوب الأخرى مظاهرها وآثارها غير متمثلة ، أنانيةٌ غير جديرة بالدعوة إلى الحضارة وإلى التقدم . على أن ما حدث من هذا كان له أثره الحسن . فقد شجع القادرين على أن يرسلوا بأبنائهم إلى أوربا ليدرسوا فى جامعاتها على ما فى ذلك من كلفة

ومشقة . وازداد عـــدد هؤلاء وكثروا فى مصر . كما حذت الأمم الإسلامية الأخرى حذو مصر وعاد هؤلاء وأولئك إلى بلادهم يبثون الحضارة الغربية . لكنهم ما لبثوا أن صدمتهم ظاهرتان عجيبتان أثارتا دهشتهم لتناقضهما مع أصول الحضارة الغربية تناقضاً بيناً : الأولى هذه الحـرب المنظمة التى يقوم بها الاستعمار الأوربى لحرية العقل حرية مستندة إلى النظام الجامعى الذى يقرر البحث الحر الطليق من كل القيود ، سواء أكانت دينية أم غير دينيـــة والمستند إلى القواعد العلمية الصحيحة ، قد راعهم من هذه الحرب أنها لم تكن تقبل هوادة قط ؛ وأن ممثل إنجلترا فى مصر لم يكن يأبى أن يكتب فى تقاريره أن مصر بغير حاجة إلى علماء بالمعنى الغربى وإنما هى بحاجة إلى موظفين مطواعين . والظاهرة الثانية انتشار المبشرين الغربيين فى كل مكان فى المدن الكبيرة والصغيرة بل فى القرى ، يدعون إلى المسيحية ولا يأبون التعريض بالإسلام . وبالرغم من هاتين الظاهرتين ظل هؤلاء الشبان يدعون إلى الحضارة الغربية مستندة إلى أصلها الصحيح ، أى إلى حرية البحث ونزاهة العلم ، ويدعون إلى ذلك فى حرارة لم يكن من شأن الجامدين على التقليد الدينى الذين رموهم بالإلحاد إلا أن زادوها قوة واستعـاراً . لكن مرور الزمن فتح عيونهم على حقيقة أخرى لم تكن أقل إثارة لدهشتهم من الظاهرتين اللتين قدمنا . فما يصدّر الغرب للشرق من آثار حضارته قد وقف أو كاد عند أسوأ ثمرات الغرب من الربح المادى مما يمده بأسباب الرخاء والترف . فتجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهو وجوقات الهذر المسرحى كانت هى أول ما يصدم الناظر لآثار الغرب فى الشرق . ولم يقدم الغرب إلى جانب هذا من صالح ثمرات حضارته ما يستر سوآتها هذه . بل هو كما قدمنا وقف حائلا دون سرعة

انتشار العلم الصحيح مما كان هؤلاء الشبان يجاهدون بكل ما يدخل فى حدود طاقتهم لنشره والتمكين له .

* * *

ظلت الحال كذلك إلى أن أعلنت الحرب الكبرى ودخلتها تركيا إلى جانب ألمانيا . وكان من أثر انتصار الحلفاء أن قضى على الرجل المريض – الإمبراطورية العثمانية – وأن وضع الحلفاء أيديهم على بلادها المختلفة ؛ وخضوع العالم الإسلامى كله فيما خلا تركيا وفارس وأفغانستان وشبه جزيرة العرب إلى النفوذ الأوربى مصوراً فى صورة الانتداب أو الاستعمار أو الاحتلال العسكرى أو ما شئت من هذه الأسماء المختلفة اللفظ المتفقة المدلول . وجاء فى أثر ذلك أن خلعت تركيا الخليفة السلطان « عبد المجيد » ، وأن نفته وأهله ، وأن أعلنت رغبتها عن الخلافة . وربما شعرت الأمم الإسلامية التى تحررت من النير التركى بشىء من التخفيف عنها أول الأمر. فقد كانت هذه الأمم متعطشة من زمن بعيد إلى نهضة تنهضها وينهضها الإسلام وكانت ترى فى تركيا وفى الاستبداد التركى وفيما كان الرأى عند ساسة الترك قبيل الحرب من تتريك العرب حائلا دون هذه النهضة . وقد بذلت دول الغرب أثناء الحرب وفى أعقابها من الوعود وتغنت من أغنيات السلام والعدل المجرد من الهوى والحرية التامة الشاملة وحق الشعوب فى تقرير مصيرها بما جعل هذه الشعوب الإسلامية تطمع فى بعث جديد تناله فى ظل هذه المعانى . لكن تعاقب السنين من بعد الحرب كشف عن الحقيقة المضنية المؤلمة ، فهذه الأغنيات كلها لم تكن إلا وهماً وخداعاً . وقضية أوربا التى حاربت فى سبيلها أربع سنوات تباعاً والتى بذلت فيها

منهج أبنائها وملايين ما كدست من الثروة على مر السنين لم تكن إلا قضية الاستعمار ومن يكون له حق التوسع فيه : دول الوسط أم الحلفاء . ثم بدت حقيقة أشد من هذه الحقيقة مرارة وإيلاماً . تلك أن الغرب الذى تزعم دوله أنه تحرر من قيود التعصب الدينى ما زال يذكر الحروب الصليبية التى نشبت خلال القرون بين المسيحية والإسلام ؛ وأن كلمة لورد « اللنبى » يوم استولى على القدس وقوله إن الحروب الصليبية قد انتهت كانت تعبر عن معنى يجول بخاطر الدول الأوربية جميعاً وإن كان هذا الجندى المقدام هو الذى صرح بها وكشف عنها . فى ظل هاتين الحقيقتين الأليمتين جعلت دول الغرب التى وضعت يدها على العالم الإسلامى تمد فى أسباب الجمود الدينى عن طريق الجامدين المتعصبين لتزيد الشعوب الإسلامية جموداً وليزيدها الجمود ضعفاً ؛ وجعلت تحمى الجماعات التبشيرية الدينية وتمدها بكل ما تستطيع من قوة وتحاول أن تحطم كل قلم وكل رأس يقف فى وجه هؤلاء وأولئك .

هنا كانت اليقظة المرعبة ، يقظة هؤلاء الشبان الذين درسوا فى أوربا وجاءوا ينشرون فى البلاد الإسلامية لواء حضارة الغرب . ما هذا ؟ إلى أى حضيض يهوى أهل هذه الحضارة ؟ وكيف تطوع لهم ضمائرهم أن يستخدموا العلم الإنسانى لإذلال الإنسانية ولإهدار كرامتها ؟ وكيف تظل أوربا على تعصبها الدينى الممقوت الذى انبعثت جنودها فى القرون الوسطى باسمه لمحاربة المسلمين ؟ ! وكيف تسيغ أوربا فى سبيل الحياة المادية وترفها وأن تحول بين شعوب كاملة ، بل بين عالم بأسره ، وبين النور المقدس الذى يضىء به الله الأرواح والقلوب من طريق العلم والمعرفة ! ! وكيف تطمع المسيحية فى أن تكتسح الإسلام وهو أسمى الأديان التى دعت

إلى الحرية الحقة ما أُخذ فى صفاء جوهره وما نُفيت عنه هذه الترهات التى أضيفت إليه على أنها منه وهى ليست منه ؟!! وقامت لذلك فى نفوس هؤلاء الذين ألقى إليهم النهوض بأعباء الحركات القومية التى اهتزت بها أمم الشرق فى أعقاب الحرب ثورةٌ على هذه الأساليب التى لجأ الغرب إليها. وجعل كل يفكر . وكانت ثمرات هذا التفكير هى ما ذكر الأساتذة « ماسنيون » و « كمبفماير » و « برج » واللفتنانت كولونل « فرار » فى فصول كتاب « وجهة الإسلام » .

جعل الكل يفكر فى سبيل الخلاص من استعمار الغرب وتبشيره . فأخذ جماعة بمذهب الرابطة الشرقية تربط أمم الشرق الخاضعة للنفوذ الغربى جميعاً ، وأخذ آخرون بمبدأ الجامعة العربية يظل لواؤها الذين يتكلمون العربية جميعاً . وفكر آخرون فى إحياء الخلافة لتربط من جديد بين الأمم الإسلامية ، ولكن على أن تكون خلافة روحية ليس لصاحبها سلطان زمنى ، ورأى بعضهم التمسك بمبدأ القومية ومقاومة الاستعمار الغربى بأسلحة الحضارة الغربية ، وفكر جماعة فى رفض ماضيهم الإسلامى والأخذ بماضيهم السابق على الإسلام كما فعل الأتراك وكما يجول بخاطر بعض أهل الغرب الأقصى من المراكشيين . وكانت لهذه الصور المختلفة من التفكير مظاهرها العملية . فقد تألفت جمعية الرابطة الشرقية فى مصر كما تألفت فيها جمعية الشبان المسلمين وانعقد فيها فى سنة ١٩٢٥ م مؤتمر الخلافة . وتألفت فى الهند جمعية الخلافة وكان مولاى « محمد على » على رأسها إلى حين وفاته ، كما أن الدكتور « إقبال » من أكبر دعاتها وإن ظل الدكتور « أنصارى » إلى جانب « غاندى » من دعاة القومية الهندية . وانعقد مؤتمر إسلامى بمكة فى سنة ١٩٢٧ م كما انعقد فى القدس

سنة ١٩٣١ م : وبدت فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى كله ثورة نشاط قوى دلت على أن التبشير لن ينال أى نجاح أكثر من إثارة الشعوب الإسلامية عليه وعلى أن الاستعمار لن يكون من أثره إلا إثارة الكراهية والمقت فى قلب الشرق وفى قلب العالم الإسلامى للغرب وحضارته المادية التى هوت بأساسها ، حرية العقل ، إلى صور من الأدب ومن الموسيقى ومن الرقص ومن ألوان الحيـــاة والترف تدل على أن هذه الحضارة قد آذنت بالأفول ، وأنها تخطت جانب الصعود إلى جانب الانحدار والتدهور .

وكان تهدم الحضارة فى الشرق من أقوى العوامل لبث هـــذه الآراء ولتدعيم كل مظاهر نشاطها . والذين يقومون بأمر الصحف فى الشرق ويؤيدون هذه الأفكار الثائرة على الغرب وعلى استعماره وتبشيره كثرتهم الساحقة إن لم نقل كلهم من الذين تعلموا علوم الغرب وكانوا يبشرون بحضارته ومن الذين يؤمنون ما يزالون بأن الأساس الذى قامت عليه ، حرية العقل والتفكير وحرية البحث العلمى بحثاً جامعيًّا منظماً ، هو خير أساس تقوم عليه حضارة ، على أن لا ينكر هذا الأساس حاجات الروح للاتصال بالعالم على أنه فكرة لا على أنه آلة ، وعلى أن لا ينكر كذلك على العاطفة وعلى وحى النفس وإلهام الفؤاد سلطانهما فى الحياة ؛ وعلى أن ينظر إلى العالم على أنه كل له وحدته العليا ، لا على أنه كم مادى يستطيع العقل أن يصل إلى كنه كل ما فيه بالتحليل والتشريح وبأدوات البحث العلمى الناقصة غاية النقص ما تزال .

ليس يكفى إذن لإقناع الغرب بأنه غزا الشرق فى كل ميادينه أن تكون أساليب الغرب فى الحياة وكسب العيش قد انتقلت إلى الشرق فأصبح يستعمل الآلات الزراعية الغربية فى زراعته والصناعية فى صناعته

وأنه أصبح يلبس لباس أهل الغرب ويأكل على طريقتهم وينتقل بوسائل انتقالهم . بل ليس يكفى لهذا الاقتناع أن ينقل الشرق أساليب حكم الغرب . فهذه كلها مظاهر خارجية إن بهرت النظر فقد لا يكون لها فى دخيلة النفس أثر . وهذا ما يلاحظه الأستاذ « جب » بمنتهى الدقة : حيث يقول : « إن مستقبل – التغريب – وما سيكون له من أثر فى العالم الإسلامى لا يتعلق بأى من هذه الاستعارات الخارجية . فالأشكال الظاهرة فى المحل الثانى . والأمر كذلك فى هذه الشؤون – الاجتماعية – أكثر منه فى الشؤون المادية . فكلما كان التقليد الظاهر أكثر دقة كان التمثل الداخلى أقل قياماً . ذلك بأنه كلما ازدادت الإحاطة بالروح والمبادئ التى تقوم عليها الأشكال الظاهرية دقة ارتبط بها عادة قصور ما تقتضيه الظروف المحلية لاقتباسها . وقد يتهدم كثير من النظم الغربية ومع ذلك لا يكون العالم الإسلامى أقل – تغرباً – مما كان ، بل لقد يكون أكثر تغرباً . ولو أننا أردنا أن نعرف القدر الصحيح الذى أثرت به الثقافة الغربية فى الإسلام فإنا يجب أن ننظر تحت السطح وأن نوجه نظرنا فى المحل الأول للأفكار والحركات القائمة على أساس من التمثل الخالق للفكر الغربى بعد تحضير داخلى فى النفس عميق . أما ما سوى ذلك فسطحى كله . ومهما يكن العمل دقيقاً وشاقًّا فإنا يجب أن نبذل جهدنا لنميز من بين ما استورد من موارد الغرب ، الفاسد أكثرها ، والتى تزحم الآن أسواق الإسلام وميادينه ، تلك التى تقيم الأسس الأولى لبناء ثقافة جديدة » .

وهنا يمس الأستاذ « جب » جوهر المسألة ويتحدث عن التربية والتعليم وعن إقامة نظمها فى العالم الإسلامى على أسس غربية . وهو فى الوقت نفسه يتحدث عن الصحافة وعملها وسلطانها فى إقامة أساس الثقافة الجديدة .

وهو يقول إن التربية والصحافة ومقومات الحياة كانت أكثرها ترمى إلى التفرقة بين الحياة الزمنية والحياة الروحية الدينية ؛ فليس شيء من شئون هذه الحياة يصح أن تسبغ عليه الطابع الدينى إلا ما كان دينياً بطبعه . وقد استطاعت الثقافة فى نظر الأستاذ « جب » أن تحقق هذه الغاية . يقول الأستاذ : « إذا كان الإسلام كدين لم يفقد إلا قليلاً من قوته فهو كنظام للحياة الاجتماعية ؛ قد نزل عن عرشه وقامت إلى جانبه أو من فوقه قوى جديدة لها من السلطان ما يتعارض فى بعض الأحيان مع تقاليده وتنظيماته الاجتماعية وهى مع ذلك تقوم فى موقف الاحترام منه . ولنصف الواقع فى أبسط صوره فالذى حدث هو ما يأتى : إلى عهد قريب كان المسلم المزارع أو ساكن المدينة وليست له مهام ولا واجبات سياسية ، وليس له أدب سهل التناول غير الأدب الدينى ؛ وليس له أعباء ولا حياة عامة إلا ما اتصل بالدين ، ولم يكن يرى من الحياة الخارجية إلا قليلاً أو لا شىء إلا من خلال المنظار الدينى . فالدين كان إذن كل شىء عنده . أما اليوم فقد انفسحت مهامه فى الأمم التى أصابت حظًّا من التقدم ولم يبق نشاطه محدوداً بالدين . فهو يقرأ أو تقرأ له فصول شتى فى شؤون من كل نوع لا علاقة له بالدين ولا تناقش فيها وجهة النظر الدينية على الإطلاق ويكون الحكم فيها لنظريات ومبادئ لا شأن للدين بها . وهو يجد فى كثير من متاعبه ومنازعاته أن لا فائدة له من التقدم إلى المحاكم الشرعية وأنه إنما يقيده قانون مدنى قد لا يعلم من أين يستمد سلطان نفاذه ولكنه يعلم أنه لا يستمد هذا السلطان من القرآن ولا من السنة . ولم تبق الشؤون الدينية شاغله الوحيد فى صلاته بغيره من مواطنيه بل أخذت المشاغل والمهام الزمنية بنظره وتقديره وبذلك خفت سلطة الإسلام فى الحياة الاجتماعية

وتراجعت شيئاً فشيئاً إلى ميدان من النشاط أشد ضيقاً ، وقد تم كثير من ذلك عن غير وعى وحس ؛ وبين نسبة قليلة من المتعلمين كان الشعور بهذا الذى تم . والذين حاولوا إتمامه عن إدراك وشعور كانوا أقل من أولئك نسبة » . وهنا يجب أن نعترف بأن الأستاذ « جب » قد لمس الحقيقة كما لمسها من قبل . لكنا نعتقد من ناحيتنا ، مع الاعتراف بما كان لدوافع الحضارة الغربية من أثر فى التطور الذى أشار الأستاذ إليه ، أن هذا الاتجاه الحديث الذى تأصل فى نواح كثيرة من نواحى الحياة الإسلامية إنما دفع إليه الثورة على الجمود وعلى التقليد الأعمى وعلى الخرافات والأوهام القديمة وعلى هذا الازدراء بالعقل الإنسانى وبحريته مما امتازت به المدرسة العتيقة التى كانت سبباً فى تدهور الإنسان وانهيار الشعوب الإسلامية . وليس أدل على ذلك مما لاحظه الأستاذ « جب » وزملاؤه مؤلفو « وجهة الإسلام » من أن كثيرين من الشبان الذين حملوا ألوان الحضارة الغربية وصاروا يبشرون بها قد عاد الكثيرون منهم يشعرون شعوراً قوياً صادقاً بأنهم فى حاجة إلى أكثر مما تمدهم الحضارة الغربية به ، وأنهم لذلك يجب أن يلجأوا إلى تراث السلف من المسلمين لالتماس ما ينقص هذه الحضارة الجديدة . وزادهم شعوراً بهذا النقص أن رأوا الفكرة القومية تقوم فى الغرب على نضال اقتصادى عنيف لا يعرف هوادة ولا يقف فى وجهه اعتبار من قواعد الخلق أو من الإخاء الإنسانى أو من المودة والرحمة . نضال فى سبيل المادة بين أهل البلد الواحد وبين الدول المختلفة هو الذى كان مثار الحروب ومثار أسباب الشقاء والتعس فى هذا العصر من عصور الإنسانية . وقد زادت الصناعة التى كانت وما تزال مظهر هذه الحضارة بآلات الحرب بشاعة وقسوة ، فهل ترى يجد العالم

الإسلامى فى تراث الماضى ما يشفى غلة روحه مما عجزت الحضارة الغربية عن أن تقوم به وما يقيم حياة جديدة وحضارة جديدة ليس فيها هذا الجشع المادى الفظيع الذى يهوى بالإنسان إلى مرتبة لا ترضاها النفس الفاضلة ؟ !

إن هذا التراث قد اختفى تحت طبقات وطبقات من أباطيل عصور الانحلال الذى أصاب العالم الإسلامى قروناً متواصلة فليكن من عمل رجال العالم الإسلامى أن يزيحوا أكداس هذه الطبقات ، وأن يعيدوا إلى الوجود فى إحدى صور الوجود وعلى طريقة علمية صحيحة ما يشتمل عليه هذا التراث الذى غزا العالم وغذاه بأدوات الحضارة أجيالاً وقروناً طويلة .

عند هذه النقطة يقف العالم الإسلامى اليوم . ومظهرها الصريح الواضح أن أولئك الذين كانوا دعاة الحضارة الغربية وحملة أعلامها والذين بلغوا من إدراك حقيقتها أن وقفوا على هذا العجز والقصور فيها هم الذين يقومون اليوم بهذه الدعوة ، وكثيرون منهم هم الذين يقومون اليوم بهذا البحث . أولئك يشعرون شعور الواثق بأنهم سيجدون لا ريب فى هذا التراث ما يبعث إلى عالم اليوم الرازح تحت ظلمات المادة ضياء روحياً هم وحدهم القديرون على بعثه من جديد لأن اتصاله بروحهم دون روح الغرب هو الذى يذكى ضياءه . ويوم يوفقون إلى هذا فسيتاح للعالم الإسلامى بموقعه الجغرافى بين الغرب والشرق وبين المسيحية والديانات الآسيوية أن يمد يداً إلى ناحية ويداً إلى الأخرى ليرتفع بهؤلاء وأولئك إلى ميادين الحضارة الصحيحة ، الحضارة التى تدرك وحدة الوجود على وجهها الصحيح . الحضارة التى تقوم على أساس الإخاء وتقول إن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، الحضارة التى تبث فى أنحاء الحياة بسمات

السعادة الصحيحة وتضيئها بنور الحق الذى يقف محجوباً بحجب المكان والزمن . الحضارة التى لا تعرف إسلاماً لغير الله ولا تعرف للحق حدوداً ولا لحرية العقل قيوداً . والتى تنير ظلمات العيش بالشفقة والرحمة والإيثار وإطعام المسكين وابن السبيل والمؤاخاة بين الناس جميعاً أيًّا كانت أجناسهم وعقائدهم والمغفرة للمذنب والمحبة المنبثة فى أرجاء الكون كله والتى تندس اليوم إليها هموم المادة فتحيلها عداوة وحسداً وتقيمها كما تقيمها حضارة الغرب على أساس من حرب الطبقات . .

يوم ينهض الإسلام بهذا العبء العظيم يستمده من ماضيه بعد أن يكشف عن نوره ليضىء العالم كله ، يومئذ يبدأ العالم يشعر بنعمة السلام الحق المنبعث من أعماق قلوب ملئت رحمة وعطفاً ومحبة : أما إلى يومئذ فستظل المادة حاكمة متحكمة ، وسواء أكان النظام الذى يجعل الحكم للمادة بلشفيًّا أم كان نظام رأس المال فالشقاء حتم على الإنسانية لا محالة . ذلك بأن حكم المادة هو حكم الوحشية التى تستطيب الدم والدماء والموت ، أما حكم العقل والروح وما يستمدانه من كل ما فى الكون من مودة ورحمة فحكم الإخاء الذى لا سبيل غيره إلى السعادة والسكينة والنعمة والسلام .

مصادر الكتاب

الفصل الأول : الشرق والغرب

١ – فى العصور الوسطى :

السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٢٣٢ فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٣ صفحة ٣٣

٢ – إبان البعث الأوربى

السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٢٦٠ فى ١ نوفمبر سنة ١٩٣٣ صفحة ١٢

٣ – الحضارة الاستعمارية :

السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٢٨٥ فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٣ صفحة ٨ .

الفصل الثانى : الشرق فى طور بعثه

١ – أثر الحركات الفكرية فى بناء الأمم :

(ا) محاضرة ألقيت بحلب عام ١٩٥٣ بدعوة من دار الكتب الوطنية بها .

(ب) السياسة الأسبوعية فى ٩ أبريل سنة ١٩٢٧ .

٢ – الحرب وحركة التجديد فى الشرق :

السياسة الأسبوعية العدد ١٠٣ فى ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٨ ص ١٠ .

٣ – حضارة الشرق متى تبعث من جديد :

السياسة الأسبوعية العدد ١٤٧ فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٨ ص ١ .

الفصل الثالث : البوذية

١ – أصول البوذية :

السياسة اليومية العدد ٢٩٠ فى ٤ أكتوبر سنة ١٩٢٣ صفحة ٣ .

٢ – مميزات البوذية :

السياسة اليومية العدد ٢٩٦ فى ١١ أكتوبر سنة ١٩٢٣ صفحة ٣ .

٣ – النظر :

السياسة اليومية العدد ٣٠٨ فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٣ صفحة ٣ .

٤ – العمل :

السياسة الأسبوعية العدد ٣١٥ فى ٢ نوفمبر ١٩٢٣ صفحة ٣ .

الفصل الرابع : غاندى

١ – غاندى والسلام :

بحث كتب فى يناير ١٩٥٣ فى ندوة غاندى بالهند .

٢ – أساليب غاندى وكيف تخفف حدة التوتر داخلياً ودولياً :

بحث كتب فى يناير ١٩٥٣ فى ندوة غاندى بالهند .

٣ – حول الهند :

محاضرة بعنوان مشاهدات فى الهند عقب ندوة غاندى سنة ١٩٥٣

الفصل الخامس : الإسلام والحضارة الجديدة

١ – القوة الروحية فى الإسلام :

مجلة الشباب العدد الأول فى ١٧ فبراير ١٩٣٦ ص ٧ .

٢ – أوربا والإسلام ولم لا يتفاهمان :

مجلة الشباب العدد ٤ و٧ و١٢ فى ٩ و٣٠ / ٣ و ٦ / ٥ / ١٩٣٦ .

٣ – وجهة الإسلام :

ملحق السياسة رقم ٢١٣١ فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٣ ص ١٠

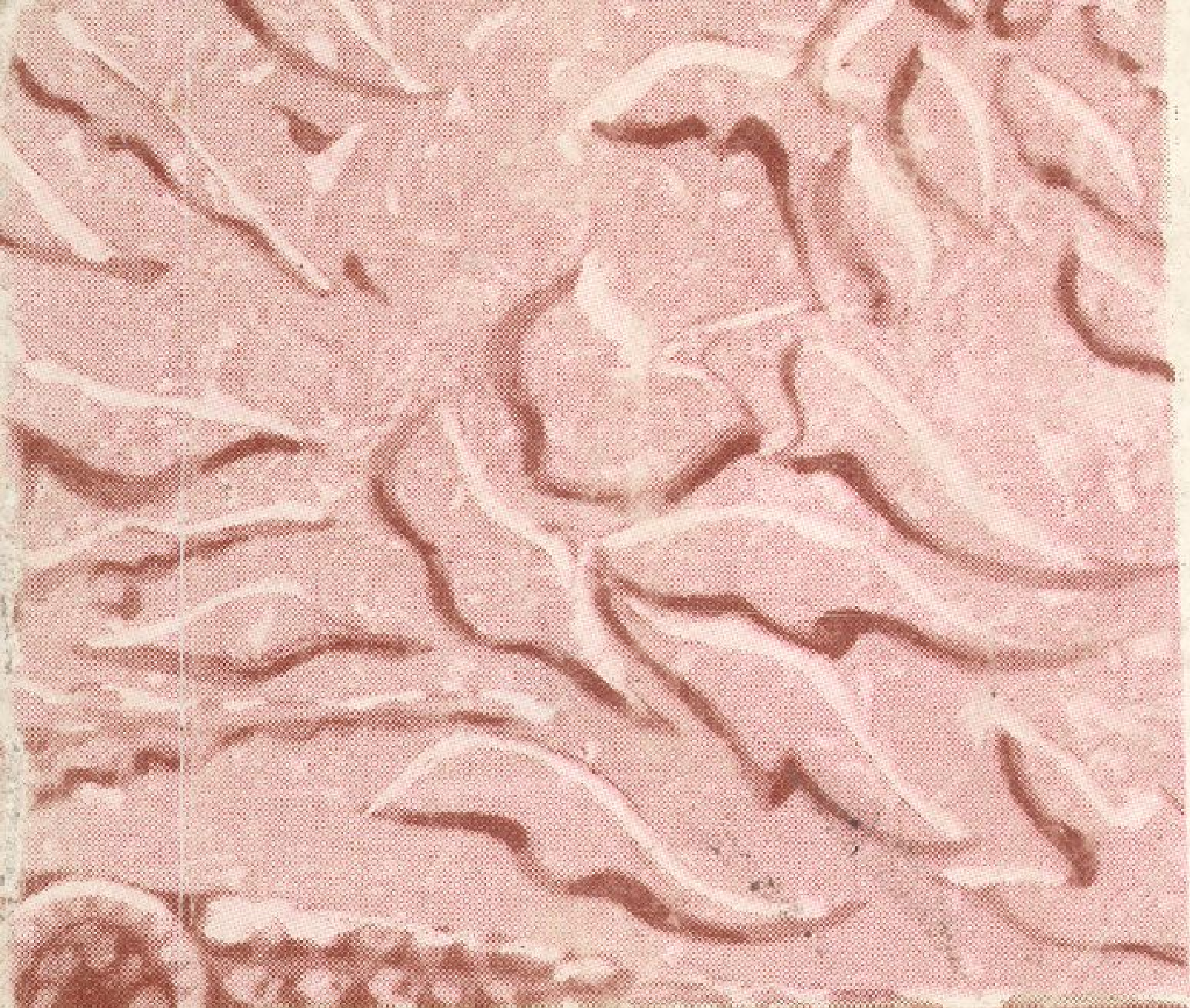
الفهرس

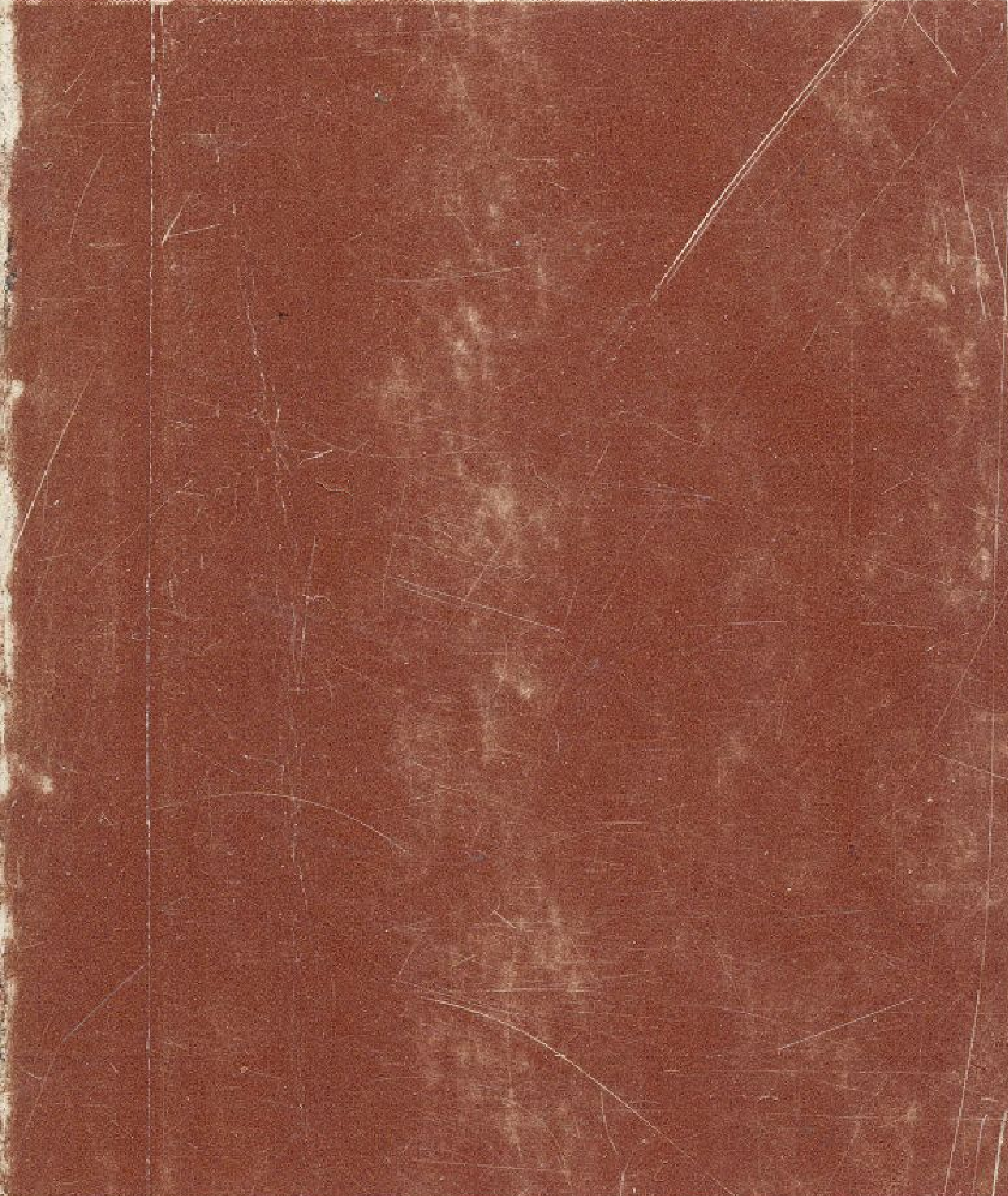
الصفحة

رقم الإيداع		١٩٩٠ / ٩٠٩٣
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3155 - X	ISBN

١ / ٩٠ / ١٦٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)









م
٤٥٠